

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة

ويوم يعض الظالم على يديه يقول
يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا

مختصر من زاد المعاد

اختصره وأنشأ عليه تعليقات

محمد أبو زيد

الطبعة الثالثة

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف

بسم الله الرحمن الرحيم

[الحمد لله] من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)

أما بعد فان الناس مطالبون بأن يعبدوا الله ويعملوا بدينه الذى نزّله لإصلاح شؤونهم الدنيوية والأخروية. ولأجل أن يصلوا إلى هذا يجب عليهم أن يعرفوا هدى الرسول وطريقته العملية التى بيّن بها ذلك الدين من أول مانزل الوحى إلى يوم أن كمل

وأحسن كتاب رأيته جاء بالمقصود فى هذا الموضوع كتاب (زاد المعاد فى هدى خير العباد) تأليف ابن القيم حافظ الدين راسخ العلم محقق البحث حر الفكر أحد الأئمة فى القرن الثامن الهجرى

الا أن هذا الكتاب فيه أبحاث متفرعة عن موضوعه جعلته طويلا يقع فى جزئين كبيرين يقل من يقرؤهما ولا يسأم. على أن رداءة ورقه وطبعه وغلاء ثمنه جعلته بعيداً عن تعميم الانتفاع به. وهو مهم جدا فأردت أن أسهله على الناس وأقربه من كل طبقاتهم فاختصرته ثم علقت عليه بما تدعو الحاجة اليه. وجعلت المختصر والتعليق معا جزءاً صغيرا يطمع من يرى حجمه أن يقرأه فى جلسة واحدة. وإذا أضيف إلى صغر حجمه حسن طبعه وجودة ورقه ورخص ثمنه فلا شك أن الرغبة

فيه تدوين والاقبال عليه يكثر . والغرض إظهار الدين بسهولته الداعية إلى تعلمه والعمل به.

﴿ يسر الدين بهدى الرسول ويقظة العلماء ﴾

لقد كان هذا الدين يسرا وسهلا في الزمن الاول: كان العلماء ينقلون هدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيعملون به في أنفسهم ثم يقدمونه للأمة ويطلبون منها أن تعمل كما يعملون. فالأمة تعمل ولا يعوقها في سبيلها شيء. ويسهل عليها العمل من جهتين: من جهة أن أمور الدين بينة المعنى سهلة الفهم ظاهرة الفائدة غير متشعبة الخلاف . ومن جهة أن العلماء يعملون بها فتأنس الامة بهم لأنهم خلفاء الرسول وورثته والأئمة فيهم قدوة حسنة.

﴿ عسر الدين بكتب الفقه وتقصير العلماء ﴾

ولقد عسر هذا الدين وصعب من يوم أن ترك العلماء هدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) في التعليم والعمل وتمسكوا بالآراء والجدل في كتب الفقه فتفرقوا إلى مذاهب وشيع . وتعصب كل فريق لمذهب. وأكثروا من الكتب وجعلوا للكتب شروحا وللشروح حواشي وللحواشي تقارير. وجعلوا أنفسهم أمام ذلك طبقات متعددة : مجتهد مطلق؛ ومجتهد مذهب؛ ومفتي مذهب؛ ومرجح مذهب؛ ومقلد . وكلفوا الناس أن يأخذوا الدين من هذه الكتب وأن يعملوا بما وضعوا فيها من القيود والشروط والرموز وما شابه ذلك مما لا يحصيه إنسان ويقف الناس أمامه حيارى لا يهتدون إلى ما فيه من الصواب ! !

﴿ مقارنة بين هدى الرسول وكتب الفقه ﴾

إنك لو قارنت بين هدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبين هذه الكتب المتشعبة فى الخلاف لرأيت الفرق الواضح والآية البينة: ان بابا مثل باب الوضوء وما بعده من الغسل والتيمم تراه فى هدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فتعرفه بمجرد نظرك اليه؛ ونحن تلقينا هذا الباب فى الأزهر فى ثلاثة أشهر ونيف وما عرفنا سهولة الدين وحقيقته إلا منذ اهتدينا بهدى الرسول (صلى الله عليه وسلم)

وإن منا من يقعد فى الأزهر اثنتى عشرة سنة أو خمس عشرة يتلقى كتب مذهب واحد من تلك الكتب ثم يأخذ شهادة العالمية وهو لم يحط بكتب هذا المذهب علما، فضلا عن كتب المذاهب الأخرى وكتب التفسير والسنة. بل يظل فى حيرة واضطراب لايهتدى الى الترجيح فى مسائلها الخلافية سبيلا!

فكيف مع هذا يكلف عامة الناس أن يعملوا بما فى تلك الكتب وهم يرون العالم يضطرب فى قوله ولا يجدون من تكون لهم أسوة حسنة فى عمله؟! وما خذ الدين كتب ضخمة الحجم كثيرة العدد متعارضة الآراء معقدة المسائل تعددت فيها التكاليف بعدد الشروط والأركان والفرق بين شروط الدخول وشروط الصحة والفروض والواجبات والأبعاض والهيئات والمندوبات والمستحبات والمبطلات والمكروهات وكراهة التنزيه وكراهة التحريم؛ وغير هذا كأنواع ألفاظ الطلاق والكنايات والتصريحات وكأحكام المحيرة التى حيرتهم فى دمها ومقياس المسافات للقصر فى السفر وحد الغوث وحد القرب عند فقد الماء فى الوضوء أو الغسل؛ وغير هذا كالفروض التى

يقولون فيها: لو فرضنا كذا وكذا مما يشتت الفكر ويضيع الوقت ولا يفيد علما بشيء وقع. فهذه كلها وأمثالها من الاستنباطات المفرعة فى كتب الفقه المعروفة ليس فى استطاعة العامة معرفتها ولا العمل بها، فضلا عن أن الله لم ينزلها ولم يكلف أحداً اتباعها.

﴿ القرآن والرسول ﴾

وإنما أنزل الله القرآن وقال (اتَّبِعوا ما أُنزِل إليكم مِن ربِّكُمْ ولا تتَّبِعوا مِن دُونه أَوْلِياء قليلاً مَّا تَذَكَّرون). وقال (واتَّبِعوا أحسَنَ ما أُنزِل إليكم مِن ربِّكم مِن قَبْلِ أن يأتيكم العذابُ بَغْتَةً وأنتم لا تَشعُرون * أن تقولَ نَفْسٌ يا حَسْرتَى على ما فرَّطْتُ فى جَنْبِ الله وإن كُنتُ لَمِن السَّاخِرين * أو تقولَ لو أنَّ الله هَداني لَكنتُ مِنَ المتَّقِين * أوْ تقولَ حِينَ ترَى العَذابَ لو أن لى كرَّةً فأكونَ مِنَ المُحْسِنين * بَلَى قد جاءتْكَ آياتى فكذَّبْتَ بها واستكبَرْتَ وكنتَ من الكافرين) وقال (فَبَشِّرْ عبادى الذين يستَمِعُونَ القَوْلَ فيتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ أولئكَ الذين هَداهُمُ اللهُ وأولئك هم أولو الألبَاب) وقال (اللهُ نزَّل أحسنَ الحديثِ كتاباً مُتَشابِهاً مثانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنهُ جُلودُ الذينَ يَخشَوْنَ رَبهُمْ ثمَّ تَلِينُ جُلودُهمْ وقُلُوبهم إلى ذِكر الله ذلك هُدى الله يَهدِى بِهِ من يشاء وَمَنْ يُضْلل اللهُ فما لهُ مِنْ هَاد) وقال (وَلَقدْ يسَّرْنا القرآنَ للذِّكْرِ فهلْ مِنْ مُدَّكِر) وقال (فإنما يَسَّرْناه بلسانِك لعلَّهم يَتذَكَّرُون) وقال (قُرآناً عرَبِياً غيرَ ذى عِوَجٍ لعلَّهم يتَّقُون)

وكلف الناس أن يهتدوا بهدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ أنه هو المبين لما أنزل الله . قال تعالى (وأنزلنا اليكَ الذِّكرَ لِتُبَيِّنَ للناسِ مانُزِّلَ اليهِم لعلهم يتفكرون) وقال تعالى (وَمَا أنزلنا عليكَ الكِتابَ إلا لِتُبَيِّنَ لهم الذى اختلفوا فِيهِ وهُدًى وَرَحمةً لِقَوْمٍ يُؤمِنُون) وقال تعالى (ويوم نَبعثُ فى كلِّ أمةٍ شهيداً عليهِم مِنْ أنفسِهِم وجئنا بكَ شَهيداً على هؤلاء ونزّلنا عليكَ الكتابَ تِبْياناً لكلِّ شىءٍ وهُدى ورحمة وبُشرى للمُسلمين) وقال (ما كانَ حَديثاً يُفتَرى وَلكن تَصْديقَ الذى بين يَدَيْهِ وتفصيلَ كلِّ شَىءٍ وهُدى ورحمةً لقومٍ يُؤمِنون) وقال (كتابٌ أنزلناهُ اليكَ لتُخرِجَ الناسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذْنِ رَبِّهِم إلى صِرَاطِ العَزيزِ الحميد) وقال (هُوَ الذى ينزل على عَبْدِهِ آياتٍ بيناتٍ ليخْرِجَكم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النور وإنَّ اللهَ بكم لرؤفٌ رحيم) وقال (إنا أنزلنا اليكَ الكِتابَ بالحَقِّ لِتَحْكُم بينَ النّاس بما أراكَ الله) وقال (قُلْ إنما أتّبِعُ مايوحَى اليَّ مِنْ رَبى.هذا بصائرُ من ربكم وهُدى ورحمةٌ لقومٍ يُؤمِنون) وقال (هذا بصائر للناس وهدى ورحمةٌ لقومٍ يوقنون) وقال(لقد كانَ لكم فى رسولِ اللهِ أسوةٌ حسنة) وقال (ويومَ يَعَضُّ الظَّالمُ على يَدَيْهِ يقولُ ياليْتَنِي اتخذتُ مَعَ الرسولِ سبيلا * ياوَيلتى ليتنى لم أتخذْ فلاناً خليلا * لقد أضَلَّني عن الذكرِ بعْدَ إذ جاءنى وكانَ الشَّيطانُ للانسان خَذولا * وقال الرسولُ يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مَهْجوراً) وقال (لا تجعلوا دُعاء الرسول..

بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) وقال (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً * يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا) وقال (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب) وقال (واتبعوه لعلكم تهتدون) وقال (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) وقال (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض * ألا إلى الله تصير الأمور) وقال (وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) وقال(وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون)

فهذه الآيات كما ترى داعية إلى هدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومعلمة بأنه المبلغ عن الله المبين لأوامره فهو العالم بمراد ربه ومن اتبعه يكون على بصيرة من دينه قال تعالى (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) . وحسبنا أن الله تعالى وصانا باتباع صراطه وحذرنا من أن نتبع غيره فتتفرق بنا السبل فنضل عن سبيله كما ترى فى ختام الآيات. فسبيل الرسول وسنته

وصراطه هو هداه الذى لايمكن أحد أن يقف على حقيقة الدين إلا به وهو اليسير السهل، ويمكن الاتفاق عليه ولا يكون التفرق فيه. قال تعالى (إنّ الذينَ فرّقوا دينَهم وكانوا شِيَعاً لَستَ مِنهُمْ فى شئ إنّما أمْرُهم إلى اللهِ ثم يُنَبّئُهم بما كانُوا يَفعَلون)

﴿ من يدعو إلى هدى الرسول ﴾

فمع هذا إذا قلنا ياأيها العلماء علموا الناس هذا الهدى ومشوهم على هذا الصراط ليكونوا أمة واحدة وراء امام واحد يوحد بينهم ويجمع شملهم . وليظهر الدين بيسره وينتشر بسهولة العمل به ـ فإذا قلنا هذا يقولون إنكم تدعون إلى الاجتهاد وتخرجون على المذاهب المشهورة وتطعنون فى الأئمة الأربعة !! ونقول لهم: إننا ندعو إلى ما دعا الله إليه من اتباع الرسول (صلى الله عليه وسلم)

﴿ الأئمة الأربعة وغيرهم ﴾

وإننا نعتقد أن الأئمة الأربعة ومن قبلهم ومن بعدهم من الأئمة « رضى الله عنهم أجمعين» أصحاب الفضل علينا فى نقل الدين إلينا فنحن نحترمهم ونعرف قدرهم، ولكن ليس معنى هذا أننا نقدس رأيهم ونقدمه على أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهم لايرضون منا هذا التقديس وقد اتفقوا جميعاً على نهينا عن الأخذ بما يخالف هدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكانوا أول العاملين به والداعين إليه.

﴿ الكتب المنسوبة إلى الأئمة ﴾

ولم يعلم عنهم أنهم كتبوا كتباً بآرائهم فى الدين ليكلفوا الناس العمل بها، إلا أن كلا منهم ترك مسنده من الأحاديث التى كان يأخذ منها الأحكام

من قول الرسول وعمله. فكل ما وجد من كتب الفقه المنسوبة إليهم إنما كتبها خلفهم لنشر آرائهم وإظهار اجتهادهم. وكلما جاءت طبقة توسعت فى تلك الآراء وفرعت عنها فروعاً إلى أن اجتمعت هذه المئات من الكتب التى يتعب الانسان فى عد ما عليها من أسماء الماتنين والشارحين والمحشين والمقررين.

يصح أن تبقى هذه الكتب فى المكتبة حفظاً لتاريخ أصحابها ومعرفة مقدار عقولهم وأفهامهم، ولا مانع من أن علماء الدين يستنيرون بما فيها من الآراء الخاصة بالمعاملات كالأقضية وأمثالها مما يتغير بتغير الاحوال

﴿ الواجب على علماء الدين ﴾

إذ علماء الدين فى كل عصر مكلفون أن يبحثوا فى الشؤون التى ترقى الأمة فى الاقتصاد والسياسة ويضعوا لها مواد وقوانين تنطبق على أصول الدين. فالدين فيه قسم لا يتغير بتغير الزمان كالصلاة والتيمم والحج، ومثل هذه من أمور العبادات التى اختارها الله بشكلها المخصوص وهيأتها المحدودة ليربط بها بين المؤمنين ويعودهم بها على النظام والوفاء وأنواع الفضيلة ويعدهم بها لسائر أمور الاجتماع. فهذا القسم بينه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بكل جزئياته وهيئاته ولا يجوز الزيادة عليه ولا النقص منه، لانه لا حاجة للناس فى تغييره وتبديله مهما تقدموا وتطوروا. وهناك قسم آخر فى الدين يتعلق بالمعاملات والشؤون العامة كنظام الحرب والأمن والمعهدات الدولية والبيع والشراء والقضاء ونظام التعليم والشركات والقوانين الجنائية والتجارية وغيرها من سائر أمور السياسة والاقتصاد. فلما كانت هذه الأمور تختلف باختلاف الزمان وتتقدم بتقدم الأمة لم يحددها الدين بجزئيات مخصوصة ولم يكلف الأمة الجمود فيها على

طريقة واحدة بل جاء لها بقواعد عامة كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأهل الشورى من أصحابه يجتهدون فى تطبيق حوادث أزمانهم عليها، فهى أصول تسع ما يتجدد من حوادث كل عصر، حتى إذا اجتمع نواب الأمة وأولو أمرها للبحث فى الأنظمة الصالحة لها كان علماء الدين هم المرجع فى تطبيق كل نظام صالح على قواعد الدين وأصوله بحيث لا يجمدون أمام كل قانون حديث فيحرمون الأمة مما يقدمها، ولا يقبلونه من غير تمحيص وتطبيق فيوقعونها فى اضطراب التفرنج الذى يبعدها عن دينها ويسلخها من الأمور المقومة لها، بل يكونون وسطاً يربطون الأمة بدينها على الدوام فى حين أنهم يقودونها فى سياستها ومدنيتها إلى الأمام.

عندئذ يصح لهؤلاء العلماء أن يطلعوا على كتب الفقه الملومة ويعرفوا رأى أصحابها فيما حدث فى الأيام الخالية من المسائل التى ذكرناها، فاذا أعجبهم شىء منها وكان صالحاً لهذه الأيام فلا مانع من أن يأخذوه أو يحوروه فيجعلوه صالحاً، ولا يجعلوا تلك الكتب دينا يتعبدون بها ويقدسون كل ما سطر فيها. فهذا الواجب على علماء الدين فى كل عصر من الاجتهاد والعمل، ولكن علماءنا — عفا الله عنهم — أهملوا هذا الواجب وأكبروا هذا المركز على أنفسهم فتعودوا التقييد ووجدوا فى التقليد راحة لهم! ورضوا بأن يكونوا أسرى تلك الكتب ومقدسين لكل ما سطر فيها من عبادات ومعاملات صالحة للزمان أو غير صالحة وقالوا: ما ترك الأول للآخر شيئاً! ورضوا بأن يكونوا متأخرين فى أنفسهم ومؤخرين لدينهم وأمتهم. وأكبر من هذا أنهم يرهقون الناس بالتزام تلك الكتب ويوجبون عليهم تقليد أصحابها

فى كل رأى ويرمون من يخالفهم فى رأيهم بالزندقة والبعد عن الدين فالأئمة (رضوان الله عليهم) لم يعملوا هذا ولم يأمروا به

﴿ الأئمة يأمرون باتباع الله والرسول ﴾

بل أمرونا بألا نأخذ الدين إلا بالدليل من كتاب الله تعالى وهدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقال قائلهم: إذا وجدتم قولى يخالف قول رسول الله فاضربوا بقولى عرض الحائط. وقالوا: كل كلام يؤخذ منه ويرد عليه إلا كلام الرسول صلى الله عليه وسلم — لأنه يتكلم بالوحى المعصوم من الخطأ — ورأى بعضهم واحداً يكتب عنه كلاماً فنهاه وقال: أتكتب عنى رأيا فتجعله ديناً للناس وربما أرجع عنه غداً! فهذا من قولهم الذى نقل عنهم.

﴿ الحكم فى الدين لله والرسول ﴾

إن أمر الدين مرجعه إلى الله فهو الحاكم فيه وقد أرسل رسوله بالهدى فهو الإمام الأعظم الذى لا يقبل إيمان الناس به حتى يعرضوا أمر الدين عليه ويرجعوا فى التحكيم إليه. قال الله تعالى «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) وقال (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ) وقال (وما اختلفتم فيه من شىء فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ) وقال (إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إنما يُبَايِعُونَ الله) وقال (مَنْ يُطِعِ الرسول فقد أَطَاعَ اللهَ) وقال (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الذين أَنْعَمَ اللهُ عليهم مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِين

والشُّهَدَاءِ والصالحينَ وحَسُنَ أولئك رَفِيقا * ذلك الفضلُ من اللهِ وَكَفى بالله عليما) وقال (وَاعتَصِمُوا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تفرَّقوا) وقال (ومن يَعتَصِمْ بالله فقد هُدِىَ الى صِراطٍ مُستقيم) وقال (فان تنَازعتُم فى شىءٍ فرُدُّوه الى اللهِ والرسولِ إنْ كنتم تؤمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ ذلك خَيرٌ وأحسنُ تأويلا) وقال (يا أيُّها الذين آمنُوا لا تُقدِّموا بين يدىِ اللهِ ورسولِهِ واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ سَميعٌ عَليم) وقال (وما كان لِمُؤمنٍ ولا مُؤمنةٍ اذا قضَى اللهُ ورسولُهُ أمراً أن يكونَ لهم الخِيَرَةُ من أمرِهم ومَن يَعْصِ اللهَ ورسولَهُ فقد ضلَّ ضَلالاً مُبينا) وقال (إنما كانَ قولُ المؤمنينَ اذا دُعوا الى اللهِ ورسولِهِ ليَحكُمَ بينهم أن يقولوا سَمِعْنا وأطَعْنا وأولئك هُمُ المفلِحُون * وَمَن يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ ويَخشَ اللهَ ويتَّقهِ فأولئكَ هُمُ الفائزون) وقال (أفغيرَ اللهِ أبتغى حَكَماوهو الذى أنزلَ اليكم الكتابَ مُفَصَّلا) وقال (ومن أحسنُ مِنَ اللهِ حُكما لقومٍ يُوقِنُون) وقال (قل أطيعُوا اللهَ وأطيعُوا الرسولَ فان تولَّوْا فانما عليه ما حُمِّلَ وعليكم ما حُمِّلْتُمْ وان تُطيعوهُ تَهتدُوا وما على الرَّسولِ الا البلاغُ المبين) وقال (قل إن كنتم تُحبُّونَ اللهَ فاتَّبعُونِى يُحبِبْكُم اللهُ ويَغْفِرْ لكم ذُنوبَكم وَاللهُ غفُورٌ رَّحيم * قل أطيعُوا اللهَ والرَّسُولَ فإنْ تولَّوْا فانَّ اللهَ لا يحبُّ الكافرين)

فاذا قال قائل بعد ذلك: إن العوام لا يمكنهم أن يأخذوا الدين من القرآن وهدى الرسول نقول: إنا لم نكلفهم أن يجتهدوا ويستنبطوا

الأحكام وإنما العلماء مكلفون أن يبينوا لهم. على أن هدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بين فلا يحتاج الى اجتهاد واستنباط، وغاية الأمر أن العلماء ينقلونه الى العوام بالعمل ويقولون لهم: الرسول (صلى الله عليه وسلم) صلى هكذا (صلوا كما رأيتمُونِي أُصَلِّي) وتوضأ بصفة كذا ويتوضأ العلماء أمامهم أمام العوام، فكل شيء من الدين يجب على العوام عمله يعمله العلماء ويصلون كما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يعمله أمام أصحابه. ومثل هذا التعليم العملي يسهل على الناس ويرغبهم في الدين، وليس فى هذا إلا دعوة العلماء لتبليغ الدين كما بلغه نبيهم الذى هم ورثته فى التبليغ، فاذا وجدناه (صلى الله عليه وسلم) عمل شيئا نعمله، فاذا وجدناه اجتنب شيئا نجتنبه، فاذا وجدناه فعل أحيانا وترك أحيانا نفعل ونترك كذلك. كل هذا فيما يتعلق بأعمال الدين التى يعملها ليهدينا اليها. وبهذا نهتدى حقاً ونكون محسنين فى العمل بالدين لأننا نعمل على علم والله يقول (ولا تَقْفُ ما لَيْسَ لكَ بهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كلّ أولئك كان عنهُ مسئولا »

وفى الخاتمة أدعو الناس الى هذا الهدى هدى الامام الأعظم (صلى الله عليه وسلم) وأطالب المعاهد الدينية بتدريسه، وأطالب المدارس الأخرى كذلك. ثم أنصح للوعاظ فى المساجد وغيرها أن يجعلوه فى وعظهم ودرسهم وينشروه فى طبقات الناس حتى يتيسر العمل بالدين ويكتفى العوام شر الخلاف الناتج من كتب المذاهب والعاكفين عليها (فان تَوَلَّوْا فانما عليهِ ما حُمِّلَ وعليكم ما حُمِّلتم وإن تُطيعوهُ تَهْتَدُوا وما علي الرَّسولِ الا البَلاغُ المبين)

محمد ...

مقدمة من زاد المعاد

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسّر وأعن يا كريم . وصلى الله على سيدنا محمد الأمين وعلى آله الأكرمين . الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين . وأشهد أن لا إله إلا الله كلمة قامت بها الأرض والسموات وهي حق الله على جميع العباد ، فلا تزول قدما العبد من بين يدى الله حتى يسأل عن مسألتين : ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟ فجواب الأولى بتحقيق لا إله إلا الله معرفة وإقراراً وعملا . وجواب الثانية بتحقيق أن محمداً رسول الله معرفة وإقراراً وانقياداً وطاعة .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه وسفيره بينه وبين عباده ، المبعوث بالدين القويم والمنهج المستقيم . أرسله رحمة للعالمين ، وإماما للمتقين ، وحجة على الخلائق أجمعين . أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به الى أقوم الطرق وأوضح السبل وافترض على العباد طاعته وتعزيره وتوقيره ومحبته والقيام بحقوقه . وسد دون جنته الطرق فلم تفتح لأحد إلا من طريقه ، فشرح له صدره ووضع عنه وزره وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره . ففي المسند من حديث أبي منيب الجرشي عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بُعثتُ بالسيْف بين يدي الساعة حتى يُعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذِّلة والصغار على من خالف أمري . ومن تشبه بقوم فهو منهم »

وكما أن الذلة مضروبة على من خالف أمره فالعز لأهل طاعته

ومتابعته. قال الله سبحانه (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) وقال تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) وقال تعالى (فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الاعلون والله معكم) وقال تعالى (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) أى الله وحده كافيك وكافى أتباعك فلا يحتاجون معه الى أحد.

وقد أقسم صلى الله عليه وسلم بألا يؤمن أحد حتى يكون هو أحب اليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين، وأقسم الله سبحانه بألا يؤمن من لا يحكمه فى كل ما تنازع فيه هو وغيره ثم يرضى بحكمه ولا يجد فى نفسه حرجا مما حكم به ثم يسلم له تسليما وينقاد له انقياداً . وقال تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره صلى الله عليه وسلم، بل اذا أمر فأمره حتم، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه، وكل من سواه فانما يجب اتباعه على قوله إذا أمر بما أمر به ونهى عما نهى عنه فكان مبلغاً محضاً ومخبراً لا منشئا. فمن أنشأ أقوالا وأسس قواعد بحسب فهمه وتأويله لم يجب علي الأمة اتباعها ولا التحاكم إليها حتى تعرض على ما جاء به، فان طابقته وشهد لها بالصحة قبلت، وان خالفته وجب ردها واطراحها، وان لم يتبين فيها أحد الأمرين جعلت موقوفة.

وبعد فان الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بالخلق والاختيار من المخلوقات قال تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار) فالطيب من كل شيء هو مختاره تعالى، وأما خلقه فعام للنوعين. وبهذا يعلم عنوان سعادة العبد وشقاوته فان الطيب لا يناسبه إلا الطيب ولا يألف من الاعمال إلا

أطيبها مثل أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا ، ويؤثر مرضاته على هواه ويحسن إلى خلقه ـ ما استطاع ـ فيعاملهم بما يحب أن يعاملوه به . وله أيضا من الاخلاق أطيبها كالحلم والوقار والرحمة والصبر والوفاء وسهولة الجانب والصدق وسلامة الصدر من الغل والغش والحقد والحسد . والتواضع لأهل الايمان والعزة ، والغلظة على أعداء الله وصيانة الوجه عن بذله وتذلله لغير الله والعفة والشجاعة والسخاء والمروءة ، وكل خلق اتفقت على حسنه الشرائع والفطر والعقول . وكذلك لا يختار من المطاعم إلا أطيبها وهو الحلال الهنى المرى الذى يغذى البدن والروح أحسن تغذية مع سلامة العبد من تبعته ، وكذلك لا يختار من المناكح والرائحة إلا أطيبها ، ومن الاصحاب والعشراء إلا الطيبين ويكون كل مثواه طيبا . فهذا ممن قال الله تعالى فيهم (الذين تَتَوفَّاهم الملائكةُ طيِّبين يَقولُونَ سلامٌ عليكمُ ادخُلوا الجَنَّةَ بما كنتم تعملون) ومن الذين يقول لهم خزنة الجنة (سلامٌ عليكم طِبتم فادخلُوها خالدين) وهذه الفاء تقتضى السببية أى بسبب طيبكم ادخلوها . وقال تعالى (الخبيثاتُ للخَبيثينَ والخبيثون للخَبيثاتِ والطّيباتُ للطيبينَ والطّيبون للطيباتِ) فالكلمات والأعمال والنساء الطيبات لمناسبها من الطيبين ، والكلمات والأعمال والنساء الخبيثات لمناسبها من الخبيثين . فالله سبحانه وتعالى جعل الطيب بحذافيره فى الجنة وجعل الخبيث بحذافيره فى النار ، فجعل الدور ثلاثا : داراً أخلصت للطيبين وهى حرام على غير الطيبين وقد جمعت كل طيب وهى الجنة ، وداراً أخلصت للخبيث والخبائث ولا يدخلها إلا الخبيثون وهى النار ، وداراً

امتزج فيها الطيّب والخبيث وخالط بينهما وهى هذه الدار ، وبهذا وقع الابتلاء والمحنة بسبب هذا الامتزاج والاختلاط، وذلك بموجب الحكمة الالهية. فاذا كان يوم معاد الخليقة ميّز الله الخبيث من الطيب فجعل الطيب وأهله فى دار على حدة لايخالطهم غيرهم، وجعل الخبيث وأهله فى دار على حدة لا يخالطهم غيرهم. فعاد الأمر الى دارين فقط : الجنة وهى دار الطيبين، والنار وهى دار الخبيثين . وأنشأ الله تعالى من أعمال الفريقين ثوابهم وعقابهم :فجعل طيبات أقوال هؤلاء وأعمالهم وأخلاقهم هى عين نعيمهم ولذاتهم فأنشأ لهم منها أكمل أسباب النعيم والسرور ، وجعل خبيثات أقوال الآخرين وأعمالهم وأخلاقهم هى عين عذابهم وآلامهم ، فأنشأ لهم منها أعظم أسباب العقاب والآلام حكمة بالغة وعزة باهرة قاهرة ليرى عباده كمال ربوبيته وكمال حكمته وعلمه وعدله ورحمته ، وليعلم أعداؤه أنهم كانوا هم المفترين الكذابين ! لا رسله البررة الصادقين . قال الله تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَيَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وعداً عَلَيْهِ حقاً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَيَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُم كَانُوا كَاذِبِينَ)

والمقصود أن الله تعالى جعل السعادة والشقاوة عنوانا يعرفان به : فالخبيث يتفجر من قلبه الخبث على لسانه وجوارحه ، والطيب يتفجر من قلبه الطيب على لسانه وجوارحه . وقد يكون فى الشخص مادتان فأيهما غلب عليه كان من أهلها: فان أراد الله به خيراً طهره من المادة الخبيثة قبل الموافاة فيوافيه يوم القيامة مطهراً فلا يحتاج الى تطهيره بالنار فيطهره منها مايوفقه له من التوبة النصوح والحسنات الماحية والمصائب المكفرة حتى يلقى الله وما

عليه خطيئة، ويمسك عن الآخر مواد التطهير فيلقاه يوم القيامة بمادة خبيثة ومادة طيبة . وحكمته تعالى تأبى أن يجاوره أحد فى داره بخبائثه فيدخله النار طهرة له وتصفية وسبكا، فاذا خلصت سبيكة إيمانه من الخبث صلح حينئذ لجواره ومساكنة الطيبين من عباده . وإقامة هذا النوع من الناس فى النار على حسب سرعة زوال تلك الخبائث منهم وبطئها: فأسرعهم زوالا وتطهيراً أسرعهم خروجا وأبطؤهم أبطؤهم خروجا (جَزَاءً وِفَاقًا — وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

ولما كان المشرك خبيث العنصر خبيث الذات لم تطهر النار خبثه؛ بل لو خرج منها لعاد خبيثاً كما كان! كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه ؛ فلذلك حرم الله تعالى على المشرك الجنة .

ولما كان المؤمن الطيب المطيب مبرأ من الخبائث كانت النار حراماً عليه إذ ليس فيه مايقتضي تطهيره بها. فسبحان من بهرت حكمته العقول والألباب ، وشهدت فطرة عباده وعقولهم بأنه أحكم الحاكمين ، ورب العالمين لا إله إلا هو .

فصل

من ههنا نعلم اضطرار العبد الى معرفة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فانه لاسبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهة الرسل، فهم الميزان الراجح الذى على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم، نوزن الأقوال والأخلاق والأعمال ؛ فأى ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير . وإذا كان سعادة العبد فى الدارين معلقة بهدى النبي (صل الله عليه وسلم) فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته

مايخرج به عن الجاهلين به ويدخل به فى عداد أتباعه وشيعته وحزبه . والناس فى هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

﴿ نسبه صلى الله عليه وسلم ﴾

لنسبه من الشرف أعلى ذروة: فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيلته ، وأشرف الافخاذ فخذه. فهو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصىّ بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خُزَيمة بن مُدركة بن إلياس بن مُضَر بن نِزار بن مَعَدّ بن عدنان . الى هنا معلوم الصحة متفق عليه بين النسابين، ولاخلاف أن عدنان من ولد إسماعيل (عليه السلام) وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

﴿ مولده صلى الله عليه وسلم ومبعثه ﴾

ولد بمكة عام الفيل [1] وكان أمر الفيل مقدمة قدمها الله لنبيه وبيته ؛ وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب، وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة إذ ذاك: لأنهم كانوا عباد أوثان فنصرهم الله على أهل الكتاب

---

(١) كان سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام ، وكان العرب يؤرخون بالحوادث المهمة، والفيل جاء به نصارى من اليمن على رأسهم أبرهة الحبشى ليهدموا الكعبة وقد أنزل الله تعالى فى ذلك: (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ؛ فجعلهم كعصف مأكول) والطير الأبابيل هى التى تسبح فى الجو جماعات متتابعة وروى الطبرى عن عكرمة فى التفسير المأثور قال: كانت ترميهم بحجارة فاذا أصابت أحدهم خرج به الجدرى؛ وكان أول يوم رئى فيه الجدرى .

نصراً لاصنع للبشر فيه إرهاصاً وتقدمة للنبي (صلى الله عليه وسلم) الذى خرج من مكة ، وتعظيما للبيت الحرام . وتوفى أبوه وهو حمل وماتت أمه بين مكة والمدينة (بالابواء) بعد منصرفها من المدينة من زيارة أخواله ولم يستكمل إذ ذاك سبع سنين ، فكفله جده عبد المطلب وتوفى والرسول نحو ثمان سنين ، وقيل ست ، وقيل عشر . ثم كفله عمه أبو طالب

فلما بلغ اثنتى عشرة سنة خرج به عمه إلى الشام ـ وقيل كانت سنه تسع سنين ـ وفى هذه الخرجة رآه بحيرا الراهب وأمر عمه ألا يقدم به إلى الشام خوفا عليه من اليهود فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى المدينة . ولما بلغ خمسا وعشرين سنة خرج إلى الشام فى تجارة فوصل الى « بصرى » ثم رجع فتزوج خديجة بنت خويلد ـ وقيل تزوجها وله ثلاثون سنة ، وقيل إحدى وعشرون ـ وهى أول امرأة تزوجها وأول امرأة ماتت من نسائه ، ولم ينكح عليها غيرها وأمره جبريل أن يقرأ عليها السلام من ربها .

ثم حبب إليه الخلوة والتعبد لربه . وكان يخلو بغار حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد وبغضت إليه الأوثان ودين قومه فلم يكن شىء أبغض إليه من ذلك .

فلما كمل له أربعون سنة أشرقت عليه أنوار النبوة وأكرمه الله تعالى برسالته وبعثه إلى خلقه ، ولا خلاف أن مبعثه (صلى الله عليه وسلم) كان يوم الاثنين ، واختلف فى شهر المبعث فقيل : لثمان مضين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل ، هذا قول الأكثرين ، وقيل بل كان ذلك فى رمضان ، واحتج هؤلاء بقوله تعالى : (شَهرُ رمضانَ الذى أُنزِلَ فيهِ القُرآن) وقيل كان ابتداء المبعث فى رجب .

﴿ مراتب الوحي ﴾

وكمل له الله من مراتب الوحي مراتب عديدة (إحداها) الرؤيا الصادقة وكانت مبدأ وحيه (صلى الله عليه وسلم) وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح (الثانية) ما يلقيه الملك في ورعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال صلى الله عليه وسلم: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفسٌ حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فان ما عند الله لا ينال إلا بطاعته» (الثالثة) أنه كان يتمثل له الملك رجلا فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا (الرابعة) أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس وكان أشده عليه فيلتبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به الى الأرض اذا كان راكبها. ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها (الخامسة) أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم (السادسة) ما أوحاه الله إليه وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها (السابعة) كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة ثابتة لموسى بنص القرآن، وثبوتها لنبينا (صلى الله عليه وسلم) في حديث الاسراء.

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي تكليم الله كفاحا من غير حجاب؛ وهذا على مذهب من يقول إنه (صلى الله عليه وسلم) رأى ربه تبارك وتعالى وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف، وإن كان جمهور الصحابة بل كلهم

مع عائشة كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمى إجماعا للصحابة [1]

﴿ ختانه صلى الله عليه وسلم ﴾

اختلف فيه على ثلاثة أقوال: (أحدها) أنه ولد مختونا مسروراً. وروى فى ذلك حديث لا يصح ذكره أبو الفرج بن الجوزى فى الموضوعات وليس فيه حديث ثابت. وليس هذا من خواصه فان كثيراً من الناس يولد مختونا. (القول الثانى) أنه ختن يوم شق قلبه الملائكة عند ظئره حليمة. (القول الثالث) أن جده عبد المطلب ختنه يوم سابعه وصنع له مأدبة وسماه محمداً. قال أبو عمرو بن عبد البر: وفى هذا الباب حديث مسند غريب؛ وقد وقعت هذه المسألة بين رجلين فاضلين صنف أحدهما مصنفا فى أنه ولد مختوناً وأجاب فيه من الأحاديث التى لا خطام لها ولا زمام وهو كمال الدين بن طلحة فنقضه عليه كمال الدين بن العديم وبين فيه أنه ختن على عادة العرب. وكان عموم هذه السنة للعرب قاطبة مغنيا عن نقل معين فيها والله أعلم

---

(١) روى البخارى ومسلم والترمذى والنسائى من حديث مسروق قال: قلت لعائشة يا أم المؤمنين هل رأى محمد ربه؟ فقالت سبحان الله لقد قف شعرى مما قلت أين أنت من ثلاث من حدثك بهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب. ثم قرأت «لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير. وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء إنه على حكيم». ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ثم قرأت «وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير». ومن حدثك أنه كتم شيئاً من الوحى فقد كذب؛ ثم قرأت «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين»

﴿ أمهاته اللاتى أرضعنه صلى الله عليه وسلم ﴾

فنهن ثويبة مولاة أبي لهب أرضعته أياما وأرضعت معه عبد الله بن عبد الاشد المخزومى بلبن ابنها مسروح وأرضعت معهما عمه حمزة بن عبد المطلب، واختلف فى إسلامها فالله أعلم. ثم أرضعته حليمة السعدية بلبن ابنها عبد الله أخى أنيسة وجذامة وهى الشيما أولاد الحرث بن عبد العزى بن رفاعة السعدى، واختلف فى اسلام أبويه من الرضاعة فالله أعلم. وأرضعت معه ابن عمه أباسفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان شديد العداوة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم أسلم عام الفتح وحسن اسلامه. وكان عمه حمزة مسترضعا فى بنى سعد بن بكر فأرضعت أمه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوما وهو عند أمه حليمة، فكان حمزة رضيع رسول الله من جهة ثويبة ومن جهة السعدية.

﴿ حواضنه صلى الله عليه وسلم ﴾

فنهن أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، ثم ثويبة وحليمة والشيما ابنتها، وهى أخته من الرضاعة كانت تحضنه مع أمها، وهى التى قدمت عليه مع وفد هوازن فبسط لها رداءه وأجلسها عليه رعاية لحقها. ومنهن الفاضلة الجليلة أم أيمن بركة الحبشية وكان ورثها من أبيه وكانت دايته وزوجها من حبه زيداً بن حارثة فولدت له أسامة، وهى التى دخل عليها أبو بكر وعمر بعد موت النبى (صلى الله عليه وسلم) وهى تبكى فقالا: ياأم أيمن ما يبكيك فما عند الله خير لرسوله؟ قالت: إنى لأعلم أن ما عند الله خير لرسوله وإنما أبكى لانقطاع خبر السماء! فهيجتهما على البكاء فبكيا

﴿ أول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم ﴾

أول ما بدىء به من أمر النبوة الرؤيا : فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. قيل وكان ذلك ستة أشهر ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً والله أعلم

ثم أكرمه الله تعالى بالنبوة فجاءه الملك وهو بغار حراء — وكان يحب الخلوة فيه — فأول ما أنزل عليه : (إقرأ باسْمِ رَبِّكَ الذى خَلَقَ خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ الخ .) هذا قول عائشة والجمهور ، وقال جابر ، أول ما أنزل عليه (يا أيُّها المدَّثِّرُ) والصحيح قول عائشة [١]

﴿ ترتيب الدعوة ﴾

المرتبة الأولى النبوة (الثانية) إنذار عشيرته الأقربين (الثالثة) إنذار قومه (الرابعة) إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة (الخامسة) إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والانس الى آخر الدهر . وأقام (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك ثلاث سنين يدعو الى الله سبحانه مستخفيا ، ثم نزل عليه (فَاصْدَعْ بما تُؤمَرُ وَأعرِضْ عن المُشْرِكين) فأعلن الدعوة وجاهر قومه بالعداوة واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين حتى أذن لهم بالهجرتين

(١) وقال بعضهم: إن أول ما أنزل عليه الفاتحة . ويمكن أن نجمع بين هذه الاقوال بأن الاولية فى كل منها نسبية ، فالفاتحة أول ما أنزل وذلك إيناساً له صلى الله عليه وسلم وتوطئة لسماعه الوحى بعد . ويؤيد هذا ماروى من قوله لورقة بن نوفل حين سأله : انى سمعت ممن لا أراه كلاما ، وظهر بعد أنه الفاتحة . وأما اقرأ باسم ربك ففى ابتداء الوحى وقد ضمه جبريل لتقوى فيه الروحانية و يزيد استعداداً لما يلقى عليه . ثم تكون أولية المدثر بالنسبة للفترة التى أعقبت الوحى الاول ، أو بالنسبة للامر بالتبليغ والله أعلم

﴿ ذكر الهجرتين ﴾

لما كثر المسلمون وخاف منهم الكفار اشتد أذاهم له (صلى الله عليه وسلم) وفتنهم إياهم فأذن لهم رسول الله فى الهجرة الى الحبشة وقال: إن بها ملكا لا يظلم الناس عنده، فهاجر من المسلمين اثنا عشر رجلا وأربع نسوة منهم عثمان بن عفان وهو أول من خرج ومعه زوجه رقية بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأقاموا فى الحبشة فى أحسن جوار، فبلغهم أن قريشاً أسلمت وكان هذا الخبر كذباً فرجعوا الى مكة فلما بلغهم أن الأمر أشد رجع منهم من رجع ودخل جماعة فلقوا من قريش أذى شديداً. وكان ممن دخل عبد الله بن مسعود ثم أذن لهم فى الهجرة ثانياً الى الحبشة فهاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلا، ومن النساء ثمان عشرة امرأة فأقاموا عند النجاشى على أحسن حال، فبلغ ذلك قريشاً فأرسلوا عمرو بن العاص وعبدالله بن الزبير المخزومى فى جماعة ليكيدوهم عند النجاشى فرد الله كيدهم فى نحورهم فاشتد أذاهم لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فحصروه وأهل بيته فى الشِّعب شِعب أبى طالب ثلاث سنين، وقيل سنتين. وخرج من الحصر وله تسع وأربعون سنة، وقيل ثمان وأربعون. وبعد ذلك بأشهر مات عمه أبو طالب ثم ماتت خديجة فاشتد أذى الكفار له فخرج الى الطائف هو وزيد بن حارثة يدعو الى الله وأقام به أياماً فلم يجيبوه وآذوه وأخرجوه وقاموا له سماطين [1] فرجموه بالحجارة حتى أدموا

---

(١) أى صفين ليتقابل الرمى من الجانبين ويكون أقوى فى الايذاء وأظهر فى السخرية، فليأنس بهذا المجاهدون فى سبيل الدين والوطن ولا يصعب عليهم مايصيبهم من السجن والنفى والجلد فان أعداء الله وأعداء الاستقلال يصادرون الداعى اليه فى كل زمان ويتفننون فى إيذائه على قدر كفرهم بالله وطمعهم فى امتلاك الشعوب والبلاد

كعبيه فانصرف عنهم راجعاً الى مكة . وفى طريقه لقي عداساً النصرانى فآمن به؛ وفى طريقه بنخلة صرف إليه نفر من الجن سبعة من أهل نصيبين فاستمعوا القرآن . وفى طريقه تلك أرسل الله اليه ملك الجبال يأمره بطاعته وأن يطبق على قومه أخشبي مكة وهما جبلاها إن أراد. فقال: لا بل أستأنى بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً. وفى طريقه دعا : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى ». ثم دخل مكة فى جوار مطعم بن عدى، ثم أسرى بروحه وجسده إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى فوق السموات بجسده وروحه الى الله عز وجل فخاطبه وفرض عليه الصلوات، وكان ذلك مرة واحدة. هذا أصح الأقوال، وقيل كان ذلك مناماً(١) فأقام (صلى الله عليه وسلم) بمكة ما أقام يدعو القبائل الى الله تعالى و يعرض نفسه عليهم فى كل موسم أن يؤوه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة فلم تستجب له قبيلة !!

ولما أراد الله إظهار دينه وإنجاز وعده ونصر نبيه وإعلاء كلمته والانتقام من أعدائه ساقه إلى الأنصار لما أراد بهم من الكرامة فانتهى إلى نفر منهم ستة، وقيل ثمانية، وهم يحلقون رؤوسهم عند عقبة منى فى الموسم فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن فستجابوا لله ورسوله ورجعوا الى المدينة فدعوا قومهم إلى الاسلام حتى فشا فيهم. ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأول مسجد قرىء فيه القرآن بالمدينة مسجد بنى زريق.

---

(١) فى القرآن قال الله تعالى: (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير)

ثم قدم مكة فى العام القابل اثنا عشر رجلا من الأنصار: منهم خمسة من الستة الأولين فبايعوا الرسول على بيعة النساء عند العقبة ثم انصرفوا الى المدينة ، فقدم عليه فى العام القابل منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وهم أهل العقبة الأخيرة فبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأنفسهم فترحل هو وأصحابه إليهم واختار منهم اثنى عشر نقيبا، وأذن لأصحابه بالهجرة الى المدينة فخرجوا أرسالا متسللين فقدموا على الأنصار فى دورهم فآووهم وأكرموهم وفشا الاسلام بالمدينة .

ثم أذن الله لرسوله فى الهجرة فخرج من مكة يوم الاثنين فى شهر ربيع الأول، وقيل فى صفر، وله إذ ذاك ثلاث وخمسون سنة ومعه أبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر، ودليلهم عبد الله بن الأريقط الليثى فدخل غار ثور هو وأبو بكر[1] فأقاما فيه ثلاثا، ثم أخذوا على طريق الساحل فلما انتهوا الى المدينة ـ وذلك يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ـ نزل بقباء فى أعلى المدينة على بنى عمرو بن عوف، وقيل نزل على كلثوم بن الهدم، وقيل على سعد بن خيثمة ـ والأول أشهر ـ فأقام عندهم أربعة عشر يوما وأسس مسجد قباء .

ثم خرج يوم الجمعة فأدركته الجمعة فى بنى سالم فجمع بهم بمن كان معه من المسلمين ـ وهم مئة ـ ثم ركب ناقته وسار ، وجعل الناس يكلمونه فى النزول عليهم ويأخذون بخطام الناقة فيقول: «خلوا سبيلها فانها مأمورة»

---

(١) قال الله تعالى : (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا)

فبركت عند مسجده اليوم — وكان مربداً لسهل وسهيل : غلامين من بنى النجار — فنزل عنها ثم سار حتى نزل على أبى أيوب الأنصارى، ثم بنى مسجده موضع المربد بيده هو وأصحابه بالجريد واللبن، ثم بنى مسكنه ومساكن أزواجه الى جنبه وأقربها إليه مسكن عائشة، ثم تحول بعد سبعة أشهر من دار أبي أيوب إليها.

وبلغ أصحابه بالحبشة هجرته الى المدينة فرجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا فحبس منهم بمكة سبعة وانتهى بقيتهم إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة.

﴿أولاده صلى الله عليه وسلم﴾

أولهم القاسم، ثم زينب، ثم رُقيّة، وأم كُلثوم، وفاطمة، ثم عبد الله. وهؤلاء كلهم من خديجة، ولم يولد له من زوجة غيرها. ثم ولد له ابراهيم بالمدينة من سريته مارية سنة ثمان من الهجرة، ومات قبل الفطام. وكل أولاده توفى قبله إلا فاطمة فانها تأخرت بعده بستة أشهر.

﴿أعمامه وعماته صلى الله عليه وسلم﴾

فنهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب والعباس وأبو طالب وأبو لهب والزبير وعبد الكعبة والمقوم وضرار وقُثَم والمغيرة والغيداق. وزاد بعضهم العوام ولم يسلم منهم غير حمزة والعباس.

وأما عماته فصفية أم الزبير بن العوام وعاتكة وبرّة وأروى وأميمة

وأم حكيم البيضاء.أسلم منهن صفية ، واختلف فى إسلام عاتكة وصحح بعضهم إسلام أروى .

﴿ أزواجه صلى الله عليه وسلم ﴾

أولاهن خديجة بنت خويلد القرشية تزوجها قبل النبوة ولها أربعون سنة ولم يتزوج عليها حتى ماتت ، وهى التى وازرته على النبوة وجاهدت معه وواسته بنفسها ومالها وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين.

ثم تزوج بعد موتها بأيام (سَوْدة) بنت زمعة القرشية وهى التى وهبت يومها لعائشة .

ثم تزوج عائشة الصديقة بنت الصديق وبنى بها فى السنة الأولى من الهجرة ولم يتزوج بكراً غيرها ؛ وكانت أفقه نسائه وأحبهن إليه وكانت مرجع كثير من الصحابة فى الفتوى وهى المبرأة بالوحي

ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب، وذكر أبو داود أنه طلقها ثم راجعها، وتزوج زينب بنت خزيمة بن الحارث القيسية من بنى هلال بن عامر ، وتوفيت بعد ضمه لها بشهرين.

وتزوج أم سلمة : هند بنت أبى أمية القرشية المخزومية ، وهى آخر نسائه موتاً .

ثم تزوج زينب بنت جحش من بنى أسد وهى ابنة عمته أميمة وفيها

نزل قوله تعالى : (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا)[1] وبذلك كانت تفتخر على نساء النبي (صلى الله عليه وسلم) وتقول : زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات! وتوفيت في أول خلافة عمر بن الخطاب .

ثم تزوج جُوَيرة بنت الحارث ، وكانت من سبايا بني المصطلق جاءته تستعين به على كتابتها فأدى عنها وتزوجها

ثم تزوج أم حَبيبة بنت أبي سفيان صخر بن حرب القرشية الأموية وكانت تحت عبد الله بن جحش هاجر بها ثم تنصر وثبتت هي على الاسلام

---

(١) الآية فى سورة الاحزاب وتمامها : «لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا». ويبين الله بهذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج زينب لحكمة هى إبطال ما كان يعتقده العرب من جعل زوج الدعى كزوج الابن الحقيقى. والمتأمل فى غير زينب من زوجات يرى الحكم التى دعته للتزوج بهن: فمنها إيجاد الروابط وتقوية العصبيات. ولا يخفى ما فى ذلك من الفوائد فى حين النهضة، ومنها تعليم نساء المؤمنين اذ امرأة أو اثنتان لا تكفيان.

وقد كان بيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) مدرسة للتهذيب والتعليم ولا بد أن يكون فى نسائه قدوة حسنة لنساء المؤمنين فيما يحتجن اليه من أمور الدين.

وانظر السياسة فى تزوجه بجويرة كان قومها أسرى عند الصحابة فعتقوهم إكراما لهذا التزوج فأسلموا جميعاً وكانوا عونا للمسلمين. ولا تغب عنك الحكمة فى أم حبيبة التى وجدها ثبتت على الاسلام فأراد أن يكرمها ويحفظها من فتنة زوجها المتنصر بالحبشة وفتنة أهلها الكفار بمكة ، وترى فى صفية أنه عظم عليه أن تذل بالأسر بعد أن قتل أبوها مع بنى قريظة وزوجها يوم خيبر. لما فيه من الاحكام. وفى هذا كله رد على أعداء الدين الذين يقولون: إن الرسول أكثر من التزوج لشهوة لا لحكمة! ولو كانوا يفقهون لعلموا أنه موجه الى أعلى مما يقولون. ولما انتهت مهمته التى كان يتزوج من أجلها قال الله له: (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيبا)

وبعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى النجاشى يخطبها عليه فزوجه النجاشى منها وأصدقها عنه سنة سبع من الهجرة

وتزوج (صلى الله عايه وسلم) صفية بنت حُيي بن أخطب سيد بنى النضير من ولد هارون بن عمران وقد صارت له من الصفىّ أمَة فأعتقها وجعل عتقها صداقها، فصار ذلك سنة للأمة يعتق الرجل أمته ويجعل عتقها صداقها.

ثم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية وهى آخر من تزوج، وكان زواجه بها فى مكة فى عمرة القضاء بعد أن حل منها.

﴿ مواليه صلى الله عليه وسلم ﴾

فمنهم زيد بن حارثه حِب رسول الله أعتقه وزوجه مولاته أم أيمن فولدت أسامة، ومنهم أسلم وأبو رافع وثوبان وأبو كبشة سليم وشقران – واسمه صالح – ورباح « نوبى » ويسار « نوبى أيضاً » – وهو قتيل العرنيّين – ومدعم وكركرة « نوبى » ومنهم أنجشة الحادى وسفينة بن فروخ – واسمه مهران، وسماه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سفينة لانهم كانوا يحملونه فى السفر متاعهم – ومنهم أنيسة – ويكنى أبا مشروح – وأفلح وعبيدة وطهمان، ومنهم حنين وسندر وفضالة « يمانى ». ومن النساء سلمى أم رافع وميمونة بنت سعد وخضيرة ورضوى وريشحة وريحانة.

﴿ خدامه صلى الله عليه وسلم ﴾

فمنهم أنس بن مالك، وكان على حوائجه، وعبدالله بن مسعود، صاحب نعله، وسواكه وعقبة بن عامر الجهنى، صاحب بغلته يقود به فى الأسفار،

وأسلع بن شريك، وكان صاحب راحلته، وأبو ذر الغفاري. وأيمن بن عبيد — وكان على مطهرته وحاجته — وبلال بن رباح المؤذن وسعد — موليا أبي بكر الصديق.

﴿ كتّابه صلى الله عليه وسلم ﴾

أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وعامر بن فهيرة، وعمرو بن العاص، وأبيّ بن كعب، وعبد الله بن الأرقم، وثابت بن قيس بن شماس، وحنظلة بن الربيع الأسدي، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن رواحة، وخالد ابن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص — وقيل انه أول من كتب له صلى الله عليه وسلم — ومعاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت. وكان ألزمهم لهذا الشأن وأخصهم به

﴿ كتبه الى أهل الاسلام فى الشرائع صلى الله عليه وسلم ﴾

فمنها كتابه فى الصدقات الذى كان عند أبي بكر، وكتبه أبو بكر لأنس بن مالك لما وجهه إلى البحرين. ومنها كتابه إلى أهل اليمن وهو الكتاب الذى رواه أبو بكر بن عمرو بن حزم، ورواه الحاكم فى صحيحه والنسائى وغيرهما وهو كتاب عظيم فيه أنواع من الفقه. ومنها كتابه إلى بنى زهير، وكتاب كان عند عمر بن الخطاب فى نصب الزكاة وغيرها.

﴿ كتبه ورسله إلى الملوك صلى الله عليه وسلم ﴾

لما رجع من الحديبية كتب الى ملوك الأرض وأرسل إليهم رسله

فكتب الى ملك الروم . فقيل له : إنهم لا يقرأون كتاباً إلا اذا كان مختوما، فاتخذ خاتما من فضة ونقش عليه ثلاثة أسطر : محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر. وختم به الكتب الى الملوك . وبعث ستة نفر في يوم واحد فى المحرم سنة سبع . فأولهم عمرو بن أميـة الضمرى بعثه إلى النجاشى — واسمه أصحمة وتفسيره بالعربية عطية ـ فعظم كتاب النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم أسلم وشهد شهادة الحق وكان من أعلم الناس بالانجيل . وصلى عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم مات بالمدينة وهو بالحبشة ، هكذا قال جماعة منهم الواقدى وغيره ؛ وليس كما قال هؤلاء فان أصحمة النجاشى الذى صلى عليه رسول الله ليس هو الذى كتب إليه وهو الثانى ولا يعرف إسلامه بخلاف الأول فانه مات مسلما ، وقد روى مسلم فى صحيحه من حديث قتادة عن أنس قال : كتب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشى ، وليس بالنجاشى الذى صلى عليه رسول الله ، وقال محمد بن حزم : إن هذا النجاشى الذى بعث إليه رسول الله عمرو بن أمية الضمرى لم يسلم ، والأول هو اختيار ابن سعد وغيره . والظاهر قول ابن حزم .

وبعث دحية بن خليفة الكلبي الى قيصر ملك الروم ـ واسمه هِرقل وهَمّ بالاسلام وكاد ولم يفعل . وقد روى أبو حاتم وابن حبان فى صحيحه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « من ينطلق بصحيفتى الى قيصر وله الجنة ؟ » فقال رجل من القوم : وإن لم يقبل ؟ قال « وان لم يقبل » فوافق قيصر وهو يأتى بيت المقدس فرمى بالكتاب على البساط وتنحى فنادى قيصر : مَن صاحب الكتاب فهو آمن!

قال أنا . قال : فاذا قدمتُ فائتني، فلما قدم أتاه فأمر قيصر بأبواب قصره فغلقت ، ثم أمر مناديا ينادي: ألا إن قيصر قد اتبع محمداً وترك النصرانية فأقبل جنده وقد تسلحوا فقال لرسول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): قد ترى أني خائف على مملكتي! ثم أمر مناديه فنادى: ألا إن قيصر قد رضي عنكم وكتب الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إني مسلم وبعث إليه بدنانير ؛ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) «كذب عدو الله ليس بمسلم وهو على النصرانية » وقسم الدنانير .

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى — واسمه ابرويز بن هرمز بن أنوشروان — فمزق كتاب النبي ! فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : « اللهم مزق ملكه » فمزق ملكه وملك قومه .

وبعث حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس ـ واسمه جريج بن مينا وهو ملك الاسكندرية عظيم القبط ـ فقال خيراً وقارب الأمر ولم يسلم وأهدى للنبي (صلى الله عليه وسلم) مارية وأختيها سيرين وقيسرى . فتسرى مارية ووهب سيرين لحسان بن ثابت ، وأهدى له جارية أخرى وألف مثقال ذهباً وعشرين ثوباً من قباطي مصر وبغلة شهباء وهي دلدل وحماراً أشهب ـ وهو عفير ـ وغلاماً خصيباً يقال له مابور ـ وقيل هو ابن عم مارية ـ وفرساً ـ وهو اللزاز ـ وقدحا من زجاج وعسلا فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : « ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه »

وبعث شجاع بن وهب الأسدي الى الحرث بن أبي شمر الغساني ملك البلقاء، وبعث سليط بن عمرو إلى هوذة بن علي الحنفي باليمامة فأكرمه؛ وقيل بعثه ابن هوذة الى ثمامة بن أثال الحنفي فلم يسلم هوذة وأسلم ثمامة بعد ذلك.

فهؤلاء الستة قيل هم الذين بعثهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في يوم واحد ؛ وبعث عمرو بن العاص في ذي القعدة سنة ثمان الى جيفر وعبد ابني الجاندى الازديين بعمان فأسلما وصدقا وخليا بين عمرو وبين الصدقة والحكم فيما بينهم؛ فلم يزل فيما بينهم حتى بلغته وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وبعث العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين قبل منصرفه من الجعرانة ، وقيل قبل الفتح فأسلم وصدق .

وبعث المهاجر بن أبي أمية المخزومى الى الحرث بن عبد كلال الحميرى باليمن ، فقال : سأنظر في أمرى .

وبعث أبا موسى الاشعرى ومعاذ بن جبل الى اليمن عند انصرافه من تبوك ، وقيل سنة عشر من ربيع الأول داعيين إلى الاسلام فأسلم عامة أهلها طوعا من غير قتال .

ثم بعث بعد ذلك عليّ بن أبي طالب إليهم ووافاهم بمكة في حجة الوداع ، وبعث جرير بن عبد الله البجلى إلى ذى الكلاع الحميرى وذى عمرو يدعوهما إلى الاسلام فأسلما وتوفى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجرير عندهم ؛ وبعث عمرو بن أمية الضمرى إلى مسيلمة الكذاب بكتاب وكتب إليه بكتاب آخر مع السائب بن العوام أخى الزبير فلم يسلم ؛ وبعث إلى فروة بن عمرو الجذامى يدعوه إلى الاسلام ، وقيل لم يبعث اليه ؛ وكان فروة عاملا لقيصر بعمان فأسلم وكتب الى النبي (صلى الله عليه وسلم) باسلامه .

وبعث اليه هدية مع مسعود بن سعد ـ وهى بغلة شهباء يقال لها فضة ـ وفرس يقال له الضرب ، وحمار يقال له يعفور . وبعث أثوابا وقباء سندس مخوص بالذهب فقبل هديته ووهب لمسعود بن سعد اثنتى عشرة أوقية

ونشا . وبعث عياش بن أبي ربيعة المخزومي بكتاب الى الحرث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير.

﴿ مؤذنوه صلى الله عليه وسلم ﴾

كانوا أربعة : إثنان بالمدينة، بلال بن رباح ، وهو أول من أذن لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وعمرو بن أم مكتوم القرشي العامري الأعمى وبقباء سعد القرط ، مولى عمار بن ياسر ، وبمكة أبو محذورة واسمه أوس ابن مغيرة الجمحي .

وكان أبو محذورة يرجّع الأذان ويثني الاقامة وبلال لا يرجع ويفرد الاقامة.

﴿ أمراؤه صلى الله عليه وسلم ﴾

منهم باذان بن ساسان أمّره رسول الله على أهل اليمن كلها بعد كسرى فهو أول أمير في الاسلام على اليمن وأول من أسلم من ملوك العجم ، ثم أمّر بعد موت باذان ابنه شهر بن باذان على صنعاء وأعمالها ، ثم فتل شهر فأمر خالد بن سعيد بن العاص .

وولى المهاجر بن أبي أميه المخزومي كندة والصدف فتوفى رسول الله ولم يسر إليها فبعثه أبو بكر لقتال ناس من المرتدين .

وولى زياد بن أمية الانصاري حضرموت .

وولى أبا موسى الأشعري زبيد وعدن وزمع والساحل ، وولى معاذ بن جبل الجند ، وولى أبا سفيان صخر بن حرب نجران ، وولى ابنه يزيد تيما ، وولى عتاب بن أسيد مكة وإقامة الموسم بالحج بالمسلمين سنة ثمان ، وله دون

العشرين سنة ، وولى على بن أبى طالب الاخماس باليمن والقضاء بها .

وولى عمرو بن العاص عمان وأعمالها ، وولى الصدقات جماعة كثيرة لأنه كان لكل قبيلة وال يقبض صدقاتها ، وولى أبا بكر إقامة الحج سنة تسع وبعث فى أثره عليا يقرأ على الناس سورة براءة .

﴿ حرسه صلى الله عليه وسلم ﴾

فمنهم سعد بن معاذ حرسه يوم بدر حين نام فى العريش ، ومحمد بن مسلمة حرسه يوم أحد ، والزبير بن العوام حرسه يوم الخندق .

ومنهم عباد بن بشر وهو الذى كان على حرسه .

وحرسه جماعة آخرون غير هؤلاء ، فلما نزل قوله تعالى : (والله يعصمك من الناس) خرج على الناس فأخبرهم وصرف الحرس .

﴿ شعراؤه صلى الله عليه وسلم وخطباؤه ﴾

كان من شعرائه الذين يذبون عن الاسلام كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت ـ وكان أشدهم على الكفار حسان ـ وكعب يعيرهم بالكفر والشرك ، وكان خطيبه ثابت بن قيس بن شماس .

﴿ حداته فى السفر صلى الله عليه وسلم ﴾

منهم عبد الله بن رواحة، وأنجشة، وعامر بن الاكوع، وعمه سلمة بن الاكوع . وفى صحيح مسلم كان لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) حاد حسن الصوت فقال له: «رويداً أنجشة لاتكسر القوارير» يعنى ضعفة النساء

﴿ سلاحه وأثاثه صلى الله عليه وسلم ﴾

كان له تسعة أسياف منها ذو الفقار – وكان لا يكاد يفارقه ، وكانت قائمته وقبيعته وحلقته وذؤابته وبكراته ونعله من فضة – وسبعة أدرع ، وست قسى ، وترس يقال له الفتق ، وترس يقال له الزلوق ، وخمسة أرماح ، وحربة يقال لها النبعة ، وأخرى كبيرة تدعى البيضاء ، وأخرى صغيرة شبه العكاز يمشى بها بين يديه فى الأعياد تركز أمامه فيتخذها سترة يصلى إليها ، وكان يمشى بها أحيانا [1] .

وكان له مغفر من حديد يقال له الموشح ومغفر آخر يقال له المسبوغ ،

وكان له ثلاث جبات يلبسها فى الحرب ، قيل فيها جبة سندس أخضر ،

وكان له راية سوداء . وفى سنن أبى داود عن رجل من الصحابة قال : رأيت راية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صفراء .

وكان له ألوية بيضاء ، وربما جعل فيها الأسود . وكان له فسطاط يسمى الكن ، ومحجن يمشى به ويركب به ويعلقه بين يديه على بعيره .

وكان له قدح مضبب بسلسلة فضة ، وقدح من قوارير . ومدهن ، وربعة فيها المرآة والمشط والمقراضان والسواك . وسرير قوائمه من ساج ، وفراش من أدم حشوه ليف .

وكانت له قصعة تسمى الغراء لها أربع حلق يحملها أربعة بينهم . وكان له بساط ، وكان له قدح من عيدان [2] يوضع تحت سريره يبول فيه بالليل .

---

(١) هذا مظهر من مظاهر القوة فى الامة يظهر به رئيسها وقائدها ويجعلها تألف عدد الحرب ويربى أبناءها على الشجاعة استعدادا للدفاع والذود عن حياضها

(٢) نخيل

وكان له مائة شاة وكان لا يريد أن تزيد — كلما ولّد له الراعى بَهمة ذبح مكانها شاة ـ وغنم يوم بدر جملا مهريا لأبى جهل فى أنفه بُرَة من فضة فأهداه يوم الحديبية ليغيظ به المشركين .

﴿ ملابسه صلى الله عليه وسلم ﴾

كانت له عمامة يلبس تحتها القلنسوة ـ وكان يلبس القلنسوة بغير عمامة ويلبس العمامة بغير قلنسوة ـ وكان اذا اعتمّ أرخى عمامته بين كتفيه، كما رواه مسلم فى صحيحه عن عمر بن حريث قال : رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على المنبر وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه . وفى مسلم أيضا عن جابر بن عبدالله أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دخل مكة وعليه عمامة سوداء — ولم يذكر فى حديث جابر ذؤابة فدل على أن الذؤابة لم يكن يرخيها دائما بين كتفيه[1] ـ وقد يقال إنه دخل مكة وعليه أهبة القتال والمغفر على رأسه فلبس فى كل موطن ما يناسبه .

ولبس القميص وكان أحب الثياب إليه وكان كمه إلى الرسغ ولبس الجبة والفروج ـ وهو شبه القباء والفرجية ـ ولبس القباء أيضا ؛ ولبس فى السفر جبة ضيقة الكمّين ؛ ولبس الازار والرداء .

ولبس حلة حمراء ـ والحلة إزار ورداء ولا تكون الحلة إلا اسما للثوبين معا ، وغلط من ظن أنها كانت حمراء بحتا لا يخالطها غيرها وإنما الحلة الحمراء

---

(١) الظاهر أنها كانت عادة فى بلاد العرب لوقاية القفا من حرارة الشمس

بردان يمانيان منسوجان بخطوط حمر مع الأسود كسائر البرود اليمنية وهى معروفة بهذا الاسم باعتبار ما فيها من الخطوط الحمر ، وإلا فالأحمر البحت منهى عنه ، فنى صحيح البخارى أن النبى (صلى الله عليه وسلم) نهى عن المياثر الحمر [١] ـ وفى سنن أبى داود عن عبد الله بن عمر أن النبى (صلى الله عليه وسلم) رأى عليه رَيطة مضرّجة بالعصفر [٢] فقال : « ماهذه الريطة التى عليك ؟ فعرفت ما كره ! فأتيت أهلى وهم يسجرون تنوراً لهم فقذفتها فيها ؛ ثم أتيته من الغد فقال : يا عبد الله ما فعلت الريطة ، فأخبرته فقال : هلا كسوتها بعض أهلك فانه لا بأس بها للنساء » .

ولبس ثوبا أسود ، ولبس الفروة المكفوفة بالسندس ، كما روى الامام أحمد وأبو داود ؛ ولبس الخفين ولبس النعل ولبس الخاتم [٣] . وفى صحيح مسلم عن أسماء بنت أبى بكر قالت : هذه جبة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأخرجت جبة طيالسية خسروانية [٤] لها لبنة ديباج وفرجاها مكفوفان بالديباج ! فقالت : هذه كانت عند عائشة حتى قبضت فلما قبضت قبضتها وكان (صلى الله عليه وسلم) يلبسها .

وكان قميصه من قطن وكان قصير الطول قصير الكمين [٥] وأما هذه الأكمام

---

(١) المياثر : جمع ميثرة . وهى اللبد أو الفراش الذى يجعل تحت الراكب على الفرس والبعير .

(٢) الريطة : كل ثوب لين رقيق . والمضرجة : المصبوغة صبغ خفيف غير مشبع

(٣) الخاتم الذى نقش عليه اسمه وكان يختم به كتبه إلى الملوك كان لبسه فى أصبعه ، لا الخاتم الذى يلبسه الناس الآن للزينة والابهة .

(٤) نسبة إلى نوعها من الثياب

(٥) ان فى قصر الثياب حفظا من القذر واقتصاداً فى الثمن وتنشيط على العمل .

الواسعة الطوال التي هي كالأخراج فلم يلبسها هو ولا أحد من أصحابه البتة! وهي مخالفة لسنته، وفي جوازها نظر فانها من جنس الخيلاء. وكان أحب الالوان إليه البياض، وقال: «هي من خير ثيابكم فالبسوها وكفنوا فيها موتاكم»

ورأى أنس جماعة عليهم الطيالسة فقال: ما أشبههم بيهود خيبر!!

ومن ههنا كره لبسها جماعة من السلف والخلف لما روى أبو داود والحاكم في المستدرك عن ابن عمر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: «من تشبه بقوم فهو منهم» وفي الترمذي: «ليس منا من تشبه بقوم غيرنا [1]» وكان هديه في اللباس أن يلبس ما تيسر من الصوف تارة، والقطن تارة، والكتان تارة.

---

(١) يريد صلى الله عليه وسلم أن المرء الذي يتشبه بالأجانب في الزى ومثله من الشعائر لا يكون من أمته بل ينسلخ منها ويبعد عنها: ذلك بأن كل أمة لها شعار من الزى واللغة والدين يميزها من غيرها ويجعل لها استقلالا خاصا بها، وبقدر ما يكون بين أفراد الامة من الارتباط بشعائرها يكون استقلال أمتهم وعظمتها بين الامم، فرسول الله يهدينا إلى ذلك. وقد رأى (صلى الله عليه وسلم) أحد أصحابه لابسا نوعا من الثياب فقال له: «لا تلبس هذا فانه من لباس الكفار». وقد قال الله تعالى (ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين) فلتفقه أمتنا هذه التعاليم ولتحافظ على شعائرها التي يسعى العدو في هدمها بنشر شعائره

وليحذر كل فرد منا أن يترك أى شعار من شعائرنا المقومة لنا ولا نقلد الاجانب في أى شعار من شعائرهم التي تدمجنا فيهم وتبعدنا من أمتنا ونحن لا نشعر، ولكن منهم في اختراع الصناعات واستخراج كنوز الأرض والانتفاع بعلوم الكون ولنرق بأمتنا من هذه الجهة بقدر مانستطيع. وانى انبه أبناء قومي الذين يلبسون أولادهم القبعات (البرانيط) إلى أنها شعار الأجانب وإن كانوا يرونها من المدنية فهي تحل رابطة الأمة. وإذا أصبحت هذه التقاليد الضارة وراثية في الامة فانه يتعذر

وكان اذا استجد ثوبا سماه باسمه وقال : « اللهم أنت كسوتني هذا القميص أو الرداء أو العمامة أسألك خيره وخير ماصنع له وأعوذ بك من شره وشر ماصنع له » . وكان إذا لبس قميصه بدأ بميامنه . وفي سنن النسائي عن عائشة أنها جعلت للنبي (صلى الله عليه وسلم) بردة من صوف فلبسها فلما عرق فوجد ريح الصوف طرحها [1] ، وكان يحب الريح الطيب . وفي سنن أبي داود عن عبدالله بن عباس : « لقد رأيت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أحسن ما يكون من الحلل » فلذين يمنعون عما أباح الله من الملابس والمطاعم والمناكح تزهداً وتعبداً بازائهم طائفة قابلوهم فلا يلبسون الا أشرف الثياب ولم يأكلوا الا ألين الطعام فلا يرون لبس الخشن ولا أكله تكبراً وتجبراً وكلا الطائفتين هديه مخالف لهدى النبي (صلى الله عليه

استقلالها . وإني أكرر النصح للاخوان الذين يذهبون إلى أوربا وأمريكا ألا يخلعوا زيهم فانه الشعار الذى به يعرفون . وكذلك الذين يحضرون المؤتمرات والمجامع لتمثيل الامة إنما يمثلونها بشعارها الذى يجعل لهم صفة وشخصية تملأ عيون الناظرين . فان كانوا يرون أنهم إذا ظهروا بمظهر بلادهم يحتقرون ويضحك منهم فان كثيرين من الاجانب جاءوا عندنا وكنا نضحك منهم وما تركوا شعارهم بل بقوا محافظين عليه حتى ألفناهم وصاروا هم أهل البلاد ونحن بما يخيله لنا الوهم والشيطان تركنا شعار أمتنا ونزعم أننا نمثلها . وإذا لم يكن الزى كل شيء فى الاستقلال فانه شيء منه بانضمامه إلى باقى الشعائر يمثل الاستقلال التام ويبعث فى الامة روح الدفاع عما تشعر به فى نفسها من عظمتها الشخصية . فاللهم وفقنا للعمل بهدى رسولك الموصل إلى أقوم طريق فى الاجتماع ، وأعنا على الخلاص من عدونا حتى نتمكن من تعميم هذه التعاليم .

(١) بعض الناس لاتطاق رائحته من كثرة عرقه ووسخة جسمه وثوبه . وهو مع ذلك يبحث فى دم البرغوث : نجس هو أم طاهر؟ وهل إن قتل يكون جلده جلد ميتة حمله يبطل الصلاة أم لا ؟! فاللهم هب القوم نظافة الثياب والاجسام تهبهم نظافة العقول والافكار .

وسلم). ولهذا قال بعض السلف: كانوا يكرهون الشهرتين من الثياب العالى والمنخفض. وفى السنن عن ابن عمر يرفعه الى النبى (صلى الله عليه وسلم) «من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوب مذلة ثم يلتهب به فى النار» وفى الصحيحين: «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله اليه يوم القيامة» . وكذلك لبس الدنى من الثياب يذم فى موضع ويحمد فى موضع: فيذم إذا كان شهرة وخيلاء، ويمدح إذا كان تواضعاً واستكانة. كما أن لبس الرفيع من الثياب يذم إذا كان تكبراً وفخراً وخيلاء، ويمدح اذا كان تجملا واظهاراً لنعمة الله.

ففى صحيح مسلم : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من ايمان». فقال رجل يارسول الله: إنى أحب أن يكون ثوبى حسنا ونعلى حسنة أفمن الكبر ذاك؟ فقال لا ! إن الله جميل يحب الجمال ؛ الكبر بطر الحق وغمط الناس .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى الطعام والشراب ﴾

كان لا يرد موجوداً ولا يتكلف مفقوداً: فما قرب إليه شىء من الطيبات إلا أكله، إلا أن تعافه نفسه فيتركه بدون تحريم. وما عاب طعاما قط: إن اشتهاه أكله وإلا تركه كما ترك أكل الضب لما لم يعتده ولم يحرمه على الأمة؛ بل أكل على مائدته وهو ينظر .

وكان هديه أكل ما تيسر، فان أعوزه صبر حتى إنه يربط على بطنه الحجر من الجوع ويرى الهلال والهلال والهلال ولا يوقد فى بيته ناراً وكان معظم مطعمه يوضع على الأرض فى السفر ، وهى كانت مائدته .

وكان من هديه الشراب قاعداً ، وصح عنه أنه شرب قائماً : جاء الى زمزم وهم يسقون منها فاستقى فناولوه الدلو فشرب وهو قائم .

وروى عنه « إذا شرب أحدكم فليمص الماء مصا » .

وفى صحيح مسلم كان يتنفس فى الشراب ثلاثاويقول : « انه أروى وأمرأ وأبرأ » ومعنى تنفسه فى الشراب إبانة القدح عن فيه وتنفسه خارجه ، ثم يعود الى الشراب كما جاء مصرحا به فى الحديث الآخر : « إذا شرب أحدكم فلا يتنفس فى القدح ولكن ليبن الاناء عن فيه » . وروى الترمذى : « لا تشربوا نفسا واحداً كشرب البعير ! لكن اشربوا مثنى وثلاث ، وسمُّوا إذا أنتم شربتم واحمدوا اذا أنتم فرغتم » .

وكان لا يأكل متكئاً ، وكان يسمى الله تعالى على أول طعامه ويحمده فى آخره ، وكان إذا شرب ناول من على يمينه وإن كان من على يساره أكبر منه.

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى معاشرة أهله ﴾

صح عنه من حديث أنس : « حبب الىّ من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

وكان يطوف على نسائه فى الليلة الواحدة . وكان يقسم بينهن فى المبيت والايواء والنفقة . وأما المحبة فكان يقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك » . وطلق وراجع وآلى إيلاء مؤقتا بشهر ولم يظاهر أبداً [1] .

وكان مع أزواجه حسن المعاشرة وحسن الخلق . وكان يسرب الى عائشة بنات الانصار يلعبن معها ، وإذا هويت شيئا لا محذور فيه تابعها عليه

(١) سيأتى معنى الايلاء والظهار بعد فارجع إلى الفهرس

وإذا شربت من الاناء أخذه فوضع فمه فى موضع فمها وشرب ، وكان يتكىء فى حجرها ويقرأ القرآن ورأسه فى حجرها وربما كانت حائضاً ، وكان يأمرها وهى حائض فتتزر ثم يباشرها ، وكان يقبلها وهو صائم ويريها الحبشة وهم يلعبون فى مسجده وهى متكئة على منكبيه تنظر، وسابقها فى السفر على الأقدام مرتين وتدافعا فى خروجهما من المنزل.

وكان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه: فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه وكان يقول «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى» وكان ربما مد يده إلى بعض نسائه فى حضرة باقيهن ، وكان إذا صلى العصر دار على نسائه فدنا منهن واستقرأ أحوالهن ، فاذا جاء الليل انقلب الى بيت صاحبة النوبة فخصها بالليل . قالت عائشة كان لا يفضل بعضنا على بعض فى مكثه عندهن فى القسم . وكان يقسم لثمان منهن دون التاسعة وهى « سودة » لما كبرت وهبت نوبتها لعائشة، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقسم لعائشة يومها ويوم سودة .

وكان يأتى أهله آخر الليل وأوله، وإذا جامع أول الليل فربما اغتسل ونام وربما توضأ ونام، وكان يطوف على نسائه بغسل واحد، وربما اغتسل عند كل واحدة .

وكان إذا سافر وقدم لم يطرق أهله ليلا وينهى عن ذلك .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى نومه وانتباهه ﴾

كان ينام على الفراش تارة ، وعلى الحصير تارة ، وعلى السرير تارة ، وعلى الأرض تارة [1] ، وكان فراشه حشوه ليف.

---

(١) كذلك كان يجلس على الارض تارة ، وعلى الحصير تارة . والحكمة فى هذا الجمع بين التخشن والتمتع بنعمة الله ؛ وهو يريد ألا يتعود شيئا مخصوصا من هذا

وكان اذا آوى الى فراشه للنوم قال : « باسمك اللهم أحيا وأموت » وينام على شقة الأيمن ويضع يده اليمنى تحت خده الأيمن ثم يقول : « اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك » ؛ واذا انتبه من نومه قال : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور » ثم يتسوك ؛ وكان ينام أول الليل ويقوم آخره ! وربما سهر أول الليل فى مصالح المسلمين[١] وكانت تنام عيناه ولا ينام قلبه ؛ واذا نام لم يوقظوه حتى يكون هو الذى يستيقظ .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى الركوب ﴾

ركب الخيل والابل والبغال والحمير ؛ وركب الفرس مسرجة تارة وعريا أخرى ، وكان يجريها فى بعض الاحيان ، وكان يركب وحده وهو الاكثر ، وربما أردف خلفه وأركب أمامه ! وكانوا ثلاثة على بعير . وأردف الرجال وأردف بعض نسائه ، وكان أكثر مراكبه الخيل والابل ولم تكن البغال مشهورة بأرض العرب بل لما أهديت له البغلة قيل : ألا ترى الخيل على الحمر ؟ فقال « إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون »[٢]

كما كان يحذر أن يتعود طعاما أو شرابا مخصوصا بحيث يصبح نفسه مقيدة به أسيرة له مترفة بالنعمة فلا يستطيع أن يقاوم طوارىء الزمان . وهذا اعتدال فى الحياة واقتصاد فى التربية ، ومن خيرة ما ينفع فى الاجتماع .

(١) فليعتبر بهذا الذين يسهرون طول الليل فى اللعب واللهو ولا تكسب الأمة منهم غير فساد الأخلاق وتعطيل المصالح .

(٢) لان الذين لا يعلمون لا يحافظون على الخيل ونسلها من جنسها . والخيل قوة عظيمة فى الحرب ! وقد أقسم الله تعالى بها بصفاتها الحربية معتنى بها فقال :

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى معاملته وأخلاقه ﴾

باع واشترى وآجر واستأجر، ويحفظ عنه أنه أجر نفسه قبل النبوة فى رعاية الغنم وأجر نفسه من خديجة فى سفره بمالها إلى الشام.

وشارك، ولما قدم عليه شريكه قال: «أما تعرفنى؟ قال أما كنت شريكى. فنعم الشريك كنت لا تدارئ ولا تمارى» – وتدارئ بالهمز من المدرأة وهى مدافعة الحق فان ترك همزها صارت من المداراة وهى المدافعة بالتى هى أحسن

ووكل وتوكل، وأهدى وقبل الهدية وأثاب عليها، ووهب واتهب، فقال لسلمة بن الأكوع وقد وقع فى سهمه جارية: «هبها لى» فوهبها له ففادى بها من أهل مكة أسارى من المسلمين. واستدان برهن وبغير رهن، واستعار واشترى بالثمن الحال والمؤجل، وضمن ضماناً خاصاً على ربه على أعمال من عملها كان مضموناً له بالجنة وضماناً عاماً لديون من توفى من المسلمين ولم يدع وفاء. وقد قيل: إن هذا الحكم عام للأئمة بعد فالسلطان ضامن لديون المسلمين – اذا لم يخلفوا وفاء – يوفيها من بيت المال. وقالوا: كما يرث من مات ولم يدع وارثاً، فكذلك يقضى عنه دينه إذا مات ولم يدع وفاء

(والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا) وكل قوة فى الحرب تتغير بتغير الزمان إلا الخيل فلا تزال . وانظر بلاغة القرآن حيث يقول الله تعالى (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) نكر القوة فلم يبين أنواعها لأنها ستجدد بالاكتشاف وعرف الخيل باسمها لأنها تبقى قوة إلى ماشاء الله . فمن يوم أن تركنا تعاليم الدين تركنا العناية بالخيل كما تركنا العناية بغيرها من قوات الحرب ومعدات التحصين والدفاع فصرنا سخرة للاعداء يفعلون بنا ما يريدون.

وكذلك ينفق عليه فى حياته إذا لم يكن له من ينفق عليه .

ووقف أرضاً كانت له جعلها صدقة فى سبيل الله [1] وتشفع وشفع اليه ، وردّت بريرة شفاعته فى مراجعتها مغيثا فلم يغضب عليها ولا عتب

(١) هذا الوقف هو المشروع النافع ويعرف بالوقف الخيرى ، أما الذى يعملونه الآن ويسمونه الوقف الأهلى فلا أصل له فى الدين : ذلك بأن امرء يقف مايملك على نفسه مدة حياته ثم على ذريته أو من يشاء بعد موته طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل ويشرط لنفسه (الشروط العشرة) وغيرها والغرض منها أن يبقى الباب مفتوحا له فى التغيير فى الوقف يخرج منه من يشاء ويدخل فيه من يشاء ، وقد يكون الغرض من وقفه إحرام أبويه أو أحد أولاده من الميراث وقد تكون له زوجة يحبها فيورثها كل مايملك ويحرم جميع أولاده : وهكذا على حسب هواه وشهوته .

فهل بهذا يبقى معنى للتوريث الشرعى أم يختل نظامه فيصير غير الوارث وارثاً والوارث غير وارث وتهمل وصية الله تعالى فى قوله (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين) الى آخر الآيات التى قسم الله بها الميراث فى سوره النساء؟ وهل من يعمل على هذا الوقف يكون راضياً عن حكم الله وقسمته؟ أم يقولون : المالك يتصرف فى ملكه كيف يشاء ولو تعدى حدود الله والله تعالى يقول : (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) وقد جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم يشهده على مال أعطاه لولده فقال : ألك أولاد غيره ؟ قال نعم قال : أعطيتهم مثل ما أعطيته ؟ قال لا قال : لا تشهدنى على جور إنى لا اشهد إلا على الحق .

ومن الشروط الفظيعة فى هذا الوقف ان أحد الزوجين يشرط على الآخر الايتزوج بعد موته وإلا لا يستحق فى وقفه فهل بربك تجوز الرهبنة فى الاسلام من أجل الوقف ويعيش المرء راهبا ويفقد نعمة الزواج ويعطل حكمة الله فى التناسل ؟ أم أن المرء يزنى ويفسد أخلاقه وأخلاق أمته خوف أن يتزوج فتحكم المحكمة الشرعية بحرمانه من الوقف حسب شرط الواقف : . . . .

فما هذه الشروط المخجلة التى ما أنزل الله بها من سلطان (ان عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون) إيتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن

وحلف وكان يستثنى فى يمينه تارة ويكفرها تارة ويمضى فيها تارة [١].

وكان يمازح ويقول فى مزاحه الحق وبورى ، ولا يقول فى توريته الا الحق ، مثل أن يريد جهة يقصدها فيسأل عن غيرها كيف طريقها وكيف مياهها وكيف مسلكها . ويشير ويستشير، ويعود المريض ويشهد الجنازة ويجيب الدعوة ويمشى مع الأرملة والمسكين والضعيف فى حوائجهم. وسمع الشعر وأثاب عليه ، وأثاب على الحق! وسابق بنفسه على الأقدام وصارع، وخصف نعله بيده ، ورقع ثوبه ودلوه ، وحلب شاته ، وفلى ثوبه، وخدم أهله و نفسه ، وحمل معهم اللبن فى بناء المسجد، وأضاف وأضيف وحمى المريض مما يؤذيه .

كنتم صادقين) وماذا نصنع فى المحاكم الشرعية التى أصبح أكثر شغلها فى هذا الوقف وقد أوجد مشا كل ووقعت بسببه حوادث كانت كافية لزجرنا ووقفنا عن هذا الوقف ؟ والرجاء فى أهل القضاء الشرعى كبير بأن يغلقوا باب هذا الوقف ويعملوا على حل ما سجل منه ليريحوا عمال المحاكم الشرعية من كثرة اللغو فى مواده وسجلاته ويحولوا الناس إلى الوقف الخيرى الذى هداهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ به يقوى جيش الأمة المحافظ على عزتها وسيادتها وتكثر المدارس والمستشفيات ، والملاجىء وغيرها من المشروعات التى تحيي الامة وتعلى شأنها.

(١) أى يمضى فى اليمين إذا كان المضاء فيها خيرا، ويرجع عن اليمين ويكفرها إذا رأى فى الرجوع خيراً : فهو مع المصلحة والله تعالى يقول (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم) . ويقول : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون)

وكان أحسن الناس معاملة إذا استلف سلفاً قضى خيراً منه ، وإذا استلف من رجل سلفاً قضاه إياه ودعا له فقال : « بارك الله في أهلك ومالك إنما جزاء السلف الحمد والأداء »

واستلف من رجل أربعين صاعاً فاحتاج الأنصارى فأتاه فقال (صلى الله عليه وسلم) : « ماجاءنا من شيء بعد » فقال الرجل – وأراد أن يتكلم – فقال رسول الله : « لا تقل إلا خيراً فأنا خير من تسلف » فأعطاه أربعين فضلا وأربعين سلفة فأعطاه ثمانين – ذكره البزار

واقترض بعيراً فجاء صاحبه يتقاضاه فأغلظ للنبي (صلى الله عليه وسلم) فهمّ به أصحابه فقال : دعوه فان لصاحب الحق مقالا »

واشترى مرة شيئاً وليس عنده ثمنه فأربح فيه فباعه وتصدق بالربح على بنى عبد المطلب وقال : « لا أشترى بعد ذلك شيئا إلا وعندى ثمنه » – ذكره أبو داود – وهذا لا يناقض شراء فى الذمة الى أجل ، فهذا شيء وهذا شيء .

وتقاضاه غريم له دينا فأغلظ عليه فهم به عمر بن الخطاب فقال : « مه يا عمر كنت أحوج الى أن تأمرني بالوفاء وكان أحوج إلى أن تأمره بالصبر » . وباعه يهودى بيعا إلى أجل فجاء قبل الأجل يتقاضاه ثمنه فقال : « لم يحل الأجل ! » فقال اليهودى : إنكم لمطل يا بنى عبد المطلب ! فهم به أصحابه فنهاهم : فلم تزده ذلك إلا حلما ، فقال اليهودى : كل شيء منك قد عرفته من علامات النبوة وبقيت واحدة وهى ألا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما فأردت أن أعرفها . فأسلم اليهودى (١)

---

(١) حسبه أن الله تعالى شهد له فقال : (وإنك لعلى خلق عظيم) وقال : (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) وكانت المعاملات بين الناس

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى مشيه وجلوسه واتكائه ﴾

قال أبو هريرة: مارأيت أحداً أسرع فى مشيته من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كأنما الارض تطوى له وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث. وقال على: كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا مشى تكفأ تكفيا كأنما ينحط من صبب. وأما مشيه مع أصحابه فكانوا يمشون بين يديه وهو خلفهم، ويقول « دعوا ظهرى للملائكة » ولهذا فى الحديث. وكان يسوق أصحابه، وكان يمشى حافيا ومنتعلا ؛ وكان يماشى أصحابه فرادى وجماعة ؛ ومشى فى بعض غزواته فانقطعت أصبعه وسال منها الدم فقال: «هل أنت الا أصبع دميتِ * وفى سبيل الله مالقيت».

وكان فى السفر ساقة أصحابه: يزجى الضعيف ويردفه ويدعو لهم. وكان يجلس على الأرض وعلى الحصير وعلى البساط. ولما قدم عليه عدىّ ابن حاتم دعاه إلى منزله فألقت إليه الجارية وسادة يجلس عليها فجعلها بينه وبين عدىّ وجلس على الأرض، قال عدى: فعرفت أنه ليس بملك.

وكان يستلقى أحيانا وربما وضع إحدى رجليه على الأخرى ؛ وكان يتكىء على الوسادة ؛ وربما اتكأ على يساره وربما اتكأ على يمينه ؛ وكان إذا احتاج فى خروجه توكأ على بعض أصحابه من الضعف.

على هذه الأخلاق الكريمة لما قست قلوبهم ولما زالت الثقة من بينهم ولما تداخل الاجنبى فيهم ولما احتاجوا إلى الظلم والزور وما يتبع هذا من أنواع المخاصمات الجالبة للشقاء والهموم.

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم في قضاء الحاجة ﴾

كان إذا دخل الخلاء قال : «اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث الرجس النجس الشيطان الرجيم» ، وإذا خرج يقول : «غفرانك». وكان يستنجي بالماء تارة، ويستجمر بالأحجار تارة، ويجمع بينهما تارة.[1]

وكان إذا ذهب في سفره للحاجة انطلق حتى يتوارى عن أصحابه، وكان يستتر للحاجة بالهدف تارة، وبحائش النخل تارة، وبشجر الوادي تارة.

وإذا أراد أن يبول في عزاز من الأرض — وهو الموضع الصلب — أخذ عوداً فنكت به حتى يثرى ثم يبول، فكان يرتاد لبوله الموضع الدمث — وهو اللين الرخو من الارض — وأكثر ما كان يبول وهو قاعد.

وقد روى مسلم من حديث حذيفة انه بال قائماً — فعل هذا لما أتى سباطة قوم — وهو ملقى الكناسة — ويسمى المزبلة وهي تكون مرتفعة فلو بال فيها الرجل قاعداً لارتد عليه بوله وهو (صلى الله عليه وسلم) استتر بها

(١) هذا الاستنجاء تراه في كتب الفقه المعمومة مكتوباً في عدة صفحات ومشروطاً فيه عدة شروط لا يصح إلا بها عند أصحاب تلك الكتب ولا حاجة إليها لأنه أمر فطري يهتدي الناس اليه بالفطرة حتى إن المحدثين لا يكادون يفعلونه؛ فالرسول بفعله بين أن الانسان يغسل أو يمسح . والغرض إزالة ما فيه من القذر الذي تهدي الفطرة إلى إزالته ولم يزد [illegible] . وإذ كان مؤلفو في الفقه يشددون في كيفية هذا الأمر الفطري فكيف [illegible] شددوا فيه حتى نفروا الناس منه! وليس وراء هذا إلا اختلاف المؤلفين بين محلل ومحرم وموجب ومجوز والناس لا يعرفون من يتبعون وهم في حيرة لا يهتدون إلا بهدي الرسول الذي هو متفق عليه وليس لأحد رأي فيه.

وجعلها بينه وبين الحائط فلم يكن بد من بوله قائماً. وكان يخرج من الخلاء فيقرأ القرآن؛ وكان يستنجي ويستجمر بشماله؛ ولم يكن يصنع شيئاً مما يصنعه المبتلون بالوسواس من نثر الذكر والنحنحة.

قال أبو جعفر العقيلي: وكان إذا سلم عليه أحد وهو يبول لم يرد عليه. ذكره مسلم في صحيحه عن ابن عمر، وروى البزار في مسنده في هذه القصة أنه رد عليه. ثم قال: «انما رددت عليك خشية أن تقول سلمت عليه فلم يرد عليّ سلاما؛ فاذا رأيتني هكذا فلا تسلم عليّ فاني لا أرد عليك السلام». وكان اذا استنجى بالماء ضرب يده بعد ذلك على الأرض. وكان اذا جلس لحاجته لم يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض.

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم في الفطرة والنظافة ﴾

كان يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وأخذه وعطائه؛ وكانت يمينه لطعامه وشرابه وطهوره؛ ويساره لخلائه ونحوه من إزالة الأذى.

وكان هديه في حلق الرأس: تركه كله؛ أو أخذه كله، وكان يقص شاربه. روى الترمذي: «من لم يأخذ من شاربه فليس منا» وقال حديث صحيح، وفي صحيح مسلم: «قصوا الشوارب وارخوا اللحى، خالفوا المجوس» وفي الصحيحين: «خالفوا المشركين ووفروا اللحى واحفوا الشوارب»[1]

(١) من الشبان في هذا العصر من يحلقون شاربهم من جانبيه ويبقون وسطه، وهذا نشأ من تربيتهم على عادة الأجنبي الذي يرونه في نظرهم عظيما يحترمون عادته ويحتقرون عادة أمتهم، فهلا سابقوا الأجنبي في الصناعات والمكتشفات العلمية النافعة أوليس واجبا عليهم — وهم طلاب الاستقلال — أن يرتبطوا بأمتهم ولا يندمجوا في عدوهم؟!

وكان يحب الطيب ويكثر التطيب. وقالت طائفة: كان (صلى الله عليه وسلم) مما يكثر التطيب قد احمر شعره فكان يظن مخضوبا ولم يخضب.

قيل لجابر بن سمرة: أكان في رأس النبي (صلى الله عليه وسلم) شيب؟ فقال: لم يكن إلا شعرات في مفرق رأسه إذا ادهن واراهن الدهن، وفي البخاري أنه كان لا يرد الطيب. وفي مسلم: «من عرض عليه ريحان فلا يرده فانه طيب الريح خفيف المحمل». وفي سنن أبي داود والنسائي: «من عرض عليه ريح فلا يرده فانه خفيف المحمل طيب الرائحة».

وفي مسند البزار «إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجواد. فنظفوا أفنيتكم وساحاتكم ولا تشبهوا باليهود يجمعون الأكب — الزبالة — في دورهم».

وصح عنه «إن لله حقا على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، وإن كان له طيب أن يمس منه [1]». وكان يحب السواك ويستاك مفطرا وصائما، وعند الانتباه من النوم، وعند الوضوء، وعند الصلاة، وعند دخول المنزل، وكان يستاك بعود الأراك.

وفي الصحيحين: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة». وفي البخاري تعليقا: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب». والأحاديث

---

(١) هذه النظافة هي مظهر الايمان ولكن يوجد ناس يدعون التقى وهم يحبون الوساخة ويألفون القذر ويقولون: هذا تواضع لله" وأكثر من ذلك أن الشخص القذر يسمونه وليا لله ويعتقدون فيه البركة! وكثيرا ما نجد ناسا أولياء لأنهم أهل قذر وبلاهة! فكأن البركة والولاية لا تعرف إلا بذلك مع أن الله يقول: «الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات».

فيه كثيرة، وفيه عدة منافع: يطيب الفم ويشد اللثة ويذهب بالحفر، وينشط للقراءة والذكر. ويستحب فى كل وقت ويتأكد عند الصلاة والوضوء وتغير رائحة الفم، ويستحب للمفطر والصائم فى كل وقت، لعموم الاحاديث فيه ولحاجة الصائم إليه. ففى السنن عن عامر بن ربيعة قال: رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مالا أحصى يستاك وهو صائم، وقال البخارى قال ابن عمر: يستاك أول النهار وآخره.

وأجمع الناس على أن الصائم يتمضض وجوباً واستحبابا، والمضمضة أبلغ من السواك، وليس لله غرض فى التقرب إليه بالرائحة الكريهة ولا هى من جنس ما شرع التعبد به؛ وإنما ذكر طيب الخلوف عند الله يوم القيامة حثا منه على الصوم لاحثا على إبقاء الرائحة [1]؛ والسواك لا يمنع الخلوف عند الله يوم القيامة بل يأتى الصائم وخلوف فمه أطيب من المسك علامة على صيامه، كما أن الجريح يأتى يوم القيامة ولون دمه لون الدم وريحه ريح المسك وهو مأمور بازالته فى الدنيا، وأيضا فان الخلوف لا يزول بالسواك لأن سببه قائم وهو خلو المعدة عن الطعام، وإنما يزول أثره وهو المنعقد على الاسنان واللثة، وأيضا فان النبي (صلى الله عليه وسلم) علم أمته ما يستحب لهم فى الصيام وما يكره ولم يجعل السواك من القسم المكروه وهو يعلم أنهم يفعلونه وقد حضهم عليه بأبلغ ألفاظ العموم والشمول وهم يشاهدونه يستاك وهو صائم مراراً كثيرة وهو يعلم أنهم يقتدون به ولم يقل لهم يوما: لا تستاكوا بعد الزوال. وتأخير البيان عن وقت الحاجة ممتنع؛ والله أعلم.

(١) غرضه الرد على الذين يقولون إن السواك مكروه للصائم بعد الزوال لحديث: «لخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك»

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى كلامه وسكوته وضحكه وبكائه ﴾

كان أفصح خلق الله وأعذبهم كلاما . قالت عائشة : ما كان يسرد سردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام يبينه فصل يحفظه من جلس إليه . وكان كثيراً ما يعيد الكلام ثلاثا ليعقل عنه . وكان طويل السكوت لا يتكلم فى غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلم ، لا يتكلم فيما لا يعنيه ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، وإذا كره الشيء عرف فى وجهه ، ولم يكن فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا ، وكان ضحكه التبسم ، فنهاية ضحكه أن تبدو نواجذه ، وكان يضحك مما يضحك منه ، وبكاؤه لم يكن بشهيق ورفع صوت ، كما لم يكن ضحكه بقهقهة ولكن كان تدمع عيناه حتى تهملا ويسمع لصدره أزيز ، وكان بكاؤه تارة رحمة للميت ، وتارة خوفا على أمته وشفقة ، وتارة من خشية الله ، وتارة عند سماع القرآن ، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال مصاحبة للخوف والخشية . ولما مات ابنه ابراهيم دمعت عيناه وبكى رحمة له وقال : « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا مايرضى ربنا . وإنا بك يا ابراهيم لمحزونون » . وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض ، وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء وانتهى الى قوله تعالى : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدا) ، وبكى لما كسفت الشمس وصلى صلاة الكسوف وجعل يبكى فى صلاته . وكان يبكى أحيانا فى صلاة الليل .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى خطبته ﴾

خطب على الأرض ، وعلى المنبر ، وعلى البعير ، وعلى الناقة . وكان إذا

خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش .

وكان يقول : « أما بعد فان خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » .

وكان لايخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله . وأما قول كثير من الفقهاء إنه يفتتح خطبة الاستسقاء بالاستغفار وخطبة العيد بالتكبير فليس معهم فيه سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم البتة ، وسنته تقتضي خلافه وهو افتتاح جميع الخطب بالحمد لله ، وكان يخطب قائما . وفى مراسيل عطاء وغيره أنه كان إذا صعد المنبر أقبل بوجهه على الناس ثم قال : « السلام عليكم » قال الشعبي: وكان أبو بكر وعمر يفعلان ذلك. وكان يختم خطبته بالاستغفار ؛ وكان كثيراً مايخطب بالقرآن . وفى صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة قالت : ماأخذت (قٓ والقرآن المجيد) إلا عن لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس . وذكر أبو داود أنه كان اذا تشهد قال: « الحمد لله نستعينُه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ؛ من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدى الساعة ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فانه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً » .

وكان مدار خطبه (صلى الله عليه وسلم) على حمد الله والثناء عليه بآلائه وأوصاف كماله ، وتعليم قواعد الاسلام وذكر الجنة والنار والمعاد والأمر بتقوى الله وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه .

وكان يخطب فى كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصالحهم[1].

ولم يكن يخطب خطبة إلا ويتشهد فيها بكلمتى الشهادة ويذكر فيها نفسه باسمه العلم.

وكان يتكىء فى خطبته على عصا أحياناً، وعلى قوس أحياناً؛ ويقصر الخطبة أحياناً ويطيلها أحياناً بحسب حاجة الناس.

وكان يخطب النساء على حدة فى الأعياد ويحرضهن على الصدقة.

قسم العبادات

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى الوضوء ﴾

كان يتوضأ لكل صلاة فى غالب أحيانه؛ وربما أدى الصلاة بوضوء واحد؛ وكان يتوضأ بالمد تارة وبثلثيه تارة وبأزيد منه تارة.

وكان يحذر أمته من الاسراف بقوله: « ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء». وصح عنه أنه توضأ مرة مرة؛ ومرتين مرتين؛ وثلاثاً ثلاثاً ، وبعض الأعضاء مرتين وبعضها ثلاثا. وكان إذا كرر

---

(١) انظر خطبته فى الجمعة ، وليعتبر بذلك الخطباء الذين لا يهمهم إلا سجع الكلام وتعقيده والذين يتمسكون بدواوين الخطب القديمة التى لا تراعى الزمان ولا المكان ولا حالة المخاطبين ، وعليهم أن يقولوا مايفهمه قومهم ويؤثر فى نفوسهم وليتبعوا طريقة نبيهم (صلى الله عليه وسلم) فى بناء الخطبة على القرآن الذى فيه أعظم هداية وأكبر عظمة وأقوى تأثير . وليفسروا كل آية يقرأونها وكل حديث يروونه وليعلموا أن صلاح الأمة موقوف على صلاحهم وصلاح وعظهم وهم مسئولون أمام الله تعالى عن كل خطبة يخطبونها ولهم من الاجر بمقدار ما يتأثرون ويتأثر الناس بوعظهم . أصلح الله شأننا أجمعين ووفقهم للخطب النافعة لتنبيه المسلمين .

غسل الاعضاء أفرد مسح الرأس ؛ ولم يصح عنه أنه اقتصر على مسح بعض رأسه ؛ بل كان إذا مسح بناصيته كمل على العمامة. وكان يمسح على رأسه تارة ؛ وعلى العمامة تارة ؛ وعلى الناصية والعمامة تارة . ولم يتوضأ الا تمضمض واستنشق ؛ ولم يحفظ عنه أنه أخل به مرة واحدة . وكان يتمضمض ويستنشق تارة بغرفة ؛ وتارة بغرفتين ؛ وتارة بثلاث . وكان يصل بينهما فيأخذ نصف الغرفة لفمه ونصفها لأنفه كما فى الصحيحين من حديث عبد الله بن زيد . وكان يستنشق بيده اليمنى ويستنثر باليسرى ، وكان يمسح أذنيه مع رأسه ظاهرهما وباطنهما ؛ ولم يثبت عنه أنه أخذ لهما ماء جديداً وإنما صح ذلك عن ابن عمر . وكان يغسل رجليه إذا لم يكونا فى خفين ولا جوربين ؛ ويمسح عليهما إذا كان فى الخفين — وصح عنه المسح على الخفين فى الحضر والسفر ولم ينسخ ذلك حتى توفى ـ ووقت للمقيم يوما وليلة ؛ وللمسافر ثلاثة أيام ولياليهن . فى عدة أحاديث حسان وصحاح .

وكان يمسح ظاهر الخفين ومسح على الجوربين والنعلين[1] .

---

(١) هذا العمل يبين قول الله تعالى : (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) فعلى قراءة وأرجلكم بفتح اللام تكون معطوفة على الأعضاء المغسولة ـ فى قوله فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ـ وعلى قراءتها بكسر اللام تكون معطوفة على العضو الممسوح فى قوله : (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم) فالنبى (صلى الله عليه وسلم) كان يغسل الرجلين إذا كانتا مكسوفتين ويمسح عليهما إذا كانتا مستورتين بنعل أو جورب أو غيره فلا يتكلف الناس خلع ما فى الرجل ؛ وفى ذلك ما فيه من السهولة التى ترغب كثيراً من الناس فى العبادة . ولا يخفى أن فى كتب الفقه يشترطون فى الجورب والخف شروطا لا يصح المسح عليه إلا بها ولا حاجة اليه، لأن الرسول ما خصص الجورب بشروط ولا خصص الخف أو النعل .

وكان وضوؤه مرتباً متوالياً لم يخل به مرة واحدة، ولم يواظب على تخليل لحيته وأصابعه؛ ولم يقل على وضوئه شيئاً غير التسمية فى أوله والتشهد فى آخره؛ ولم يثبت أنه تجاوز المرفقين والكعبين فى غسلهما. وأما تنشيف الأعضاء فقد قال الترمذى: لا يصح فى هذا الباب شىء عنه (صلى الله عليه وسلم).

وكان تارة يصب الماء على نفسه وتارة يعاونه غيره؛ كما فى حديث المغيرة بن شعبة أنه صب عليه فى السفر لما توضأ. خرجه الصحيحان.

بعلامات بل ترك كلا منها على حسب اسمه وشكله ونوعه فى أى زمن من الازمان، والحكمة معروفة فلا معنى للتشديد فى الدين باشتراط ما لم يشترطه الله ورسوله: انظر هديه فى الصلاة بالنعل.

وقد رتب (صلى الله عليه وسلم) فى الوضوء كما رتبه الله تعالى فى الآية: وجعل غسل الفم والانف من الوجه كما جعل مسح الاذنين مع الرأس.

وفى الآية من نواقض الوضوء شيئان: (جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء) والغائط هو مكان قضاء الحاجة — ونسميه الكنيف والمرحاض وبيت الراحة والخلاء — وهو كناية عما يخرج من مخرجى الانسان. كما أن قوله: «أو لامستم النساء» كناية عما يكون بين المرء وزوجه .. فهذان الشيئان نص على أنهما ينقضان الوضوء.

وقد ذكر الله سبحانه فى الآية الطهر من الجنابة حيث قال: (وإن كنتم جنباً فاطهروا) وكان هدى النبى (صلى الله عليه وسلم) فى الغسل من الجنابة أنه يبدأ فيغسل أعضاء الوضوء، ثم يعمم جسده بالماء بادئاً بأعلاه ويمناه. وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كنت أغتسل أنا ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) من إناء واحد (وفى رواية النسائى قالت): فنشرع فيه جميعاً وأفيض على رأسى بيدى ثلاث مرات وما أنقض لى شعرا»

وقد جئت بالغسل هنا لمناسبة ذكره فى الآية مع الوضوء ولم يذكر له باب فى زاد الميعاد.

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى التيمم ﴾

كان يتيمم بضربة واحدة للوجه والكفين ؛ ولم يصح عنه أنه تيمم بضربتين ولا إلى المرفقين . قال الامام احمد : من قال إن التيمم الى المرفقين فانما هو شيء زاده من عنده .

وكان يتيمم بالأرض التي يصلى عليها ، ترابا كانت أو سبخة أو رملا. وصح عنه أنه قال : « حيثما أدركت رجلا من أمتى الصلاة فعنده مسجده وطهوره » . ولم يتيمم لكل صلاة ويأمر بذلك بل أطلق وجعله قائما مقام الوضوء (١) .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى الصلاة (٢) ﴾

كان اذا قام الى الصلاة قال : « الله أكبر » ولم يقل شيئا قبلها ولا يلفظ

---

(١) يقوم التيمم مقام الوضوء والاغتسال من الجنابة عند فقد الماء وفى حالة المرض أو السفر قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا « الا عابرى سبيل » حتى تغسلوا ، وإن كنتم (مرضى) (أو على سفر) أو جاء أحد منكم من الغائط أو لمستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً) وقال فى الآية الأخرى : (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) .

(٢) من فوائد الصلاة أنها تربى الناس على النظام والنشاط وتعودهم حفظ المواعيد والأوقات وتريهم كيف أن الاتحاد فى الصف يساعد على الاتحاد فى القلوب والصف فى الحرب ؛ زد على ذلك النظافة والطهارة التى تصبح بتعود الصلاة خلقا وطبيعة فى النفس ؛ ولا تنس وجود المرء فى جماعة المصلين فانه بهذا يشعر دائما انه قوى باخوانه ويألف الجماعه التى هى أساس التعاون على كل خير .

وفوق هذه الفوائد فائدة اتصال العبد بربه بالوقوف بين يديه يتلو آياته ويتدبرها ويقوم ويجلس ويفعل كل أمور الصلاة وهو يعلم أن الله تعالى مراقبه

بالنية البتة، ولا قال: أصلى لله صلاة كذا مستقبل القبلة أربع ركعات إماماً أو مأموماً، ولا قال أداء ولا قضاء ولا فرض الوقت، وهذه عشر بدع لم ينقل عنه أحد قط – باسناد صحيح ولا ضعيف ولا مسند ولا مرسل – لفظة واحدة منها البتة؛ بل ولا عن أحد من أصحابه ولا استحسنه أحد من التابعين ولا الأئمة الأربعة.

وكان يرفع يديه مع التكبير ممدودة الأصابع الى المنكبين أو الأذنين؛ ثم يضع اليمنى على ظهر اليسرى.

ومطلع عليه فيتربى فى نفسه الخوف من الله تعالى وحب إرضائه، وبالمحافظة على الصلاة بهذا الشكل تكون النتيجة منها أنها تبعد صاحبها عن المنكرات قال تعالى: (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون).

فبالصلاة تصلح الاخلاق وتنظف الاجسام والاثواب والامكنة ويكون النشاط والنظام والتعاون وتتأصل كل مبادىء الخير فى النفس، وبها يستعين الناس على كل عمل من أعمال الدنيا ويستعدون للقيام بكل شأن من شؤون الاجتماع قال تعالى: (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم اليه راجعون) – ولهذا لا يستغنى عنها عامل فى هذه الحياة، وقد تركها بعض الناس لما جهل حكمتها وفهم أنها عبارة عن حركات لا معنى لها ورأى كثيراً من المصلين لم تتحسن أخلاقهم ولم تنظف أجسامهم ولم يتعودوا نظاماً ولا محافظة على موعد. وفات هذا الجاهل أن هؤلاء المصلين هم الذين قال الله تعالى فيهم: (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون) فهم يصلون ولكن لا يعلمون معنى الصلاة لأنهم ورثوها بالتقليد عن آبائهم أو لقنوها ماقينا جافا بعدد الشروط والاركان من غير أن يتدبروا ما فيها من القرآن ويعتبروا بما فيها من التكبير والتسبيح وحركات القيام والجلوس والركوع والسجود، فجهلهم بكل هذا وإعراضهم عنه جعلهم ساهين عن الصلاة لا يخشعون ولا يفلحون قال تعالى: « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون » وحكمة مجىء اللغو هنا الاعلان بأن الصلاة التى لا خشوع فيها تكون لغواً لا قيمة لها ولا ينتظر إصلاح منها.

هذا وإن حكمة التوقيت فى الصلاة هى أن الناس كلما اشتغلوا فى الدنيا وقتا

وكان يستفتح تارة ب: «اللهم باعد بيني وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب»، وتارة يقول: « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنفياً وما أنا من المشركين » — « ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ».

رجعوا إلى الصلاة وقتا ليمسحوا ما علق بنفوسهم من وسخ الجو ويحصنوها بذكر الله فيعدوها للاحسان والتقوى فى العمل؛ وهكذا فلا تتمكن مشاغل الدنيا من نفوسهم ولا يتغلب عليها ما يحيط بها من رداءة البيئة وسوء المخالطين والمعاشرين ولهذا كانت الصلاة بمواقيت وكانت المحافظة عليها ضرورة لكل انسان وكل من يقيمها كما يريد الله تعالى منها يكون مستعداً بها لاقامة كل ما فيه سعادته الدنيوية والأخروية فليفهم هذا أهل عصرنا الذين يريدون إصلاح الأمة واتحاد أفرادها وتعديل أخلاقها؛ وليعلموا أن حكمة الله فى الصلاة — كحكمته فى كل عبادة — هي الوصول إلى توحيد الأعمال والحركات التى تتوحد بها الاعمال والمقاصد.

هذا وان أوقات الصلاة ذكرها الله تعالى فى القرآن مع ما فيها من القيام والقراءة والركوع والسجود والتسبيح فقال تعالى: (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) وقال تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) وقال تعالى: (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين.) وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم). وقال تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والارض وعشيا وحين تظهرون). وقال تعالى: (والعصر إن الانسان لفى خسر). وقال تعالى: (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وادبار السجود) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون). وقال تعالى: (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين). وقال تعالى: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) فالصلوات: هى الخمس، والوسطى: هى المعتدلة بالخشوع والتدبر؛ والرسول (صلى الله عليه وسلم) بين المراد من ذلك كله بفعله الذى يثبت الصلاة فى النفوس ويجعلها محفوظة بالتواتر العملى، جعلنا الله تعالى من المحافظين عليها والخاشعين فيها.

وذكر أصحاب السنن أنه كان يقول فى استفتاحه : « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولااله غيرك » . وصح عن عمر أنه كان يستفتح به فى مقام النبي ويجهر به ويعلمه الناس .

وكان يقول بعد ذلك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويجهر ببسم الله الرحمن الرحيم تارة ويخفيها تارة أخرى ؛ ثم يقرأ الفاتحة يقف عند كل آية ويمد بها صوته ؛ فاذا فرغ من الفاتحة ـ وكان جاهراً بها ـ جهر بآمين ورفع بها صوته وقالها مَن خلفه .

وكان له سكتتان : سكتة بعد التكبيرة وسكتة بعد الفاتحة . ثم يأخذ فى قراءة سورة يطيلها أحيانا ويقصرها لعارض من سفر أوغيره ويتوسط فيها غالباً ، وكان قراءته فى الفجر أطول من غيرها ؛ وكان يصليها يوم الجمعة بسورة الّم (السجدة) وهل أتى على الانسان لما اشتملتا عليه من ذكر المبدإ والمعاد وخلق آدم ودخول الجنة والنار وغير ذلك مما كان ويكون فى يوم الجمعة تذكيراً للأمة بحوادث هذا اليوم . كما كان يقرأ فى المجامع العظام كالأعياد والجمعة ،سورة ق ؛ واقتربت ؛ وسبح ، والغاشية .

وكان لا يعين سورة فى الصلاة بعينها لا يقرأ إلا بها إلا فى الجمعة والعيدين. وأما فى سائر الصلوات فقد ذكر أبو داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : مامن المفصل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا وقد سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يؤم الناس بها فى الصلاة المكتوبة .

وكان يطيل الركعة الاولى على الثانية ؛ وكان إذا فرغ من القراءة سكت بقدر ما يترادّ إليه نفسه ثم رفع يديه وكبر راكعًا ووضع كفيه على ركبتيه كالقابض عليهما ؛ ووتر يديه فنحاهما عن جنبيه ؛ وبسط ظهره ومد

ينصب رأسه ولم يخفضه بل يجعله معادلا لظهره ، وكان يقول : سبحان ربي العظيم : وتارة يزيد سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى .

وكان ركوعه مقدار عشر تسبيحات وسجوده كذلك .

روى أهل السنن عن أنس : ماصليت وراء أحد بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أشبه صلاة برسول الله (صلى الله عايه وسلم) إلا هذا الفتى — يعني عمر بن عبدالعزيز — فحزرنا فى ركوعه عشر تسبيحات وفى سجوده عشر تسبيحات .

ثم كان يرفع رأسه بعد ذلك قائلا : سمع الله لمن حمده ، ويرفع يديه . وروى رفع اليدين عنه فى هذه المواطن الثلاثة نحو من ثلاثين نفساً . واتفق على روايتها العشرة ، ولم يثبت عنه خلاف ذلك البتة .

وكان إذا استوى قائماً قال : ربنا ولك الحمد ، وربما قال : ربنا لك الحمد ، وربما قال: اللهم ربنا لك الحمد ، صح ذلك عنه. وأما الجمع بين اللهم والواو فلم يصح . وكان من هديه إطالة هذا الركن بقدر الركوع والسجود ، فصح عنه أنه كان يقول : سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ماشئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد أحق ماقال العبد وكلنا لك عبد ، لامانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد . وصح عنه أنه قال : اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد ، ونقنى من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، وباعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب .

ثم كان يكبر ويخرّ ساجداً ولا يرفع يديه ويضع ركبتيه قبل يديه ، ثم

يضع يديه، ثم جبهته وأنفه. هذا هو الصحيح الذى رواه شريك عن عاصم ابن كليب عن أبيه عن وائل بن حجر : رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا سجد وضع ركبتيه قبل يديه ، وإذا نهض رفع يديه قبل ركبتيه ولم يرو فى فعله مايخالف ذلك .

وكان إذا سجد مكن جبهته وأنفه من الأرض ونحى يديه عن جنبيه وجافى بهما ووضعهما حذو منكبيه وأذنيه — وفى صحيح مسلم : « إذا سجدت فضع كفيك وارفع مرفقيك » .

وكان يعتدل فى سجوده ، ويستقبل بأطراف أصابع رجليه القبلة .

وكان يبسط كفيه وأصابعه ، ولا يفرج بينهما ولا يقبضهما . وفى صحيح ابن حبان: كان إذا ركع فرج أصابعه فاذا سجد ضم أصابعه .

وكان يقول : سبحان ربى الأعلى، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لى. ويقول : « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك . وبمعافاتك من عقوبتك ،وأعوذ بك منك، لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

ويقول : اللهم اغفر لى جدى وهزلى وخطئى وعمدى وكل ذلك عندى . اللهم اغفر لى ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت . أنت إلهى لا إله إلا أنت .

وأمر بالاجتهاد فى الدعاء فى السجود — والدعاء نوعان : دعاء ثناء ودعاء مسألة— والنبى (صلى الله عليه وسلم) كان يكثر فى سجوده من النوعين.

وكان إذا أطال القيام أطال الركوع والسجود ، وإذا خفف القيام خفف الركوع والسجود .

وكان يرفع رأسه مكبراً ثم يجلس مفترشا رجله اليسرى ناصبا اليمنى، واضعاً يديه على فخذيه، جاعلا مرفقه على فخذه، وطرف يده على ركبتيه. ثم يقبض ثنتين من أصابعه ويحلق حلقة؛ ثم يرفع أصبعه يدعو بها ويحركها؛ هكذا قال وائل بن حجر فى الحديث الصحيح الذى ذكره أبو حاتم.

وكان يجلس بين السجدتين بقدر السجود ويقول: اللهم اغفر لى وارحمنى واجبرنى واهدنى وارزقنى؛ وكان ينهض على صدور قدميه وركبتيه معتمداً على فخذيه؛ ولا يعتمد على الأرض بيديه.

وكان إذا نهض أخذ فى القراءة من غير سكتة؛ ثم يقصر الركعة الثانية عن الأولى؛ فاذا جلس للتشهد وضع يده اليسرى على فخذه اليسرى، ووضع يده اليمنى على فخذه اليمنى وأشار بأصبعه السبابة وكان يحنيها ويحركها؛ وكان يقبض أصبعين — وهما الخنصر والبنصر — ويحلق بالوسطى مع الابهام ويرفع السبابة يدعو بها ويرمى ببصره إليها ويبسط الكف اليسرى على الفخذ اليسرى، وكان يفترش — كما تقدم. فى الصحيحين من حديث أبى حميد — فاذا جلس فى الركعتين جلس على رجله اليسرى ونصب الأخرى، وإذا جلس فى الركعة الأخيرة قدم رجله اليسرى ونصب اليمنى وقعد [illegible] مقعدته.

[illegible] يقول فى هذه الجلسة ويعلم أصحابه: التحيات لله والصلوات والطيبات؛ السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته؛ السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ وكان يخفف هذا التشهد جداً ثم ينهض مكبراً رافعاً يديه.

ولم يثبت أنه زاد فى القراءة عن الفاتحة بعد الركعتين الأوليين.

ثم إذا جلس للتشهد الأخير زاد على التشهد الأول الصلاة عليه وآله واستعاذ من عذاب القبر والنار ، ومن فتنة المحيا والممات ، والمسيخ الدجال.

ثم كان يسلم عن يمينه : السلام عليكم ورحمة الله ، وعن يساره كذلك.

وكان إذا قام فى الصلاة طأطأ رأسه — ذكره الامام أحمد — ولم يغمض عينيه بل كان ينظر الى محل سجوده؛ وكان فى التشهد لا يجاوز بصره إشارته؛ وقد جاءت قرة عينه فى الصلاة. فكان يقول : أرحنا بالصلاة يا بلال؛ وكان يدخل فى الصلاة وهو يريد إطالتها فيسمع بكاء الصبى فيخففها مخافة أن يشق على أمه؛ وكان يصلى وهو حامل أمامة بنت أبى العاص بن الربيع ابنة بنته على عاتقه إذا قام حملها وإذا ركع وسجد وضعها ؛ وكان يجىء الحسن أو الحسين فيركب ظهره فيطيل السجدة كراهية أن يلقيه عن ظهره.

أرسل مرة فارساً طليعة له فقام يصلى وجعل يلتفت إلى الشعب الذى يجىء منه الفارس ولكن لم يشغله كل ذلك عن مراعاة أحوال المأمومين وغيرهم مع كمال إقباله وقربه من الله تعالى وحضور قلبه بين يديه.

وكان يصلى فتجىء عائشة من حاجتها والباب مغلق فيمشى فيفتح لها الباب ثم يرجع إلى الصلاة.

وكان يرد السلام بالاشارة على من يسلم عليه وهو فى الصلاة. قال جابر : بعثنى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لحاجة ثم أدركته وهو يصلى فسلمت عليه فأشار الىّ. ذكره مسلم فى صحيحه. وفى السنن والمسند من حديث ابن عمر أنه كان يشير بيده. وقال عبد الله بن مسعود: لما قدمت من الحبشة أتيت النبى (صلى الله عليه وسلم) وهو يصلى فسلمت عليه فأومأ برأسه : ذكره البيهقى.

وكان يصلي وعائشة معترضة بينه وبين القبلة، فاذا سجد غمزها بيده فقبضت رجلها وإذا قام بسطتها .

وكان يصلي على المنبر ويركع عليه، فاذا جاءت السجدة نزل القهقرى فسجد على الارض ثم صعد .

وكان يصلي الى جدار فجاءه بهيمة تمر من بين يديه فما زال يدارىها ويدافعها حتى لصق بطنه بالجدار ومرت من ورائه .

وروى الامام أحمد وغيره أنه رأى جاريتين تقتتلان فأخذهما بيده ونزع إحداهما من الأخرى وهو فى الصلاة ولم ينصرف .

وكان يبكي فى صلاته ويتنحنح ، قال على بن أبى طالب : كان لى من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ساعة آتيه فيها فاذا أتيته استأذنت، فان وجدته يصلى تنحنح دخلت، وإن وجدته فارغاً أذن لى؛ ذكره أحمد والنسائى.

وكان يصلي حافياً تارة ومنتعلاً أخرى. وأمر بالصلاة بالنعل مخالفة لليهود [1] . وكان يقنت عند النوازل خاصة الدعاء لقوم وللدعاء على آخرين.

---

(١) طالما تكلم الفقهاء فى مبطلات الصلاة وعدوا قصد النحنحة والاشارة من المبطلات ، فماذا يقولون فى أفعال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التى مشى فيها وفتح الباب وتنحنح وأشار ليرد السلام وحمل الأولاد وصلى بهم إلى غير هذا مما ذكر ؟ أليس هذا هو الذى يصح أن يكون دين الفطرة الذى لاحرج فيه؟!

، ،، بعض الناس ينكر على من يصلون بالنعل وهذا من الجهل بالدين وقد ترك اسماء الرسميون كثيراً من السنن فاذا جاء من يحييه قالوا جاء بدين جديد!! والناس إذا لم يألفوا شيئاً من الدين كان فعله بدعة فى نظرهم ؛ وما الصلاة بالنعل بدعة . وقد فعلها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأمر بها كما فى البخارى وغيره من كتب السنة حتى قال أهل التفسير المأثور فى قوله تعالى: (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) إن من الزينة لبس النعل فى الصلاة؛ ولا يمنع من الصلاة بالنعل تعرضه للنجاسة فانه يطهر بالمسح فى الأرض . قال رسول الله صلى الله عليه

فاذا زال العارض ترك القنوت. ذكره البخارى ومسلم. وفيه أنه كان يقنت فى الفجر والمغرب. وذكر الامام أحمد عن ابن عباس: قنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) شهراً متتابعاً فى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح فى دبر كل صلاة إذا قال سمع الله لمن حمده من الركعة الأخيرة يدعو على حى من بنى سليم ويؤمن من خلفه. وقد ذكره أبو داود وغيره أيضاً، هذا الذى صح فى قنوته المقيد بالعوارض والطوارىء، وأما ما ورد من القنوت الدائم فانما المقصود منه الدعاء والثناء الذى يذكر فى الوقوف لتطويله بعد الرفع من كل ركوع.

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى سجود السهو ﴾

ثبت عنه: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فاذا نسيت فذكرونى».

وقد سها مراراً: فسجد سجدتين فى بعضها قبل السلام: وفى بعضها الآخر بعد السلام، ففى الصحيحين من حديث عبد الله بن بحينة أنه (صلى الله عليه وسلم) قام من اثنتين من الظهر ولم يجلس بينهما. فلما قضى صلاته سجد سجدتين ثم سلم، وفى رواية متفق عليها: يكبر فى كل سجدة وهو جالس قبل أن يسلم.

وسلم من ركعتين فى إحدى صلاتى العشى — الظهر أو العصر — ثم تكلم ثم أتمها، ثم سجد سجدتين بعد السلام.

وصلى يوماً فسلم وانصرف وقد بقى من الصلاة ركعة فأدركه

وسلم: «إذا جاء أحدكم إلى المسجد فليقلب نعليه وينظر فيهما، فمن رأى خبثاً فليمسحه بالأرض ثم ليصل فيهما» رواه أحمد وأبو داود. وفى رواية: «إذا وطىء أحدكم بنعله الأذى فان التراب له طهور» رواه أبو داود

طلحة فرجع فدخل المسجد وأمر بلالاً فأقام فصلى بالناس ـ ذكره الامام أحمد ـ وصلى الظهر خمساً فقيل له ؟ فسجد سجدتين بعد ماسلم . متفق عليه.

وصلى العصر ثلاثا ثم دخل منزله فذكره الناس فخرج فصلى بهم ركعة ثم سلم ،ثم سجد سجدتين ثم سلم . هذا مجموع ماحفظ عنه صلى الله عليه وسلم من سهوه فى الصلاة وهو خمسة مواضع

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم بعد تمام الصلاة ﴾

كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً وقال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام . ولم يمكث مستقبلاً القبلة إلا بمقدار مايقول ذلك ،بل يسرع الانتقال الى المأمومين . قال ابن مسعود : رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كثيراً ينصرف عن يساره ، خرجه الصحيحان . وقال أنس : عن يمينه ، خرجه مسلم . وقال عبد الله بن عمر: رأيته ينفتل عن يمينه ويساره فى الصلاة . ثم كان يقبل على المأمومين بوجهه ولا يخص ناحية منهم دون ناحية .

وكان يقول دبر كل مكتوبة : لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . وذكر ابن حبان فى صحيحه أنه [illegible] أبو حاتم فى صحيحه أن النبى (صلى الله عليه وسلم) كان يقول عند انصرافه من صلاته : أللهم أصلح لى دينى الذى جعلته عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى جعلت فيها معاشى ، أللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ،وأعوذ بعفوك من نقمتك ،وأعوذ بك منك ،لامانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

وأوصى معاذاً أن يقول فى دبر كل صلاة : أللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك . ودبر الصلاة يحتمل أن يكون قبل السلام وبعده؛ ولكن شيخ الاسلام ابن تيمية يرجح قبل السلام ويقول : دبر كل شيء منه كدبر الحيوان .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى اتخاذ السترة فى الصلاة ﴾

كان إذا صلى إلى جدار لم يتباعد منه ؛ وكان إذا صلى إلى عود أو عمود أوشجرة جعله على حاجبه الأيمن أو الأيسر؛ وكان يركز الحربة فى السفر والبرية فيصلى إليها فتكون سترته .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى السنن والرواتب ﴾

كان يحافظ على عشر ركعات فى الحضر دائماً ؛ كما قال ابن عمر حفظت من النبي (صلى الله عليه وسلم) عشر ركعات : ركعتين قبل الظهر؛ وركعتين بعدها؛ وركعتين بعد المغرب فى بيته؛ وركعتين بعد العشاء فى بيته؛ وركعتين قبل صلاة الصبح . روى فى الصحيح . وعن حفصة وابن عمر كان يصلى بعد الجمعة فى بيته — خرجه الصحيحان . وكان هديه فعل السنن والتطوع فى البيت إلا لعارض ؛ كما أن فعل الفرائض فى المسجد إلا لعارض ؛ ويؤيد ذلك قوله (صلى الله عليه وسلم) : « أصا [illegible] فى بيوتكم فان أفضل صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة

وكان تعاهده لسنة الفجر والوتر أشد حتى إنه لم ينقل عنه صلاة راتبة فى السفر غيرهما . وقال ابن تيمية سنة الفجر تجرى مجرى بداية العمل والوتر خاتمته ؛ ولذلك كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يصليهما بسورتى

الاخلاص، وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل، وتوحيد المعرفة والارادة، وتوحيد الاعتقاد والقصد.

فسورة الاخلاص متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافيه لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه. والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذى لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه ونفى الولد والوالد الذى هو من لوازم الصمدية، وغناه، وأحديته، ونفى الكفء المتضمن لنفى التشبيه والتمثيل والتنظير. وهذه الأصول هى مجامع التوحيد العلمى الاعتقادى الذى يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك؛ فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال ونفى كل نقصان عنه وخلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمى كما خلصت سورة (قل يا أيها الكافرون) من الشرك العملى الارادى القصدى.

ولما كان الشرك العملى الارادى أغلب على النفوس لأجل متابعتها هواها؛ وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه لما لها فيه من نيل الاغراض؛ وإزالته وقلعه منها أصعب وأشد من قلع الشرك العلمى وإزالته لأن هذا يزول بالعلم والحجة ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشىء على غير [illegible] لك الارادة والقصد فان صاحبه يرتكب ما يدله العلم على بطلانه وضرره لأجل غلبة هواه واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه — جاء من التأكيد والتكرار فى سورة (قل يا أيها الكافرون) المتضمنة لازالة الشرك العملى مالم يجىء مثله فى سورة (قل هو الله أحد)

ولهذا كان يقرأ بهاتين السورتين فى ركعتى الطواف؛ ولأنهما سورتا

الاخلاص والتوحيد كان يفتح بهما عمل النهار ويختمه بهما ويقرأ بهما فى الحج الذى هو شعار التوحيد .

وروى مالك عن عائشة أنه كان يصلى من الليل إحدى عشرة ركعة يوتر منها بواحدة، فاذا فرغ منها اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن فيصلى ركعتين خفيفتين. وكانت عائشة تقول: لم يكن يضطجع لسنة ولكنه كان يدأب ليلته فيستريح . وذكر أن فى اضطجاعه على الشق الأيمن سراً وهو أن القلب معلق فى الجانب الأيسر؛ فاذا نام عليه استثقل نومه وهو ظاهر فى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يريد من ضجعته الراحة ومقاومة النوم حتى لا يمنعه عن صلاة الفجر.

وفى الصحيحين عن القاسم بن محمد قال سمعت عائشة تقول : كانت صلاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الليل عشر ركعات ويوتر بسجدة ويركع ركعتى الفجر .

وكان (صلى الله عليه وسلم) يسر بالقراءة فى صلاة الليل تارة، ويجهر بها تارة، ويطيل القيام إذا قام تارة، ويخففه تارة. وكان أكثر وتره آخر الليل؛ وتارة كان يوتر وسطه أو أوله .

وكان يصلى التطوع بالليل والنهار على راحلته فى السفر قبل أى جهة توجهت به فيركع ويسجد عليها إيماء، ويجعل سجوده أخفض من ركوعه. وقد ذكر أحمد وأبو داود أنه كان يستقبل القبلة فيكبر للصلاة ثم يخلى عن راحلته ثم يصلى أينما توجهت .

وكان (صلى الله عليه وسلم) إذا قدم من سفره يصلى ركعتين ـ وهذه الصلاة هى التى سموها (الضحى) إذ رأوه يصليها ضحى حينما رجع من

مغيبه ويوم الفتح — ولم يكن من هديه (صلى الله عليه وسلم) صلاة راتبة مخصوصة لهذا الوقت كما بينته عائشة فى الصحيح وفهم من مجموع الأحاديث المرفوعة وآثار الصحابة.

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى سجود الشكر والقرآن ﴾

كان يسجد عند تجدد نعمة تسره، أو اندفاع نقمة تحزنه، كما فى المسند عن أبى بكرة. وذكر ابن ماجة عن أنس أنه (صلى الله عليه وسلم) بشر بحاجة فخر لله ساجداً.

وكان إذا مر بسجدة فى القرآن كبر وسجد [1] وربما قال فى سجوده: سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره بحوله وقوته. ذكره أهل السنن؛ ولم ينقل عنه أنه كبر للرفع من هذا السجود، كما لم ينقل عنه تشهد ولا سلام.

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى الجمعة ﴾

قدم (صلى الله عليه وسلم) المدينة فى هجرته فأقام بقُباء فى بنى عمرو ابن عوف يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس — أسس مسجدهم؛ ثم خر [illegible] الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى — وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة قبل تأسيس مسجده.

---

(١) ورد أنه لم يكن يسجد عند كل آية فيها سجدة، ومن ذلك ما روى عن زيد بن ثابت قال: قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (والنجم) فلم يسجد فيها أخرجه الخمسة، وكذلك نقل عن الصحابة أنهم كانوا يسجدون أحياناً ويتركون أحياناً؛ كما نقل عن عمر فى سجدة النحل ونقله البخارى ومالك.

ذكره ابن إسحاق وقال : أول خطبة خطبها أنه حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ؛ ثم قال : « أما بعد أيها الناس قدموا لأنفسكم والله ليُصعَقن أحدكم ثم ليدَعَن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه،ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولى فبلغك، وآتيتك مالا وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك؟! فلينظرن يميناً وشمالا فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم . فمن استطاع أن يتقى بوجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فانها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وكان من هديه تعظيم هذا اليوم وتشريفه[1] . ويقرأ فى فجره سورة الٓمٓ تنزيل — السجدة — وهل أتى على الانسان — لتذكير بما تضمنتاه مما كان ويكون فى يوم الجمعة كخلق آدم ،وذكر المعاد ، وغيره ،لا للقصد إلى السجدة التى اكتفى بقراءتها كثير من المصلين .

---

(١) لأنه عيد الأسبوع يجتمع الناس فيه من كل الطبقات للصلاة وسماع الوعظ وإدراك معنى الحياة فى الاجتماع — والاجتماع فى هذا اليوم شبيه بمؤتمر لأهل البلد ينظرون فيه مايحتاجون إليه من شؤونهم الاجتماعية فى الأسبوع . مافات منها وما يأتى — بعد ما يقفون بين يدى الله تعالى يخلصون له ويستعينون به ، ويلى هذا اليوم فى الاجتماع يوم العيد،ثم يوم الحج الأكبر يجتمع فيه المسلمون من جميع البلاد ليتعارفوا ويتآمروا على مصالح أمتهم وشؤون بلادهم . فهذه [illegible] التى شرعها الله تعالى ليربى بها عباده المؤمنين على أن يكونوا محسنين [illegible] . وهذا التعظيم الذى يعظمه ليوم الجمعة — ومثله ليوم العيد والحج — [illegible] يكن لذات اليوم وإنما لما فيه من الاجتماع الذى يوحد بين أفراد الأمة . وما فيه من الخطب والمحاضرات التى توقظهم وتنبههم إلى ما يجب عمله لتعزيز الأمة وسعادة البلاد . هذا وفى يوم الجمعة نزل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) .

وروى الامام أحمد وغيره: « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب، إن كان له، ولبس من أحسن ثيابه ثم خرج وعليه السكينة حتى يأتى المسجد، ثم يركع إن بدا له ولم يؤذ أحداً ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلى كانت كفارة لما بينهما » وفى السنن: « ماعلى أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبى مهنته ؟ »[1].

وكان (صلى الله عليه وسلم) يمهل يوم الجمعة حتى تجتمع الناس فيخرج وحده من غير شاويش يصيح بين يديه ولا لبس طيلسان ولا طارحة، فاذا دخل المسجد سلم عليهم فصعد المنبر فاستقبل الناس وسلم، ثم جلس. وعندئذ يأخذ بلال فى الأذان — ولم يكن الأذان إلا واحداً — فاذا فرغ منه قام النبى (صلى الله عليه وسلم) فخطب من غير فصل بين الأذان والخطبة ولم يقم أحد يركع ركعتين البتة. وهذا يدل على أن الجمعة كالعيد لا سنة لها قبلها؛ ومن ظن أنهم كانوا إذا فرغ بلال من الأذان قاموا كلهم فركعوا

---

(١) نرى ناسا يحضرون الجماعة بثيابهم التى يبيعون فيها الفسيخ والزيت وغير هذا من الحالات المنفرة بمنظرها وريحها؛ فالمؤمن لا يقبل أن يكون قذراً بل يحب أن يرى غيره حسن الهيئة نظيف الثياب طيب الرائحة، والمؤمن يحب أن يرى الناس منه ما يحب أن يراه منهم، والغرض من الاجتماع تأليف الناس ولا يمكن أن يألف نظيف وسخاً! وكم هجر ذوو النظافة أمكنة الصلاة [illegible] الوساخة والقذر. وثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم منع بعض [illegible] من الاجتماع لما شم من فمه الرائحة الكريهة — رائحة الثوم أو البصل — وقال: (من يأكل من هذا فلا يؤذينا برائحته ليقعد فى بيته) ومثل الثوم والبصل فى تغيير الفم — البخر — رائحة خبيثة توجد عند بعض الناس ويجتمع مع المصلين ولا يهتم بازالة هذه الرائحة — ومن يذق لذة الايمان يسعى دائما فى أن يكون طيباً فى كل شىء حتى يرغب فيه كل من يراه ولا ينفر منه أحد. ومن هذا كله تفهم الحكمة فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالسواك وتشديده فى العناية بتنظيف الفم وغيره من البدن وغيره من كل ما يحيط بالمرء: أنظر هديه فى النظافة.

ركعتين فهو أجهل الناس بالسنة.

وما يظنه الجهال أنه كان يعتمد على السيف وأن ذلك إشارة إلى أن الدين قام بالسيف فمن فرط جهلهم! فانه لا يحفظ عنه بعد اتخاذ المنبر أنه كان يرقاه بسيف ولا قوس ولا غيره ، ولا قبل اتخاذه أنه أخذ بيده سيفاً البتة ؛ وإنما كان يعتمد على عصاً أو قوس.

وكانت خطبته تدور على ما يحتاج الناس ، وكان يأمر وينهى إذا عرض له أمر أو نهى؛ كما أمر الداخل وهو يخطب أن يصلي ركعتين، ونهى المتخطى رقاب الناس أن يتخطى وأمره بالجلوس.

وكان يقطع خطبته للحاجة تعرض أو السؤال لأحد من أصحابه فيجيبه، ثم يعود إلى خطبته فيتمها . وكان يدعو الرجل فيقول: تعال اجلس يافلان. صل يافلان.

وكان يشير بالسبابة عند ذكر الله ودعائه ، وكان يأمر الناس بالدنو منه ويأمرهم بالانصات ويخبرهم أن الرجل إذا قال لصاحبه أنصت فقد لغا! ويقول: « من لغا فلا جمعة له ».

ويقول: « من تكلم يوم الجمعة والامام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا ، والذي يقول له أنصت ليس له جمعة» . رواه الامام أحمد

وكان يخطب في الأول قائماً ثم يجلس جلسة خفيفة، ثم يقوم فيخطب الثانية، فاذا فرغ منها أخذ بلال في الاقامة. وكان يطيل الصلاة ولا يصلي بعدها حتى ينصرف فيصلي ركعتين؛ كما ثبت عن ابن عمر : كان (صلى الله عليه وسلم) يصلي بعد الجمعة ركعتين في بيته . خرجه الصحيحان [1] .

---

(١) في المساجد بعد صلاة الجمعة يقيمون صلاة الظهر بالجماعة! وهذا حدث

﴿ هدية صلى الله عليه وسلم فى العيدين ﴾

كان يصلى العيدين فى المصلى التى على باب المدينة الشرقى ، فيلبس للخروج إليهما أجمل ثيابه ، وصح الحديث فى اغتساله .

وكان يأكل قبل خروجه فى عيد الفطر تمرات وِتراً ، وأما فى عيد الأضحى فكان لايطعم حتى يرجع فيأكل من أضحيته .

وكان يعجل صلاة الأضحى ويؤخر صلاة الفطر ، وكان إذا انتهى إلى المصلى أخذ فى الصلاة من غير أذان ولا إقامة ولا قول: الصلاة جامعة ولا غير ذلك ، فيصلى ركعتين : يكبر فى الأولى سبع تكبيرات متوالية بتكبيرة الافتتاح ، يسكت بين كل تكبيرتين سكتة يسيرة ، ولم يحفظ عنه ذكر معين بين التكبيرات . ولكن ذكر عن ابن مسعود أنه كان يحمد الله ويثنى عليه ويصلى على النبى (صلى الله عليه وسلم) وكان إذا تم التكبير أخذ يقرأ الفاتحة ق والقرآن المجيد، وربما قرأ سبح اسم ربك الأعلى، ثم يكبر ويركع. فاذا فرغ من السجود قام فكبر خمساً متوالية، ثم قرأ الفاتحة فاقتربت الساعة وانشق القمر ، وربما قرأ هل أتاك حديث الغاشية ، ولم يصح عنه أنه قرأ بعد الفاتحة غير هذا ؛ ولم يثبت أنه قرأ قبل التكبير بل إن التكبير كان أول ما يبدأ به فى الركعتين . وقد روى الترمذى من حديث كثير بن عبد الله أنه (صلى الله عليه وسلم) كبر فى العيدين فى الأولى سبعاً قبل القراءة وفى

لم يكن له أصل فى السنة ، ولم يفرض الله ظهراً وجمعة فى يوم واحد ، ولكن ماذا نصنع وقد أصبحت البدع والعادات فى المساجد وغيرها ديناً بسبب كثرة المقلدين بغير فهم وعدم قدرة العلماء على تنفيذ ما يعلمون .

الثانية خمساً قبل القراءة وقال : سألت محمداً — يعنى البخارى — عن هذا الحديث فقال : ليس فى الباب أصح من هذا ؛ وبه أقول.

وكان إذا أكمل الصلاة انصرف فوقف مقابل الناس وهم جلوس على صفوفهم فيعظهم ويوصيهم.

قال جابر : شهدت مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الصلاة يوم العيد فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بلا أذان ولا إقامة ؛ ثم قام متوكئاً على بلال فأمر بتقوى الله وحث على طاعته ووعظ الناس وذكرهم ثم مضى حتى أتى النساء فوعظهن وذكرهن ؛ متفق عليه.

وكان يكثر التكبير فى خطبتى العيدين كما روى ابن ماجه فى سننه عن سعد مؤذنه (صلى الله عليه وسلم) وهذا لا يدل على أنه كان يفتتحها به ، وكان يفتتح كل خطبة بالحمد لله وقال : «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم».

ورخص لمن شهد العيد أن يجلس للخطبة وأن يذهب . ورخص لهم إذا وقع العيد يوم الجمعة أن يكتفوا بصلاة العيد عن حضور الجمعة ؛ ولم يكن من هديه صلاة شىء قبل العيد ولا بعده.

وكان يذهب إلى المصلى فى طريق ، ويرجع فى أخرى ليسلم على أهل الطريقين ويقضى حاجة من له حاجة منها ويظهر شعا[illegible] [illegible] البقاع ، وغير ذلك من الحكم.

وكان يكبر فى الأضحى من صلاة الفجر يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق : الله أكبر الله أكبر لا إله الا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد[1]

---

(١) كان سلفنا الصالحون على هدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) مظهرهم فى

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى صلاة الكسوف ﴾

لما كسفت الشمس خرج مسرعا إلى المسجد فتقدم فصلى ركعتين: قرأ فى الأولى فاتحة الكتاب وسورة طويلة جهراً، ثم ركع فأطال الركوع ثم رفع رأسه فأطال القيام، وقال: سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد، ثم أخذ فى القراءة. وكان هذا القيام دون القيام الأول ثم ركع دون الركوع الأول فى الطول ثم رفع، ثم سجد فأطال السجود. ثم فعل فى الركعة الثانية مثل الأولى فكان فى كل ركعة ركوعان وسجودان. ثم انصرف فخطب بهم خطبة حفظ منها قوله: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فاذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا، ولقد أوحيَ الى أنكم تفتنون فى القبور يؤتى أحدكم فيقال له ما علمك بهذا الرجل فاما المؤمن — أو الموقن — فيقول محمد رسول الله جاء بالبينات والهدى فآمنا واتبعنا، فيقال له نم صالحا فقد علمنا أن كنت لمؤمناً، وأما المنافق — أو المرتاب — فيقول لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته[1]».

العيد التكبير والعبادة والبحث فى أسرار الاجتماع ؛ وعندنا الآن مظهر العيد فى نساء تخرج إلى القبور فتصيح بالويل والثبور وتجعل اليوم يوماً أسود ويذهب الرجال تبعا للنساء ؛ فيظهر أعظم المظاهر فى القبور كالموالد والأسواق. وفى أم المدن المصرية يبيتون ليالى العيد فى الدور التى أعدوها فى القبور للفسق والفجور!! ولا تسل عن ازدحام القهوات ومحلات اللهو بالناس فى تلك الليالى وغيرها من الليالى والأيام! وإن لم نرجع عن هذا الفساد ونتمسك بالدين فقل علينا وعلى بلادنا السلام.

(١) من يتأمل هذا الكلام يجد أن الدين لابد أن يؤخذ بالبرهان الذى يطمئن به القلب وتسكن إليه النفس وأن التقليد فيه اضطراب لايرتاح اليه ضمير ولا تثبت معه قدم ؛ فلعل من هذه الفتن يعتبر المقلدون (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل

والثابت الصحيح أن صلاة الكسوف لم يصلها الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا مرة واحدة ، وكان ذلك يوم ان مات ولده ابراهيم.

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى الاستسقاء ﴾

ثبت عنه أنه استسقى على وجوه : أحدها يوم الجمعة على المنبر أثناء خطبته وقال: « اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم اسقنا اللهم اسقنا » . الثاني أنه وعد الناس الخروج إلى المصلى فأخذ يخطب بالتضرع والابتهال رافعاً يديه ثم صلى بهم ركعتين كصلاة العيد من غير أذان ولا أقامة ولا غيرهما جهر فيهما بالقراءة قرأ فى الاولى الفاتحة ، وسبح اسم ربك الأعلى . وفى الثانية هل أتاك حديث الغاشية . الثالث أنه استسقى على منبر المدينة استسقاء مجرداً فى غير يوم جمعة ولم يحفظ عنه (صلى الله عليه وسلم) فى هذا الاستسقاء صلاة . الرابع استسقى وهو جالس فى المسجد فرفع يديه ودعا الله عز وجل[1] .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى السفر ﴾

كان سفره دائراً بين أربعة : الهجرة والجهاد — وهو الكثير — والعمرة والحج .

الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون).

(١) أصل الاستسقاء فى القرآن فى سورة هود (وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) وفى سورة نوح (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) .

كان اذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها سافرت معه. ولما حج سافر بهن جميعاً. وكان يخرج أول النهار يدعو الله أن يبارك لأمته فى بكورها. وأمر المسافرين أن يؤمروا أحدهم، ونهى أن يسافر الرجل وحده.

وكان يقول حين ينهض للسفر: « اللهم إليك توجهت وبك اعتصمت؛ اللهم اكفنى ما أهمنى ومالا أهتم به؛ اللهم زودنى التقوى واغفر لى ذنبي ووجهنى للخير أينما توجهت ».

وكان إذا قدمت إليه دابته ليركبها يقول حين يضع رجله فى الركاب: بسم الله، وإذا استوى على ظهرها: الحمد لله الذى [1] سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا الى ربنا لمنقلبون.

وكان يقول: « اللهم هون علينا سفرنا واطوِ عنّا بُعده. اللهم أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل ».

وكان (صلى الله عليه وسلم) يقصر الرباعية فيصليها ركعتين من حين يخرج مسافراً الى أن يرجع؛ ولم يثبت أنه أتم الرباعية البتة فى سفره. ففى صحيح البخارى عن ابن عمر: صحبت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكان فى السفر لا يزيد على ركعتين؛ وأما ما روى عن عائشة من مخالفة ذلك فقال فيه شيخ الاسلام ابن تيميه إنه باطل وما كانت أم المؤمنين لتخالف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجميع أصحابه فتصلى خلاف صلاتهم؛ كيف والصحيح عنها: إن الله فرض الصلاة ركعتين ركعتين. فلما هاجر

---

(١) فى القرآن (سبحان الذى) قال تعالى (وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون).

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة زيد فى صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر ـ الحديث متفق عليه .

قال ابن عباس : فرض الله الصلاة على لسان نبيكم فى الحضر أربعاً وفى السفر ركعتين وفى الخوف ركعة . أخرجه مسلم ، وقال عمر بن الخطاب : صلاة السفر ركعتان و الجمعة ركعتان والعيد ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد (صلى الله عليه وسلم) وقد خاب من افترى . وعمر هذا هو الذى سأل النبى (صلى الله عليه وسلم) مابالنا نقصر وقد أمنا ، ولما أجابه بأن هذه صدقة الله عليكم ودينه اليسر فاقبلوا صدقته علم عمر أن المراد من القصر — فى قوله تعالى (وإذا ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) ليس قصر العدد وأن المفهوم غير مراد[1] .

وكان اذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس وجدّ به السير أخر الظهر الى

---

(١) إذ ثبت أن الصلاة أول مافرضت ركعتين وبقيت كذلك فى السفر المطلق فان الآية بينت أن السفر الذى يصحبه خوف ، يجوز فيه قصر هاتين الركعتين ، وقصرهما يكون بقصر الأركان كما فهم عمر فتصير خفيفة غير مطولة، أو بقصر العدد فتصير ركعة واحدة كما بان من قول ابن عباس السابق وفعل النبى (صلى الله عليه وسلم) فى الصفة الواردة فى حديث حذيفة . وقد خرجه مسلم: أو بقصر الركن والعدد معاً وبذلك يكون منتهى التيسير من الشارع الذى شدد فى المحافظة على الصلوات حتى فى الحرب وقال: « فان خفتم فرجالا أو ركبانا » وذلك لأن الصلاة صلة بين العباد وبين الله تذكرهم به وهم أحوج إلى ذكره عند الفتنة والحرب ليؤيدهم ويثبتهم.ولعل فى هذا عبرة للذين يتركون الصلاة اعتماداً على أن عندهم أشغالا وهم يجهلون أن اشغالهم لا تتقن ولا يبتون فيها إلا بتأيير الصلاة، وهل هناك شغل أعظم من الحرب والدفاع عن الامة والقائمون بهذا لا يسمح لهم أن يتركوا الصلاة بل يصلون بقدر مايستطيعون،

وقت العصر ثم نزل فجمع بينهما؛ فان زالت الشمس قبل أن يرتحل صلى الظهر ثم ركب . وقد روى عنه فى غزوة تبوك أنه إذا زالت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين الظهر والعصر ، وان ارتحل قبل أن تزيغ أخر الظهر حتى ينزل للعصر فيصليهما . وكذلك فى المغرب والعشاء ، وقد روى ذلك الحاكم وغيره وقاله ابن عباس وخرج فى السنن .

ولم يحدّ لأمته مسافة محدودة للقصر ولا للفطر؛ بل أطلق لهم ذلك كما أطلق التيمم فى كل سفر. وما يروى عنه فى ذلك من التحديد لم يصح منه شيء البتة .

وأما جمعه وهو نازل غير مسافر فلم ينقل عنه إلا بعرفة فانه جمع بين الظهر والعصر جمع تقديم ، وذلك لاتصال الوقوف فى الدعاء. كما قاله الامام الشافعى وابن تيمية .

﴿ هديه (صلى الله عليه وسلم) فى قراءة القرآن واستماعه ﴾

كان له حزب يقرؤه ولا يخل به؛ وكانت قراءته بالترتيل ؛ وكان يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم قبل أن يقرأ ، ويقرأ قائماً ، وقاعداً ، ومضطجعاً ، ومحدثاً ، ولم يمنعه من القراءة إلا الجنابة .

وكان يتغنى ويرجع صوته أحياناً ويقول : « زينوا القرآن بأصواتكم »

ويوجد أناس يتركون الصلاة اعتماداً على الحيلة التى تعمل لهم بعد موتهم لاسقاط الصلاة ، وهذا من الجهل بالدين وعدم العلم بأن النفوس التى لا تتزكى فى الدنيا بالصلاة والعمل الصالح لا يمكن أن ترقى عند الله فى الآخرة (وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) .

ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن ؛ ماأذِن الله لشيء كأذَنه [١] لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن» .

وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره فقد أمر عبدالله بن مسعود فقرأ عليه فخشع حتى ذرفت عيناه .

واستمع ليلة لأبي موسى الأشعرى ،فلما أخبره بذلك قال: «لو كنت أعلم أنك تسمعه لحبرته لك تحبيراً » [٢] .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى عيادة المريض ﴾

كان يعود من مرض من أصحابه ، وعاد غلاماً يهودياً كان يخدمه ، وعاد عمه وهو مشرك وعرض عليهما الاسلام فأسلم اليهودى .

وكان يدنو من المريض ويجلس عند رأسه ويسأله عن حاله ويدعو له ، وذكر أنه كان يسأله عما يشتهى فان علم أنه لايضره أمر له به .

وكان إذا دخل على المريض يقول : «لا بأس . طهور إن شاء الله».

ولم يكن من هديه تخصيص يوم للعيادة ولا وقت من ليل أو نهار

---

(١) أى ماسمع الله لشيء كسمعه .

(٢) المقصود من قراءة القرآن العظيم واستماعه إنما هو التأثر به حتى يكون له السلطان على الارادات والتصرف فى النفوس . ولما كان هذا لا يكون إلا بفهمه وتدبره كان من هدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ترتيله وتحسين الصوت به ، وقد عرف من الفطرة أن القراءة إذا كانت سلسة الحروف مرتبة الوقوف موقعا فيها على كل آية بما يناسبها من حركات الصوت من استفهام أو خبر أو تبشير أو تحذير ، تحدث طربا يجعله أعظم تأثيراً فى النفس . هذا هو المراد بالتغنى فى الحديث لا ما يفعله قراء زماننا الذين لم تتجاوز آيات القرآن حناجرهم ولم تطرق معانيه قلوبهم وإنما يأتون بحركات ونغمات يتصنعونها إرضاء لمن يؤجرونهم إحياء للأندية الفكاهية واتباعا لعادة الأفراح والمآتم.

وكان إذا يئس من المريض قال : إنا لله وإنا اليه راجعون [1] .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى الجنائز ﴾

كان أول تعاهده للميت فى مرضه يذكره الآخرة ويأمره بالوصية والتوبة ويأمر من حضره بتلقينه شهادة أن لا اله إلا الله لتكون آخر كلامه. ثم ينهى عن عادة الأمم التى لا تؤمن بالبعث من لطم الخدود ، وشق الثياب ، ورفع الصوت بالنياحة ، وتوابع ذلك .

وسن الخشوع للميت والبكاء الذى لا صوت معه وحزن القلب .

وكان يفعل ذلك ويقول : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب» ، وسن لأمته الحمد والاسترجاع والرضى عن الله .

وكان من هديه تغميض عينى الميت وتغطية وجهه وبدنه — وربما

---

(١) عيادة المريض مقيدة بمن كان مرضه لا يعدى أو كان معديا واتخذت الاحتياطات الواقية من انتقال جراثيم المرض إلى العائد ، فقد ثبت فى علم الطب أن الجراثيم إذا انتقلت إلى العائد وكان جسمه غير قادر على مقاومتها أهلكته، فاذا قوى على الدفاع سكنت فيه حتى يلتقطها غيره منه وهناك تعمل عملها والله يعلم ماذا يكون من أمرها .

ومن ينظر فى الشريعة يجدها مطابقة لسنن الله وقدره ،أنظر هدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى اتقاء الأمراض المعدية واقرأ ما هناك من الآثار ثم ارجع إلى عمل أصحابه تجد عمر بن الخطاب رجع عن دخول أرض الشام حينما سمع بالطاعون فيها ، ولما قال له بعض أصحابه :أترجع فراراً من قدر الله ياعمر؟!قال : فراراً من قدر الله إلى قدر الله ، وأيده عبدالرحمن بن عوف بما رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم : «إذا سمعتم بالطاعون فى أرض فلا تدخلوا عليه،وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه» — الحديث فى الصحيحين وهو يعد أصلا وأساساً للحجر الصحى العام

يقبله — والاسراع بتجهيزه إلى الله فيطهره ويطيبه ، ويكفنه فى الثياب البيض ، ثم يصلى عليه.

ولم يكن من هديه تغسيل قتيل المعركة . وذكر الامام أحمد أنه نهى عن تغسيلهم. وكان ينزع عنهم الجلود والحديد، ويدفنهم فى ثيابهم، ولم يصل عليهم.

وكان إذا مات المحرم أمر أن يغسل بماء وسدر، ويكفن فى ثوبيه، وهما: ثوبا إحرامه : إزاره ورداؤه ، وينهى عن تطييبه وتغطية رأسه .

ونهى عن المغالاة فى الكفن . وكان اذا قصر الكفن عن ستر جميع البدن غطى الرأس وجعل على الرجلين من العشب [1] .

وكان يصلى على الميت خارج المسجد إلا لعذر ؛ وكان إذا قدم اليه ميت يصلى عليه سأل : هل عليه دين ؟ فان كان عليه دين لم يصل ، وأذن لأصحابه أن يصلوا إذ صلاته شفاعة موجبة والعبد مرتهن بدينه لا يدخل الجنة حتى يقضى عنه . ولما فتح الله عليه كان يصلى على المدين ويتحمل دينه ويدع ماله لورثته .

وكان إذا أخذ فى الصلاة عليه كبر وحمد الله وأثنى عليه ودعا للميت. وكانت تكبيراته أربعا . وصح عند مسلم أنه كبر خمساً . وروى فوق ذلك: فمنه ماذكره سعيد بن منصور عن ابن عيينة : كانوا يكبرون على أهل بدر خمساً، وستاً، وسبعاً. وكل هذه الآثار صحيحة فلا موجب للمنع من الزيادة

---

(١) يوجد ناس يكفنون ميتهم فى الحرير وعندهم أقاربهم الأحياء محتاجون إلى ثوب من القطن أو الكتان فلا يجدون ، وهؤلاء يريدون الفخر عند الناس فيما يبلى. ولا يريدون الأجر عند الله فيما يبقى ! !

عن الأربع وقد فعلها النبي (صلى الله عليه وسلم) والصحابة من بعده.

وصلى ابن عباس على جنازة فقرأ بعد التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب جهراً وقال : لتعلموا أنها سنة ؛ وكذلك قال أبو امامة بن سهل وذكر جماعة من الصحابة الصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم) في الصلاة على الجنازة.

والمقصود من الصلاة على الجنازة هو الدعاء للميت؛ وكذلك حفظ ونقل عنه مالم ينقل من قراءة الفاتحة والصلاة عليه (صلى الله عليه وسلم) فحفظ من دعائه : « اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار ». ومنه : «اللهم من أحييته منا فأحيه على الاسلام والسنة ؛ ومن توفيته منا فتوفه على الايمان ، اللهم لاتحرمنا أجره ولا تفتنا بعده . وحفظ من دعائه : اللهم أنت ربها وأنت خلقتها وأنت هديتها للاسلام وأنت قبضت روحها وتعلم سرها وعلانيتها جئنا شفعاء فاغفر لها» .

وكان يأمر باخلاص الدعاء للميت .

وكان من هديه إذا فاتته الصلاة على الجنازة صلى على القبر؛ ولم يوقت في ذلك فصلى مرة بعد ليلة وأخرى بعد ثلاث وثالثة بعد شهر .

وكان يقوم عند رأس الرجل ووسط المرأة .

وكان يصلي على الطفل ويقول : «صلوا على أطفالكم فانهم من افراطكم» ، كما في سنن ابن ماجه .

وكان لا يصلي على من قتل نفسه ولا على من غل في الغنيمة .

وكان إذا صلى على ميت تبعه إلى المقابر ماشياً أمامه ، وسن لمن تبعها

إن كان راكباً أن يكون وراءها وإن كان ماشياً أن يكون قريباً منها فى الخلف أو الامام أو اليمين أو اليسار .

وكان يأمر بالاسراع بها ، وأما دبيب الناس اليوم خطوة خطوة فبدعة ، وكان أبو بكرة يرفع السوط على من يفعل ذلك ويقول لقد رأيتنا ونحن مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نرمُل رَملا [١] .

وكان إذا تبعها لم يجلس حتى توضع على الأرض وأمر بذلك ؛ كما قال أبو داود .

وكان من هديه اللحد وتعميق القبر وتوسيعه وتسويته ؛ ولم يكن من هديه تعلية القبور ولا بناؤها بآجر ولا حجر ولا لبِن ولا غيره .

بل قد بعث على بن أبى طالب ألاَّ يدع تمثالا إلا طمسه ولا قبراً إلاسواه ؛ ونهى أن يجصص القبر وأن يبنى عايه وأن يكتب عليه .

وكان يعلم قبر من يريد تعرف قبره بصخرة .

وكان اذا وضع الميت فى القبر قال : بسم الله وعلى ملة رسول الله ؛ ولا

---

(١) نرى الذين يحملون نعس الميت يقفون فى الطريق ويتأخرون إلى الوراء . فاذا قلنا لهم امشوا واسرعوا حسب السنة يقولون إن الميت ثقل علينا فلا يريد أن يترك الدنيا بل يريد أن يرجع إلى أحبائه . . ويعدون ذلك كرامة للميت . . فما أجهل الناس بالكرامة .

ومن يقتف هذه الآثار التى تمثل آداب الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإكرامه للميت بمسيه بين يديه ساكنا مشغولا بالاتعاظ فلا يسعه إلا أن يتحسر على القوم الذين ضلوا عن هديه فقلبوا السكون تهويشاوصياحا وأبدلوا الاتعاظ سخرية والتكريم تعذيباً وفضيحة. بوارق ورايات تمثل الصليب على الخشبة ونساء تولول من خلفها وأطفال تصيح بالأغانى من حولها ومشايخ قطعوا أنفسهم لبردة البوصيرى ينشدونها فى الامام بأصوات منكرة وطرق فظيعة إلى غير ذلك مما تنكره الشريعة ولا يحبه الله ورسوله. وقد ورد أن الله يحب الصمت عند الجنازة والحكمة والتدبر والاعتبار (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

يدفنه عنـد طلوع الشمس ولا غروبها ولا عند الظهيرة . وكان إذا فرغ من دفنه قام هو أصحابه وسألوا له التثبيت، ولم يجلس عنـد القبر لقراءة أو تلقين للميت كما يفعله الناس اليوم . أما ما رواه الطبرانى فى حديث أبى أمامة من الأمر بالتلقين فلا يصح رفعه .

وكان يعزى أهل الميت ولكن لم يجتمع لذلك ولم يجتمع لقراءة قرآن لا عند القبر ولا غيره ! ولم يكن من هديه أن يتكلف أهل الميت الطعام للناس بل أمر أن يصنع الناس لهم طعاماً يرسلونه إليهم.

وكان لا ينعى الميت ، ونهى عن النعى وقال: هو من عمل الجاهلية .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى زيارة القبور ﴾

كان إذا زار قبور أصحابه يزورها للدعاء لهم والترحم عليهم والاتعاظ بهم ، وهذه هى الزيارة التى شرعها لأمته وأمرهم فيها أن يقولوا : السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. نسأل الله لنا ولكم العافية [1] .

وكان من هديه ألا تهان القبور فتوطأ ويجلس أو يتكأ عليها ولا تعظم بحيث تتخذ مساجد يصلى عندها وإليها ؛ وتتخذ أعياداً وأوثانا يجتمع لها ، وتوقد السرج عليها . ونهى عن ذلك كله ولعن فاعله.

---

(١) هذه الزيارة قد عكسها الناس فجعلوا قبور الأموات عبارة عن معابد شيدوا عليها القباب وصنعوا لها الهياكل من الخشب والنحاس والقماش وغيره يطوفون حولها ويطلبون منها ما لا يطلب إلا من الله تعالى!! وهذا كان أصلا من أصول الشرك الناشىء من الجهل عند الأمم السابقة ومشركى العرب وجاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) لهدمه كما جاءت الرسل من قبله ، والله يقول: « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين». ويقول: (ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى الصدقة والزكاة ﴾

جعل الزكاة فى الزرع والثمر وبهيمة الانعام — الابل والبقر والغنم والنقدين — الذهب والفضة ومال التجارة أوجبها مرة فى كل عام إلا فى الزرع والثمر فعند كماله واستوائه [1] وهذا أعدل ما يكون

ولو سمعوا مااستجابوا لـكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) . ويقول : (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟! قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون) . ويقول : (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات إيتونى بكتاب من قبل هذا أو أثاره من علم إن كنتم صادقين . ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) . ويقول : (والذين اتخذوا من دونه أو لياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون). ويقول:(قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا) ؛ ويقول:(أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون).ويقول:(له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) .

هذا قول الله الذى بينه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالعمل . وترى الناس مع هذا لا يزالون يتذللون للموتى ويعكفون على قبور الأولياء حتى إنهم ليفضلون الصلاة داخل أضرحتهم وحول قبورهم عن الصلاة فى المسجد كما ترى فى (القبة) فى مسجد الحسين (رضى الله عنه) وأمثاله يتسابق الناس إليها بكل خشوع ويعتقدون أن الصلاة فيها خير من ألف صلاة . ثم ترى غير ذلك مما يعملون من الاعياد والموالد فيجتمعون لها ويوقدون السرج عليها !! وبالرغم من أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) نهى عن ذلك ولعن فاعله وأنه يعمل بمال المسلمين وتقرره وزارة الأوقاف ويحضره علماء الأزهر وهم بأفعالهم حجة العوام فى كل زمان ، فاللهم وفق العلماء للقيام بالدين والعناية به حتى يكونوا حجة له ولا يكونوا حجة عليه .

(١) قال الله تعالى .(وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزورع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره

الصالح المستحقين وأرباب الأموال فاوت بين مقادير الواجب بحسب سعى

إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين).

وفى هذه الآية دليل على أن الزكاة واجبة فى كل زرع فلا تختص بأصناف دون أصناف. ويؤيد ذلك أيضاً قوله تعالى: (ياأيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد).

وهنا يجب أن نلاحظ أن الله تعالى ينهى عن تعمد إنفاق الخبيث من المال وما يخرج من الارض — فمن الناس من ينتقى الجيد لنفسه من محصول القمح وغيره ثم يقصد إلى الخبيث (الذى لا يؤكل) فيعطيه للمسكين كمن يعمد إلى القرش (المغشوش) الذى لا يصرف ويعطيه للسائل أو المحروم . وهذا ممن قال الله فيهم: (ويجعلون لله ما يكرهون) وقد قال تعالى: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وبعض الناس لا يعطى شيئا وتراه إذا جاء وقت الحصيد للزرع يتستر لئلا يراه محتاج أو يدخل عليه مسكين. وهذا ممن ضرب الله لهم مثلا — أصحاب الجنة (الحديقة أو المزرعة) (إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليه طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون : أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين * وغدوا على حرد قادرين فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون * قال أوسطهم ألم أقل لكم : لولا تسبحون قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون * كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون). فالله تعالى يضرب الأمثال ولا نعتبر وينزل المصائب والآفات على الزرع والمال والبلاد ولا نفكر ولا نعقل ولا نفهم أن المال منه واليه والزكاة من مصلحتنا. وهذا كله من البخل الموروث عن ضعف الايمان وقد تحكم البخل فى الناس إلى درجة أنهم يجاهرون بمنع الزكاة ومنهم من يحتال على إسقاطها ليمتنعوا عن أدائها باسم الدين فيقولون إن أرضنا (خراجية) ولا زكاة عليها فى مذهب الحنفية، ومنهم من يقول إن الزكاة فى الذهب والفضة وما عندنا الآن إلا ورق (بنكنوت)

أرباب الأموال فى تحصيلها فأوجب الخمس فيما صادفه الانسان مجموعاً

وهؤلاء يجدون من يفتيهم بذلك من الذين ينتسبون إلى العلم وهم يجهلون الدين وقد عرضوا أنفسهم لتعطيل شعائر الله وموت الفقراء والقضاء على مصالح الأمة ، فالأرض الخراجية هي التى كان يملكها المسلمون بالفتح فيبقون أهلها الكفار عليها ويأخذون منهم خراجاً بدل العشر الذى يأخذونه من أرض المسلمين ، فهل أرضنا خراجية على هذا المعنى وأهلها كأولئك ؟ أم الغرض اتباع شهواتنا وأهوائنا والله تعالى جعل الزكاة فى كل ما يسمى مالا تقضى به المصالح قال تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وقال : (وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) .

وهل إذا كان المرء يعقل يفرق بين جنيه ذهب وجنيه ورق (بنكنوت) ما دام كل منهما بقيمة الآخر فى قضاء المصالح المطلوبة ؟ وماذا يهمنا إذا كانت العملة ورقاً أو حجراً أو غيره ! وهل شرع الله الزكاة فى الجنيه لأنه ذهب فاذا بدلناه قروشا أو تسقط الزكاة ويتبدل حكم الله (الله الله) أم نقول إنها أمور تعبدية غير معقولة المعنى . والله يقول : (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) — ويقول : (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) .

ويقول : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب) ويقول : (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون) .

هذا ولو كان الاغنياء يؤدون الواجب عليهم من الصدقات والزكاة لوجد الأيتام وأبناء الفقراء الملاجىء التى تأويهم والمستشفيات التى تداويهم والمدارس التى تهذبهم وتعلمهم ، ولوجد العاطلون دور الصناعات يعملون فيها لكانت الأمة عزيزة بهؤلاء جميعاً غنية بما تربحه من ثمرات أعمالهم بدلا من أن يكونوا عالة عليها فتضعف بضعفهم وتشقى بشقائهم فمن لنا بالحكومة التى تنفذ ما نقول فتعلم أن الزكاة — كغيرها من أركان الدين — من أعظم الأسباب التى تنبت الامن فى البلاد وتقدم الأمة فى أمور العمران والاقتصاد .

محصلاً وهو الركاز — مايوجد مدفوناً فى الأرض — ولم يعتبر له حولا. وأوجب النصف من ذلك وهو العشر فيما كانت مشقة تحصيله أكثر كالثمار والزروع التى يباشر حرث أرضها ويتولى الله سقيها بلا كلفة فى آلات تعد أو أبيار تحفر ، وأوجب نصف العشر فيما يتولى الانسان سقيه بتعبه ونفقته على الآلات وغيرها ، وأوجب ربع العشر فيما كان النماء فيه موقوفا على عمل متصل من صاحبه بالضرب فى الأرض تارة وبالادارة تارة وبالتربص تارة ، وقد جعل لكل شىء من ذلك مقداراً لاتجب الزكاة فى أقل منه: فقد نصب فى الذهب عشرين مثقالاً ، وفى الفضة مائتى درهم، وفى الحبوب والثمار خمسة أوسق [١] ، وفى الغنم أربعين شاة، والبقر ثلاثين، وفى الابل خمسة ، والرب سبحانه تولى قسمة الصدقة بنفسه وجزأها ثمانية يجمعها صنفان من الناس: أحدهما من يأخذ لحاجته على حسب شدتها وضعفها وهم الفقراء والمساكين وفى الأقارب وابن السبيل ، والثانى من يأخذ لمنفعة فيه للمسلمين وهم العاملون والمؤلفة قلوبهم، والغارمون لاصلاح ذات البين والغزاة فى سبيل الله .

وكان من هديه (صلى الله عليه وسلم) تفريق الزكاة على المستحقين الذين فى بلد المال وما فضل عنهم منها تحمل إليه فيفرقها ، وكان إذا علم من الرجل أنه من أهل الزكاة أعطاه وإن سأله أحد من أهلها ولم يعلم حاله أعطاه بعد أن يخبره أن لاحظ فيها لغنى ولا لقوى على الكسب [٢] .

---

(١) الوسق: ستون صاعا « أردب مصرى تقريبا »

(٢) فهل يعتبر بهذا الذين يمدحون على الأبواب والذين يقرأون فى الشوارع وعلى المساجد للشحاذة وهم يقدرون على الكسب ويعلمون أنهم لا يستحقون وإن كان أكثر الناس لا يعطون .

وكان إذا جاءه الرجل بالزكاة دعا له فتارة يقول : اللهم بارك فيه وفى إبله وتارة اللهم صلّ عليه .

ولم يكن من هديه أخذ كرائم الأموال فى الزكاة بل الوسط .

وكان ينهى المتصدق أن يشترى صدقته ، وكان يبيح للغنى أن يأكل من الصدقة إذا أهداها إليه الفقير ، وأكل من لحم تصدق به على بريرة وقال : « هو عليها صدقة ولنا منها هدية » وكان أحياناً يستدين لمصالح المسلمين على الصدقة ، وإذا عراه أمر استسلف الصدقة من أربابها كما استسلف من العباس صدقة عامين .

ولم يكن من هديه أن يبعث سعاته إلا إلى أهل الأموال الظاهرة من المواشى والزروع والثمار .

وكان يبعث الخارص يخرص على أرباب النخيل تمر نخيلهم وينظر كم يجئ منه وسقا فيحسب عليهم من الزكاة بقدره ، وكان يأمر الخارص أن يدع لهم الثلث أو الربع فلا يخرصه عليهم لما يعرو النخيل من النوائب ؛ وكان هذا الخرص لكى تحصى الزكاة قبل أن تؤكل الثمار وتصرم وليتصرف فيها أربابها بما شاءوا ويضمنوا قدر الزكاة .

ولذلك كان يبعث الخارص الى من ساقاه من أهل خيبر وزارعه فيخرص عليهم الثمار والزروع ويضمنهم شطرها ؛ وكان يبعث إليهم عبدالله ابن رواحة فاذا أرادوا أن يرشوه قال عبدالله : أتطعمونى السحت . والله لقد جئتكم من عند أحسن الناس إلىّ ، ولأنتم أبغض إلىّ من عِدَتكم من القردة والخنازير ، ولا يحملنى بغضى لكم وحبى إياه أن لا أعدل عليكم . فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض .

﴿ صدقة الفطر ﴾ فرضها على المسلم ومن يمونه صاعا [١] من تمر أو زبيب أو اقط أو شعير . وقد روى الامام احمد وأبو داود صاع البر أو القمح على الاثنين .

وكان من هديه (صلى الله عليه وسلم) إخراج الصدقة قبل صلاة العيد ، وفي السنن عنه : من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات ؛ وفي الصحيحين عن ابن عمر : أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بزكاة الفطر أن تؤدى قبل خروج الناس الى الصلاة.

ومقتضى هذين الحديثين أنه لا يجوز تأخيرها عن صلاة العيد وهو الصواب إذ لا معارض لهما ولا ناسخ ولا إجماع يدفع القول بهما .

ونظير ذلك ترتيب الأضحية على صلاة الامام لا على وقتها ، وأن من ذبح قبل صلاة الامام لم تكن ذبيحته أضحية بل شاة لحم ؛ وكان يخصص المساكين بهذه الصدقة .

﴿ صدقة التطوع ﴾ كان أعظم الناس صدقة بما ملكت يده ؛ ولم يسأله أحد شيئاً عنده إلا أعطاه قل أو كثر ، وكان سروره بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه ، وكان يتنوع في أصناف عطائه: فتارة بالهبة، وتارة بالصدقة ؛ وتارة بالهدية ؛ وتارة بشراء الشيء ثم يعطي البائع الثمن والسلعة ، وكان يقترض الشيء فيرد أكثر منه وأفضل وأكبر ؛ ويشتري الشيء فيعطي أكثر من ثمنه .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم في الصوم ﴾

المقصود من الصوم ترك محبوبات النفس إيثاراً لمحبة الله ومرضاته

---

(١) قريب من قدحين بالكيل المصرى

وهذا سر بين العبد وربه ؛ وللصوم تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة واستفراغ المواد الرديئة المانعة من الصحة .

والصوم يعيد الى القلب والجوارح ما استابته أيدى الشهوات ؛ ويذكر بحال الأكباد الجائعة فهو من أكبر العون على التقوى ؛ كما قال تعالى : (يا أيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصِّيامُ كما كُتِبَ على الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون) وقال (النبى صلى الله عليه وسلم) : « الصوم جُنة »[1] وأمر من اشتدت عليه شهوة النكاح ولا قدرة له عليه بالصيام وجعله وجاء[2] هذه الشهوة .

ولما كان فطم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور تأخر فرضه لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة وألفت أوامر القرآن فنقلت إليه بالتدريج .

وكان فرضه فى السنة الثانية من الهجرة فتوفى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد صام تسع رمضانات .

وجعل الاطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يطيقا الصيام فانهما يفطران ويطعمان عن كل يوم مسكيناً ، ورخص للمريض والمسافر أن يفطرا ويقضيا ؛ وللحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما كذلك ؛ فان خافتا على ولديهما زادتا مع القضاء إطعام مسكين لكل يوم ؛ فان فطرهما لم يكن لخوف مرض وإنما كان مع الصحة فجبر باطعام المسكين كفطر الصحيح[3] .

---

(١) وقاية — أى يقى صاحبه من غوائل الشهوات

(٢) قاطع

(٣) هذا الكلام فى الحامل والمرضع غير ظاهر ، والظاهر أنهما من القسم الذى

وكان من هديه ألا يدخل فى صوم رمضان إلا برؤية محققة أوبشهادة واحدة ؛ كما صام بشهادة ابن عمر ، وصام بشهادة اعرابى واعتمد على خبره ولم يكلفه لفظ الشهادة ، فان لم تكن رؤية ولا شهادة أكمل عدة شعبان ثلاثين يوماً ؛ وقد أمر بذلك .

وكان إذا شهد الشاهدان برؤية الهلال بعد خروج وقت العيد يفطر

يفدى بلا قضاء لأن الحمل والرضاع يستمران فلا يكون هناك وقت للقضاء ، ولأن الله تعالى جعل رخصة الفطر لقسمين فقط : قسم المريض والمسافر — يفطران ويقضيان — وقسم الذين يطيقون — يفطرون ويفدون — ولم يذكر قسما ثالثاً يقضى ويفدى ، قال تعالى : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقون فدية طعام مسكين » ومعنى يطيقونه يتحملونه بمشقة شديدة — فمنهم كبار العمر — كما ورد عن ابن عباس رضى الله عنه — ومنهم الحوامل والمراضع كما روى أحمد وأصحاب السنن عن النبى (صلى الله عليه وسلم): « إن الله وضع الصوم عن الحبلى والمرضع » . ومنهم أصحاب الأمراض المزمنة لأنهم ليس عندهم وقت يستطيعون القضاء فيه — فهؤلاء يفطرون ويفدون عن كل يوم طعام مسكين .

وعن الشيخ محمد عبده رحمه الله أن منهم العمال الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأعمال الشاقة كاستخراج الفحم الحجرى من المناجم — والآية محتملة ؛ ولكن لاتحتمل الذين يتنعمون حتى يصبحوا مترفين بالنعمة فلا يستطيعوا أن يصوموا ، أولئك بتركهم الصيام يزدادون ترفاً ويفقدون الشجاعة والصبر لكن أسرتهم الشهوات والمكيفات المذلة للنفوس فأصبحوا لاينفعون بشىء إلا أنهم يضرون أنفسهم وبلادهم .

ومن أحكام الصيام فى القرآن قوله تعالى :(أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ؛ علم الله انكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ؛ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ؛ ثم أتموا الصيام الى الليل) .

ويصلى العيد من الغد فى وقتها ؛ وكان يعجل الفطر ويفطر قبل الصلاة فيبدأ بالرطبات، فان لم يجد فتمرات وإلا فحسوات ماء . وروى عنه أنه كان يقول اذا أفطر: « اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت »، وقيل: « ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله تعالى». ذكرهما أبو داود.

وسافر (صلى الله عليه وسلم) فصام وأفطر وخير الصحابة بين الأمرين ؛ وكان يأمرهم بالفطر إذا دنوا من عدوهم ليتقووا على قتاله ، قال عمر بن الخطاب : غزونا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى رمضان غزوتين : بدر ، والفتح — فأفطرنا فيهما .

ولم يكن من هديه تقدير المسافة التى يفطر فيها الصائم ؛ ولم يصح فى التقدير شىء[1] .

والرفث الى النساء — كمباشرتهن ولمسهن والافضاء إليهن — كناية عما يكون بينهن وبين أزواجهن؛ وهو من آداب التعبير عما يستحى منه؛ فلعلنا نتأدب بهذا الأدب وننزه ألسنتنا عن فحش الكتب التى يسمونها (كتب الأدب).

وقد كان بعض الصحابة قبل نزول الآية يمانع نفسه من مباشرة النساء ليلة الصيام فأخبر الله أن هذا ظلم للنفس وحرمان من التمتع بالمباح ؛ وفى الآية رد على من يوجبون الامساك قبل الفجر عن الأكل والشرب والرفث — وهذه الأمور الثلاثة المبطلات للصيام ؛ ولم يذكر القرآن ماتفنن فيه الفقهاء من فروض المبطلات المشكلات .

(١) أى لم يقيد الناس بسفر محدود بل أطلق السفر كما قال الله : (أو على سفر) بالتنكير الشامل لكل مايعد فى العرف سفراً ؛ فكل ماذكر فى كتب الفقه من تحديد السفر المبيح للفطر وقصر الصلاة إنما هو من اجتهاد الفقهاء واستنباطهم ، وقد ثبت أن أهل مكة صلوا صلاة السفر بالقصر والجمع فى عرفة مع النبى (صلى الله عليه وسلم) والمسافة قريبة لم تبلغ عشر التحديد الذى حددوه — ولا يزالون مختلفين فيه .

وكان الصحابة حين ينشئون السفر يفطرون من غير اعتبار مجاوزة البيوت ويخبرون أن ذلك سنته وهديه (صلى الله عليه وسلم) كما فى حديث عبيد بن جبير عند أبى داود واحمد، وقال محمد بن كعب: أتيت أنس ابن مالك فى رمضان وهو يريد السفر وقد رحلت راحلته وقد لبس ثياب السفر فدعا بطعام فأكل افقلت له سنة؟ قال سنة، ثم ركب — حسنه الترمذى.

وكان يدركه الفجر وهو جنب من أهله فيغتسل ويصوم ويقبل بعض أزواجه وهو صائم؛ وصح عنه الاستياك؛ ومنع من المبالغة فى الاستنشاق؛ ولم يحتجم؛ وروى عنه الاكتحال.

وكان يسقط القضاء عمن أكل أو شرب ناسياً ولا يفطره بذلك.

وكان يكثر فى رمضان من الخير ويتلو القرآن ويدارسه زيادة عن غيره من الشهور [1].

﴿ صيام التطوع [2] ﴾ كان يصوم حتى يقال لا يفطر، ويفطر حتى

فالكتاب والسنة العملية متفقان على أن السفر غير محدود؛ وهذا الذى يوافق الحكمة فى الرخصة ولا يوقع الأمة فى ارتباك التحديد والاختلاف عليه.

(١) اختص رمضان بكثرة مدارسة القرآن لأنه نزل فيه، فالصيام شكر، والقرآن ذكر. فالناس بالقرآن يستعدون للاخلاص والاحسان فى الصيام. وفى تدبره والعمل به سعادتهم الدنيوية والأخروية فليتدبر أهل زماننا الذين يأتون بالقراء فى رمضان فيجعلونهم (كالفونوغراف يحكون) وهم يلعبون ويهجرون وعلى الخبائث — السجارة والشيشه وأمثالها — يعكفون؛ وليفهموا قول الله: (أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوا).

(٢) قال تعالى: «فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون.» معنى الصيام فتخلصوا لله فيه وتحسنوا أخلاقكم به، ومن الناس من يسوء خلقه بالصيام لأنه لا يعلم له معنى فيستم ويسب ويكون عذره أنه صائم..

يقال لا يصوم، وما استكمل صيام شهر غير رمضان، ولم يكن يخرج عنه شهر حتى يصوم منه ؛ ولم يصم الثلاثة الأشهر — رجب وشعبان ورمضان — سرداً كما يفعله بعض الناس ؛ ولا صام رجباً ولا استحب صيامه ؛ بل روى عنه النهى عن صيامه كما ذكره ابن ماجه، وكان يتحرى صيام الاثنين والخميس.

وفى الصحيحين أنه (صلى الله عليه وسلم) لما قدم المدينة ووجد اليهود يصومون يوم عاشوراء سألهم عنه فقالوا: يوم عظيم نجى الله فيه موسى وقومه وغرق فيه فرعون وقومه فصامه موسى شكراً لله فنحن نصومه ؛ فقال (صلى الله عليه وسلم) فنحن أحق وأولى بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه.

وأفطر يوم عرفة بعرفة ؛ ذكره الصحيحان . ونهى عن الصوم بها ؛ رواه أهل السنن .

وذكر لفطره بعرفة عدة حكم : منها أنه أقوى على الدعاء ؛ ومنها أن الفطر فى السفر أفضل فى فرض الصوم فكيف بنفله ؛ ومنها أن ذلك اليوم كان يوم الجمعة وقد نهى عن إفراده بالصوم .

وكان ابن تيمية يعلل ذلك بأنه يوم عيد لأهل عرفة لاجتماعهم فيه ويقول : قد أشار النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى هذا فى الحديث الذى رواه أهل السنن : « يوم عرفة ويوم النحر وأيام منى عيدنا أهل الاسلام » ومعلوم أن كونه عيداً هو لأهل ذلك المجمع لاجتماعهم فيه والله أعلم .

وكان (صلى الله عليه وسلم) يدخل على أهله فيقول: هل عندكم شىء فان قالوا لا ، قال : إنى اذاً صائم . فينشىء النية للتطوع من النهار .

وكان أحياناً ينوى صوم التطوع ثم يفطر بعد — أخبرت عنه عائشة فى الحديثين ؛ فأخرج الأول مسلم والثانى النسائى .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى الاعتكاف ﴾

كان (صلى الله عليه وسلم) يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل ، وتركه مرة فقضاه فى شوال ، وكان يأمر بخباء فيضرب له فى المسجد يخلو فيه بربه .

وكان يعتكف كل سنة عشرة أيام، فلما كان فى العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين يوماً؛ وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرة ؛ فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين .

وكان لا يدخل بيته فى اعتكافه إلا لحاجة ؛ وكان يخرج رأسه من المسجد إلى بيت عائشة فترجله وتغسله وهو فى المسجد وهى حائض . وكانت بعض أزواجه تزوره وهو معتكف فاذا قامت تذهب قام معها يوصلها ؛ ولم يباشر امرأة من نسائه وهو معتكف لا بقبلة ولا بغيرها [١] .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى الحج والعمرة [٢] ﴾

فى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : اعتمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أربع عمر كلهن فى ذى القعدة إلا التى كانت مع حجته ـ عمرة

---

(١) إتباعا لقوله تعالى : (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد) .

(٢) المراد من الحج قصد البيت الذى جعله الله فى مكة كعبة لجميع المسلمين يحجون إليه ويلتفون حوله ويتماسكون بالمناسك والعبادات المخصوصة التى بينها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأشهره شوال وذو القعدة والعشر الأول من ذى الحجة ، والمراد من العمرة زيادة ذلك البيت ؛ ووقتها طول السنة . وسميت عمرة لأن من زار فقد عمر قال تعالى : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ، أجعلتم سقاية الحاج

من الُحدَيبِية [1] فى ذى القعدة — وهى التى صده المشركون عنها — وعمرة من العام المقبل فى ذى القعدة وعمرة من الجِعْرانة [2] حيث قسم غنائم حنين فى ذى القعدة ، وعمرة مع حجته . وفيهما عن البراء بن عازب اعتمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى ذى القعدة قبل أن يحج مرتين ولا مناقضة ؛ إذ المراد العمرة المستقلة التى تمت ، ولا ريب أنهما ثنتان فان عمرة القران [3] غير مستقلة ، وعمرة صد عنها وحيل بينه وبين إتمامها كما

« وعمارة المسجد الحرام » كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله) وقال تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات — مقام إبراهيم — ومن دخله كان آمنا — ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا — ومن كفر فان الله غنى عن العالمين) . وقال تعالى : (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . وعهدنا إلى إبراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) . وقال تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل). وقال تعالى : (وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم) — أنظر سورة الحج . وقال تعالى : (وأتموا الحج والعمرة لله فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله) وقال تعالى : (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب) — أنظر سورة البقرة ، وقال تعالى : (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ، ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم) .

(١) قرية قريبة من مكة وسميت ببئر فيها .

(٢) موضع قريب من مكة وهى فى الحل وميقات للاحرام .

(٣) الاحرام بالعمرة مع الحج .

لامناقضة بين ذلك وبين قول عائشة وابن عباس : « لم يعتمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلا فى ذى القعدة » لأن مبدأ عمرة القرآن كان فى ذى القعدة ونهايتها فى ذى الحجة مع انقضاء الحج ؛ فهما أخبرا عن ابتدائها وأنس أخبر عن انتهائها .

وكان فى كل عمرة داخلا إلى مكة ولم ينقل عنه أنه اعتمر خارجاً من مكة كما يفعله الناس اليوم : يخرجون من مكة إلى الحل ليعتمروا .

وحج حجة واحدة بعد الهجرة سنة عشر ، لأن فرض الحج لم ينزل قبل السنة التاسعة : وذلك أن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود وفيه قدم وفد نجران على الرسول وصالحهم على أداء الجزية ؛ والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع وفيها نزل صدر آل عمران وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة ، ويدل عليه أن أهل مكة وجدوا فى نفوسهم بما فاتهم من التجارة من المشركين لما أنزل الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا) فأعاضهم الله تعالى من ذلك بالجزية ، ونزول هذه الآيات والمناداة بها إنما كان فى سنة تسع ، وبعث الصديق يؤذن بذلك فى مكة فى مواسم الحج وأردفه بعلى . أما قوله تعالى : (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ) فانها وإن نزلت سنة ست عام الحديبية فليس فيها فريضة الحج ، وإنما فيها الأمر باتمامه وإتمام العمرة بعد الشروع فيهما ؛ وذلك لا يقتضى وجوب الابتداء .

ولما عزم (صلى الله عليه وسلم) على الحج أعلم الناس ثم خطبهم خطبة علمهم فيها الاحرام وما يجب عليهم فى هذا الحال وصلى الظهر بهم فى مسجد المدينة أربعاً ثم ادهن وترجل ولبس رداءه وإزاره وخرج قبل

العصر لست بقين من ذى القعدة فنزل بذى الحليفة [١] فصلى بها العصر ركعتين ؛ ثم بات بها وطاف على كل نسائه فى تلك الليلة . ولما أراد الاحرام اغتسل وتطيب ثم لبس الازار والرداء وصلى الظهر ركعتين ثم أهل بالحج والعمرة فى مصلاه ؛ ولم ينقل عنه أنه صلى للاحرام ركعتين غير فرض الظهر . وقلد قبل الاحرام هديه وأشعره فى جانبه الأيمن فشق صفحة سنامه [٢] .

وكان يقول : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك ، والملك لاشريك لك » . ورفع صوته بهذه التلبية حتى سمعها أصحابه وأمرهم كذلك ، وكان حجه على رحل لافى محمل ولاهودج.

وولدت أسماء زوج أبى بكر بذى الحليفة محمد بن أبى بكر فأمرها الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن تغتسل وتحرم وتهل ؛ فدل ذلك على أن الحائض تغتسل للاحرام ويصح منها ؛ ثم سار وهو يلبى حتى إذا كان بالروحاء [٣] أهدى إليه لحم حمار وحش صيد حلال فأمر بتقسيمه بين رفاقه فدل على جواز أكل المحرم من صيد الحلال إذا لم يصده لأجله [٤]

(١) عين على ستة أميال من المدينة ميقات إحرام للسام والمدينة .

(٢) الهدى مايقربه الحاج الى مكة من الابل أو البقر أو الغنم قربانا لله وفداء عما يقصر فيه من الأعمال . وسمى هدياً لأنه يهدى الى بيت الله ولأنه يساق فى الأمام فكأنه يهدى صاحبه إلى الطريق كما يهديه عمله الصالح يوم القيامة إلى الجنة . ووضع له علامات تهدى الناظر إلى أنه قربان لله وشعار من شعائره .

(٣) موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة .

(٤) لأن المحرم لايجوز له أن يصيد صيد البر ، لكن لو جاء صيد صاده أحد حلال غير محرم يجوز أن يأكل منه ، قال تعالى : « أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا مايتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم مايريد » . وقال : « وإذا

ولما كان بسَرِف[١] حاضت عائشة فقال لها : « إفعلى ما يفعل الحاج غير ألا تطوفى بالبيت » .

ولما كان بمكة أمر من لاهدى معه أن يجعلها عمرة فيطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة ويحل من إحرامه ؛ ومن معه هدى أن يقيم على احرامه ، ولم ينسخ ذلك شىء البتة ! بل سأله سراقة بن مالك عن هذه العمرة التى أمرهم بالفسخ إليها هل هى لعامهم ذلك أم للأبد ؟ قال : بل للأبد[٢] .

وقد روى عنه (صلى الله عليه وسلم) الأمر بفسخ الحج إلى العمرة أربعة عشر من أصحابه وأحاديثهم كلها صحاح ؛ وفيها يقول : « ولولا أن معى الهدى لأحللت كما تحلون ؛ أو فلولا أنى سقت الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم به ولكن لا يحل منى إحرام حتى يبلغ الهدى محله » ، وقد أجابوا فقصروا[٣] بعد أن طافوا بالبيت وبالصفا والمروة ؛ ثم أقاموا فى حل حتى إذا كان يوم التروية[٤] أهلوا بالحج .

حللتم فاصطادوا) . وقال : (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب ؛ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم — يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره ؛ عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام . أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة ، وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذى اليه تحشرون)

(١) موضع قريب من مكة .

(٢) أى هذا الأمر ليس خاصا بهم ، بل لكل من يحج إلى الأبد .

(٣) أى قصروا شعر الرأس فتقصيره أو حلقه شعار الحل من الاحرام .

(٤) اليوم الثامن من ذى الحجة .

ولما رأى البيت قال : « اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة » ، ذكره الطبرانى ، فلما دخل المسجد عمد إلى البيت ولم يركع تحية المسجد إذ تحيته الطواف ، فلما حاذى الحجر الأسود استلمه ولم يزاحم عليه ولم يحاذه بجميع بدنه ولم يتقدم عنه الى الركن اليمانى ولم يرفع يديه ولم يقل نويت بطوافى هذا كذا وكذا ولا افتتحه بالتكبير كالصلاة كما يفعله من لا علم عنده بل هو من البدع المنكرات .

ولما استقبل الحجر واستلمه أخذ عن يمينه جاعلا البيت عن يساره وحفظ عنه بين الركنين : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »، ورمل[1] فى طوافه هذا ثلاثة الأشواط الأول ، وكان يسرع مشيه ويقارب بين خطاه ، واضطبع بردائه فجعله على أحد كتفيه وأبدى كتفه الآخر ومنكبه وكلما حاذى الحجر الأسود أشار اليه واستلمه بمحجنه وقبل المحجن — والمحجن عصا محنية الرأس — وثبت عنه أنه قبل الحجر نفسه واستلمه بيده واستلم الركن اليمانى ولم يقبله ، وذكر الطبرانى أنه كان إذا استلم الركن اليمانى قال: « بسم الله والله أكبر » ، وكلما أتى على الحجر الأسود قال: « الله أكبر » .

ولما فرغ من أشواط الطواف السبعة جاء الى خلف المقام فقرأ : (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) فصلى ركعتين ، والمقام بينه وبين البيت قرأ فيهما بعد الفاتحة سورتى الاخلاص ثم خرج إلى الصفا ، فلما قرب منه قرأ : (إن الصفا والمروة من شعائر الله[2]) أبدأ بما بدأ الله به ثم رقى عليه

---

(١) رمل يرمل رملا : أسرع وهرول

(٢) (فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) وهما

حتى رأى البيت استقبله وقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ؛ لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » .

ثم نزل إلى المروة يمشي ؛ قال ابن عباس : ولما كثر عليه الناس ركب.

وكان إذا وصل إلى المروة رقى عليها واستقبل البيت وكبر الله ووحده وفعل كما فعل على الصفا حتى أتم السبعة الأشواط سعياً من غير رمَل في الثلاثة الأولى خاصة ؛ على خلاف الطواف بالبيت .

وهنالك أمر كل من لا هدى معه أن يحل حتما ـ كما تقدم ـ قارناً كان أو مفرداً [1] وأمرهم أن يحلوا الحل كله من وطء النساء والطيب ولبس المخيط ؛ وأن يبقوا كذلك إلى يوم التروية ولم يحل هو من أجل هديه، وقال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدى معي حتى أشتريه» ؛ ثم أحل كما حلوا .

وكان يصلي مدة مقامه بمكة بمنزله ، فأقام أربعة أيام يقصر الصلاة وتوجه يوم الخميس بمن معه الى مِنى فأحرم بالحج من كان أحل منهم ولم يدخلوا إلى المسجد فيحرموا منه بل أحرموا ومكة خلف ظهورهم، ثم نزل مِنىً فصلى بها الظهر والعصر وبات فيها ليلة الجمعة .

جبلان يمشي الحاج والمعتمر بينهما ويرقى عليهما .

(١) المفرد : من يحرم بالحج أو العمرة على حدة ، والقارن : من يحرم بهما معاً. فاذا أدى أعمال العمرة وتحلل من إحرامه إلى أن جاء الحج فأحرم به سمى (متمتعاً) قال تعالى : (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة . ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ، واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب) .

ولما طلعت الشمس صار إلى عرفة وأصحابه منهم الملبي، ومنهم المكبر، وهو يسمع ولا ينكر على أحد فلما أتى عُرَنَة [١] خطب الناس على راحلته خطبة عظيمة قرر فيها قواعد الاسلام وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية وقرر فيها تحريم المحرمات التي اتفقت الملل على تحريمها وهي: الدماء، والأموال، والأعراض، ووضع فيها أمور الجاهلية وأوصاهم بالنساء خيراً، وذكر الحق الذي لهن وعليهن، وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله ؛ وأخبر أنهم لن يضلوا ما داموا معتصمين به ! ثم أخبرهم أنهم مسئولون عنه واستنطقهم بماذا يقولون وبماذا يشهدون ؛ فقالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فرفع أصبعه إلى السماء واستشهد الله عليهم ثلاث مرات ؛ وأمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم.

ووقف بعرفة وخطب خطبة واحدة ولم تكن خطبتين، جلس بينهما . فلما أتمها أمر بلالا فأذن ثم أقام الصلاة فصلى الظهر ركعتين أسر فيهما بالقراءة ؛ وكان يوم الجمعة فدل على أن المسافر لا يصلى جمعة ؛ ثم أقام فصلى العصر ركعتين كذلك ومعه أهل مكة وصلوا بصلاته قصراً وجمعاً بلا ريب ؛ ولم يأمرهم بالاتمام ولا بترك الجمع .

ومن قال إنه قال لهم أتموا صلاتكم فانا قوم سَفْر فقد غلط فيه غلطاً بيناً ووهم وهماً قبيحاً.

وإنما قال لهم ذلك فى غزاة الفتح بجوف مكة حيث كانوا فى ديارهم مقيمين — ولهذا كان أصح أقوال العلماء أن أهل مكة يقصرون ويجمعون بعرفة ؛ كما فعلوا مع النبي (صلى الله عليه وسلم) .

---

(١) واد حذاء عرفات وليس من الموقف

وفى هذا أوضح دليل على أن سفر القصر لا يتحدد بمسافة معلومة ولا بأيام معلومة ؛ ولا تأثير للنسك فى قصر الصلاة البتة وإنما التأثير لما جعله الله سبباً وهو السفر. هذا مقتضى السنة ولا وجه لما ذهب اليه المحدودون.

فلما فرغ من صلاته ركب حتى أتى الموقف فى ذيل الجبل عند الصخرات واستقبل القبلة على بعيره ثم أخذ فى الدعاء والتضرع إلى غروب الشمس ؛ وأخبر الناس أن عرفة لا تختص بموقفه ذلك بل قال : « وقفت ها هنا وعرفة كلها موقف » ؛ وأرسل إلى الناس أن يكونوا على مشاعرهم ويقفوا بها فانها من إرث أبيهم إبراهيم . وهناك أقبل ناس من أهل نجد فسألوه عن الحج فقال « الحج يوم عرفة ، ومن أدرك قبل صلاة الصبح فقد أدرك الحج ، أيام منى ثلاثة (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى) » . وأخبر أن خير الدعاء يوم عرفة ؛ وكان فى دعائه رافعاً يديه إلى صدره كاستطعام المسكين .

ومن دعائه فى الموقف :

« اللهم لك الحمد كالذى نقول وخيراً مما نقول ؛ اللهم لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى وإليك مآبى ولك تراثى ؛ اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصدر وشتات الأمر ، اللهم إنى أعوذ بك من شر ما تجىء به الريح » ؛ ذكره الترمذى .

وهناك نزلت عليه (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً) . وسقط رجل من المسلمين عن راحلته هناك وهو محرم فمات فأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يكفن فى ثوبيه

ولا يمس بطيب وأن يغسل بماء وسدر ولا يغطى رأسه ولا وجهه، وأخبر أن الله تعالى يبعثه يوم القيامة يلبي.

ولما استحكم غروب الشمس أفاض من عرفة وأردف أسامة بن زيد خلفه وهو يقول: «أيها الناس عليكم السكينة فان البر ليس بالايضاع» - أى ليس بالاسراع - وأفاض من طريق المأزمين؛ وكان قد دخل من طريق ضب - وهكذا كانت عادته فى الأعياد أن يخالف الطريق وقد تقدم حكمة ذلك عند الكلام على هديه فى العيد.

ثم جعل يسير سيراً ليس بالبطىء ولا السريع وهو يلبي ولا يقطع التلبية حتى وصل المزدلفة توضأ للصلاة ثم أمر بالأذان فأذن وأقام وصلى المغرب قبل حط الرحال؛ فلما حطوها أمر فأقيمت الصلاة فصلى العشاء فلم يصل بينهما شيئاً، وصلاهما بأذان وإقامتين كما فعل بعرفة، ثم نام حتى أصبح ولم يحى تلك الليلة ولا صح عنه فى إحياء ليلتى العيد شيء؛ وأذن فى تلك الليلة لضعفة أهله أن يتقدموا إلى منى قبل طلوع الفجر؛ وأمرهم ألا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس - وهذا الذى صححه الترمذى وغيره.

وقد ورد فى بعض الروايات «الرمى مع الفجر»، ولا تعارض مادام هناك مشقة كبيرة على الرامى بعد الشمس كازدحام المرأة وكبير السن والمريض فانهم يعجلون قبل ذلك ولا حرج عليهم.

فلما طلع الفجر صلاها، ثم ركب حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة

ودعا الله وذكره حتى أسفر [١] وانطلق، مردفاً للفضل بن عباس، وهو يلبي في مسيره وأسامة على رجليه في سباق قريش. وفي طريقه هذا أمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات فجعل ينفضهن في كفه ويقول: «أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين فانما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين». وفي طريقه تلك عرضت له امرأة من خثعم جميلة فسألته عن الحج عن أبيها، وكان شيخاً كبيراً لا يستمسك على الراحلة، فأمرها أن تحج عنه. وجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فوضع يده على وجهه وصرفه عنها، وكان الفضل وسيماً.

فلما أتى وادي محسِّر [٢] حرك ناقته وأسرع كعادته في المواضع التي نزل فيها بأس الله بأعدائه: فان هنالك أصاب أصحاب الفيل ما قصه الله علينا إذ حسر الفيل وانقطع عن الذهاب.

وسلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى منى فأتى جمرة العقبة فوقف في أسفل الوادي واستقبل الجمرة فرماها راكباً بعد الشمس واحدة بعد واحدة يكبر مع كل حصاة. وحينئذ قطع التلبية وبلال وأسامة معه أحدهما آخذ بخطام ناقته والآخر يظله بثوب

(١) قال تعالى: (فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم. فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً، فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق، ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب).

(٢) موضع بمنى بين عرفات ومكة.

من الحر — وفى هذا دليل على جواز استظلال المحرم.

ثم رجع إلى منى فخطب الناس خطبة بليغة أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وفضله وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله وأخذ مناسكهم عنه.

وقال لعلى: «لا أحج بعد عامى هذا وعلمهم مناسكهم»؛ وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض؛ وأمر بالتبليغ عنه وأخبر أنه «رب مبلغ أوعى من سامع!».

وقال: «لا يجنى جان إلا على نفسه؛ اعبدوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأطيعوا إذا أمركم تدخلوا جنة ربكم». وودع حينئذ الناس فقالوا: حجة الوداع!! وهناك سئل عن تقديم الرمي والذبح والحلق بعضها على بعض فقال: لا حرج — ذكره ابن عباس وغيره. ثم انصرف الى المنحر بمنى فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده — عدد سنى عمره — قائمة معقولة [1].

ثم أمسك وأمر علياً أن ينحر ما بقى من المائة وأمره أن يتصدق بجلالها ولحومها وجلودها فى المساكين؛ ولا يعطى الجزار فى جزارتها شيئاً منها؛ وقال: نحن نعطيه من عندنا؛ وقال: من شاء اقتطع.

---

(١) البدنة بفتح الباء والدال: الناقه السمينة جمعها (بدن) بضم الباء وسكون الدال؛ قال تعالى: (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف؛ فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون. لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم؛ كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم وبشر المحسنين) — فمعنى صواف مصفوفة، ومعنى وجبت جنوبها: سقطت على الأرض وذلك بعد نحرها. والمعتر: هو الذى تعتريه الحاجة. والقانع: هو المحتاج الذى يقنع بما يسد حاجته ولا يسأل الناس إلحافا.

عن ابن عباس : نحرنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عام الحديبية البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة. خرجه الصحيحان . وعن جابر أنهم نحروا البدنة فى حجهم مع رسول الله عن عشرة - على شرط مسلم.

وثبت أنه (صلى الله عليه وسلم) ضحى عن نسائه وهن تسع ببقرة .

ونحر (صلى الله عليه وسلم) بمنى وأعلمهم أن منى كلها منحر ، وأن فجاج مكة طريق ومنحر .

ولما أتم النحر استدعى الحلاق فأمره أن يأخذ جانبه الأيمن ، ثم الأيسر ، وحلق كثير من الصحابة وقصر بعضهم . قال تعالى : (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ) وفى هذا دليل على أن الحلق نسك ، وليس باطلاق من محظور .

ثم أفاض إلى مكة قبل الظهر راكباً فطاف طواف الافاضة ولم يطف غيره ولم يسع معه ولم يرمل فيه ولا فى طواف الوداع كما رمل فى طواف القدوم .

ولما قضى طوافه أتى إلى زمزم وهم يسقون فقال : « لولا أن يغلبكم الناس لنزلت فسقيت معكم » ، ثم ناولوه الدلو فشرب وهو قائم ثم رجع إلى منى فبات بها .

ولما أصبح انتظر زوال الشمس ثم مشى إلى الجمار فبدأ بالجمرة الأولى التى تلى مسجد الخيف فرماها بسبع حصيات واحدة بعد واحدة يقول مع كل حصاة : الله أكبر ، ثم يقدم على الجمرة فيستقبل القبلة ويرفع يديه ويدعو الله طويلا ، وكذلك فعل فى الجمرة الثانية والثالثة وهى جمرة العقبة

ولم يرمها من أعلاها كما يفعل الجهال ؛ ولا جعلها عن يمينه واستقبل البيت وقت الرمي ؛ كما ذكره غير واحد من الفقهاء .

ولما رمى جمرة العقبة رجع من فوره ولم يقف عندها يدعو ؛ إذ دعاؤه كان كله فى نفس العبادة قبل الفراغ منها .

وخطب (صلى الله عليه وسلم) الناس بمنى خطبة ثانية اليوم الثانى من النحر كما ذكر أبو داود ، وفيه نزل عليه سورة (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ) وعرف أنه الوداع وأخبر الناس ـ كما ذكر البيهقى ـ ولم يتعجل فى يومين بل تأخر حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة ؛ وأفاض يوم الثلاثاء بعد الظهر .

ولما وصل مكة طاف للوداع ليلا سحراً ولم يرمُل فى هذا الطواف؛ وأخبرته صفية أنها حائض فقال : أحابستنا هى ؟ فقالوا له إنها قد أفاضت قال : فلتنفر إذاً ؛ ورحل إلى المدينة .

وقد رخص للعباس أن يبيت بمكة ليالى منى من أجل سقايته ؛ ولرعاة الابل أن يبيتوا خارج منى عند إبلهم ؛ ورخص لهم أن يرموا يوم النحر ثم يجمعوا رمى يومين بعده يرمونه فى أحدهما .

وفى أثناء ارتحاله (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة لقىَ ركباً بالروحاء فرفعت امرأة صبياً لها من محفة[1] فقالت يارسول الله : ألهذا حج ؟ قال نعم ! ولك أجر .

فلما أتى ذا الحليفة بات بها ؛ فلما رأى المدينة كبر ثلاث مرات وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

---

(١) مركب للنساء كالهودج إلا أنها لا تقبب .

آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ثم دخلها نهاراً والله أعلم [١] .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى الهدايا والضحايا والعقيقة ﴾

وهى مختصة بالأزواج الثمانية المذكورة فى سورة الانعام ؛ ولم يعرف عنه ولا عن الصحابة هدي ولا أضحية ولا عقيقة من غيرها . وهذا مأخوذ من القرآن من مجموع أربع آيات إحداها قوله تعالى: (أُحِلَّتْ لكم بَهِيمَةُ الأنعَام) والثانية قوله تعالى : (ويذكروا اسمَ الله فى أيامٍ مَعْلوماتٍ على ما رَزَقهم مِنْ بَهِيمةِ الأنعام) والثالثة قوله تعالى : (ومنَ الأنعامِ حَمُولةً وفَرْشاً كلوا مِمَّا رَزَقكم اللهُ ولا تتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطانِ إنه لكم

---

(١) يجب أن يتنبه المسلمون إلى الحج وأسراره ويعرفوا أن الله تعالى جعله مؤتمراً عاماً يأتون اليه من كل البلاد ليتعارفوا بعضهم مع بعض وبوقف كل منهم الآخر على حالة أمته وبلاده ، ثم يتشاوروا ويقرروا توحيد العمل الذى يعملونه لترقية أمتهم وحمايتها من كل أجنبى يطمع فيها ، ويتعاهدوا أمام الله فى بيت الله على أن ينصروه ويعلوا كلمته . وتالله لوفقه الحجاج هذا السر وعملوا به لما ضعف المسلمون ولما استعبدتهم دول الاستعمار . وماذا نصنع وقد أصبح الحاج يذهب ليقال ياعم الحاج أو ياخالتى الحاجة !! وقد رأيت كثيراً من أهل جاوة يحجون ليأتوا بعمامة حجازية مبروكة أو اسم شريف أو غير هذا مما يبكينا ويجعلنا نأسف على حالنا ! ولعل ما وقع من الحوادث فى الشرق والغرب ينبه المسلمين إلى التمسك بالدين والبحث عن أسراره والعمل على التضامن والاتحاد وكل ما يجمع شملهم ويجعلهم كتلة واحدة أمام أعدائهم الذين لا يغفلون عن كيدهم والقضاء عليهم . ومن يرد أن يقف على ماتدبره دول الاستعمار لمحق الاسلام والمسلمين فليقرأ ما كتبته فى كتاب « الاستقلال التام فى الكتب المقدسة »

عدوٌّ مُبين ـ ثمانيةَ أزْواجٍ) ثم ذكرها [١] والرابعة قوله تعالى : (هَدْياً بَالِغَ الكَعْبَة) [٢] فدل على أن الذى يبلغ الكعبة من الهدى هو هذه الأزواج الثمانية — وهذا استنباط على بن أبى طالب (رضى الله عنه) .

والذبائح التى هى قربة إلى الله وعبادة ثلاثة : الهدى والأضحية والعقيقة — فأهدى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الغنم ، وأهدى الابل وأهدى عن نسائه البقر .

وشرك بين أصحابه فى الهدى ، كما تقدم ، البدنة عن سبعة والبقرة كذلك.

وأباح لسائق الهدى ركوبه بالمعروف حتى يجد ظهراً غيره [٣] .

وأباح لأمته أن يأكلوا من هداياهم وضحاياهم ويتزودوا منها [٤] .

وذكر أبو داود من حديث جبير بن نفير عن ثوبان قال : ضحى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم قال يا ثوبان : أصلح لنا هذه الشاة فما زلت أطعمه منها حتى قدم المدينة ـ وروى مسلم هذه القصة أيضاً .

---

(١) «ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين نبئونى بعلم إن كنتم صادقين ؟ ! ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ ! فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين »

(٢) « ياأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة » .

(٣) قال تعالى : (ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق) .

(٤) قال تعالى : (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) .

وكان ربما قسم لحوم الهدى ؛ وربما قال : من شاء اقتطع ؛ وكان يذبح هدى العمرة عند المروة وهدى القرآن بمنى وكذلك ابن عمر .

ولم ينحر إلا بعد أن حل يوم النحر بعد طلوع الشمس والرمي فكان ترتيبه (صلى الله عليه وسلم) فى هذه الأربعة هكذا : الرمي ، ثم النحر ثم الحلق ، ثم الطواف ؛ ولم يرخص فى النحر قبل طلوع الشمس البتة .

(الاضحية) : كان يضحى بكبشين ينحرهما بعد صلاة العيد ؛ وأخبر أن من ذبح قبل الصلاة فليس من النسك فى شىء . وإنما هو لحم قدمه لأهله [1] دلت على ذلك السنة ـ كما تقدم فى صدقة الفطر .

وكان من هديه اختيار الأضحية وسلامتها من العيوب ؛ ويضحى فى المصلَّى ؛ والشاة تجزى عن الرجل وأهل بيته ولو كثر عددهم . قال عطاء ابن يسار : سألت أبا أيوب الانصارى كيف كانت الصحابة على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؟ فقال : كان الرجل يضحى بالشاة عنه وعن أهل بيته فيأكلون ويطعمون : قال الترمذى حديث حسن صحيح .

(العقيقة) فى الموطأ قالوا يارسول الله ينسك أحدنا عن ولده ؟ فقال من أحب منكم أن ينسك عن ولده فليفعل : عن الغلام شاتان وعن الجارية شاة ؛ وقال : كل غلام رهينة بعقيقة تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه

---

(١) عملا بقوله تعالى : (فصل لربك وانحر) وقد تساهل الناس فى الأضحية كغيرها من شعائر الدين فكثير منهم يذبح فى العيد ، ولكن لا يضحى لأنه يذبح ليلة العيد ليتعشى هو وأولاده . . .

ومن يذبح يوم العيد لا يراعى أنها شعار ولا يطعم منها البائس الفقير كما قال الله

ويسمى ، وذكر رهينة لتقوية الترغيب . وصح عنه انه عق عن الحسن بكبش وعن الحسين بكبش ؛ وكان مولد الحسن عام أحد ؛ ومولد الحسين فى العام القابل منه ـ روى ذلك ابن عباس وأنس .

وأحاديث الشاتين عن الغلام والشاة عن الأنثى أولى أن يؤخذ بها لأنها من قوله (صلى الله عليه وسلم) وقوله عام وفعله يحتمل الاختصاص ، وقصة الحسن والحسين يحتمل أن يراد بها بيان جنس المذبوح ؛ وأنه من الكباش لا تخصيصه بالواحد .

ذكر أبو داود عن أبى رافع قال : رأيت النبى (صلى الله عليه وسلم) أذن فى أذن الحسن بن على حين ولدته أمه فاطمة بالصلاة .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى الأسماء والكنى ﴾

لما كانت الأسماء قوالب للمعانى ولا بد أن يكون بينهما ارتباط وتناسب استحب النبى (صلى الله عليه وسلم) الاسم الحسن ، وثبت عنه أنه قال : « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها حارث وهمام ، وأقبحها حرب ومرة » . وصح أنه قال : « لا تسمين غلامك يساراً ولا رباحاً ولا نجيحاً ولا أفلح ، فانك تقول أثمة هو ؟ فلا يكون فيقول لا » .

ثبت أنه غير اسم عاصية وقال : أنت جميلة إلى غير ذلك حتى كان يأمرهم إذا أبردوا إليه بريداً أن يكون حسن الاسم حسن الوجه .

وكان هديه (صلى الله عليه وسلم) تكنية من له ولد ومن لا ولد له ؛ وقد كنى صهيباً بأبى يحيى ؛ وعلياً بأبى الحسن.

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم عند دخوله منزله ﴾

كان يدخل على أهله على علم منهم فلم يفاجئهم بغتة ؛ واذا دخل سلم عليهم وربما قال : هل عندكم من غذاء ؟ وربما سكت حتى يحضر بين يديه ما تيسر. وثبت عنه أنه قال لأنس : « اذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك وعلى أهلك » قال الترمذى حديث حسن صحيح . وصح عنه « إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء، واذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان : أدركتم المبيت؛ واذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء» ذكره مسلم .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى الأذان واذكاره ﴾

ثبت عنه أنه سن التأذين بترجيع وغير ترجيع ؛ وشرع الاقامة مثنى وفرادى ؛ ولكن الذى صح عنه تثنية كلمة الاقامة — قد قامت الصلاة — ولم يصح عنه إفرادها البتة ، وكذلك الذى صح عنه تكرار لفظ التكبير فى أول الأذان أربعاً ؛ ولم يصح عنه الاقتصار على مرتين .

وأما حديث أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الاقامة فلا ينافى الشفع بأربع ؛ وقد صح التربيع صريحاً فى حديث عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب وأبى محذورة (رضى الله عنهم) .

وأما إفراد الاقامة فقد صح عن ابن عمر استثناء كلمة الاقامة فقال : إنما كان الأذان على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مرتين مرتين ؛

والاقامة مرة مرة ؛ غير أن يقول : قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة .

وفى صحيح البخارى عن أنس : أمر بلال أن يشفع الأذان ويو[تر] الاقامة — إلا الاقامة — وصح فى حديث عبد الله بن زيد وعمر فى الاقامة : قد قامت الصلاة ؛ قد قامت الصلاة . وصح فى حديث أبى محذورة تثنية كلمة الاقامة مع سائر كلمات الأذان .

وكل هذه الوجوه جائزة مجزية لا كراهة فى شىء منها — وإن كان بعضها أفضل من بعض (١) .

---

(١) على هذا يكون الأذان هكذا : —

« الله أكبر مرتين » أو أربعاً « أشهد أن لا اله إلا الله » مرتين « أشهد أن محمداً رسول الله » مرتين « حى على الصلاة » مرتين « حى على الفلاح » مرتين « الله أكبر » مرتين « لا اله إلا الله » مرة واحدة . وفى الاقامة يزيد كلمة « قد قامت الصلاة : بعد حى على الفلاح » . إلى هنا تكون هذه الالفاظ هى المتفق عليها لا يجوز النقص منها ولا الزيادة فيها لأنها من العبادات التى بينها الرسول صلى الله عليه وسلم بالوحى فالتغيير فيها إخلال بها . ومن الناس من يزيد بعد الأذان كالصلاة والتسنيم الذى أصبح العوام يعتقدون أنه من الأذان لمداومة المؤذن عليه وجهره به بشكل الأذان حتى أنهم لم يسمعوا الأذان أذاناً مجرداً من الزيادة إلا فى المغرب — وفى الصبح يكون التسليم قبل الأذان ؛ فاذا جاء مؤذن بالصلاة والتسليم فى المغرب أو نقله من قبل الأذان إلى آخره فى الصبح ترى العوام يصيحون به وينكرون عليه كما لو وجدوه يترك التسليم فى الظهر أو العصر ! وهذا لأنهم ألفوا هذه الصيغة من الاذان فأصبحوا يرون تغييرها نقصاً فى الدين؛ والعوام لهم عذر لأنهم لا يعرفون الدين إلا من العمل الذى يتوارثونه عن أهل الدين.

وبعض الناس يزيد فى داخل الأذان فيقول : (أشهد أن سيدنا محمداً رسول الله) ويعتقد أن لفظ (سيدنا) هنا تعظيم للنبى (صلى الله عليه وسلم) حتى إذا أمره أحد

وأماهديه (صلى الله عليه وسلم) فى الذكر عندالأذان وبعده فشرع لأمته منه خمسة أنواع : (أحدها) أن يقول السامع كما يقول المؤذن إلا فى لفظ حي على الصلاة حي على الفلاح فانه صح عنه إبدالهما بالأحوال

بتركه شنع عليه بأنه يكره النبى (صلى الله عليه وسلم) ويمنع من سيادته والتسليم عليه ! ومنشأ هذا الجهل بتعظيم النبي (صلى الله عليه وسلم) فإن تعظيمه فى اتباعه والعمل بما أمر به وهدى إليه . وقد يكون المؤذن غير متدين فلا يقصد التعظيم وإنما وجد العوام يألفون الزيادة ويفرحون بها فيقولها إرضاء لهم وخوفاً منهم ؛ وكل المتعلمين يعتقدون أن هذا زائد فى الأذان ؛ ولكن منهم من يحسنه كالعوام . ومنهم من يقول هذا شيء (تافه) لا تضر زيادته ولا يهم تركه ؛ فالذين يحسنونه لم يفهموا أن ذلك لو كان حسنا لكان بلال أولى بأن يدخله فى أذانه أمام الرسول (صلى الله عليه وسلم) أم أنهم يفهمون أنهم أكثر تعظيما للنبي (صلى الله عليه وسلم) من خلفائه الراشدين والائمة المقربين رضى الله عنهم أجمعين .

ولو تأمل هؤلاء لعلموا أن كثيراً من الأمور الحسنة إذا وضعها الانسان فى غير موضعها لا تكون حسنة كمن يصلي على النبى (صلى الله عليه وسلم)فى الفاتحة فى الصلاة؛ أو يزيد ركعة فى الفرض فيصلي المغرب أربعاً أو الصبح ثلاثاً ومثل هذا ؛ فالخير يكون كما رسم الشارع .

وأما الذين يقولون : إن هذا أمر (تافه) فلو حسن التفاهم معهم لعلموا أن المسألة فتح باب للزيادة والنقص بحسب ما يرى الناس من التنظيم والناس مختلفون فى آرائهم واستحسانهم ، فعندئذ يصير الدين (بهذا الشيء التافه) آراء ويتفرق الناس فيه بحسب تفرقهم فى الرأى والمزاج والاستحسان ، والمقصود من الدين أن يرتبط المسلمون كلهم بصورة واحدة من العبادات يتفقون عليها فانهم بمقدار اتفاقهم على شكل العبادة واتحادهم فيها يتقارب بعضهم من بعض ويألف كل منهم الآخر فتتفق قلوبهم تبعاً لاتفاق ألفاظهم وحركاتهم وقيامهم وقعودهم وكل ما تفعله أعضاء الجسم من أعمال الدين .

بذلك تكون النتيجة أن المسلمين يؤذنون بألفاظ واحدة ويصلون بشكل واحد

ولا قوة إلا بالله (الثانى) أن يقول : رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا .

(الثالث) أن يصلى على النبى (صلى الله عليه وسلم) بعد فراغه من إجابة المؤذن — وأكمل ما يصلى عليه به ويصل اليه كما علمه أمته أن يصلوا عليه فلا صلاة أكمل عليه منها وإن تحذلق المتحذلقون .

(الرابع) أن يقول بعد صلاته عليه : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد .

(الخامس) أن يدعو لنفسه بعد ذلك ويسأل الله من فضله فانه يستجاب له كما فى السنن ، وذكر عنه أنه كان يقول عند كلمة الاقامة أقامها الله وأدامها ، وفى السنن عنه : الدعاء لا يرد بين الأذان والاقامة، قالوا فما نقول ؟ قال : سلوا الله العافية فى الدنيا والآخرة .

وراء إمام واحد إلى قبله واحدة يعبدون ربا واحداً ، فالمسلمون شعارهم التوحد فى كل شىء وهم جسم واحد يتألم كل عضو منه لتألم الآخر .

والمسلمون بهذه التربية الموحدة وهذا التكوين المؤلف الجمع قوة كبرى لا تستطيع أى قوة فى الأرض أن تسلط عليهم أو تلعب بهم أو تسلبهم استقلالهم أو تفقدهم سلطانهم .

هذه هى الحكمة أيها القوم من اتباع ما ورد فى الدين والابتعاد عن الزيادة و نقص (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الالباب — وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى السلام ﴾

فى الصحيحين : « إن أفضل الاسلام وخيره إطعام الطعام وأن تقرئ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » ؛ قال البخارى فى صحيحه عن عمار: ثلاث من جمعهن فقد جمع الايمان : الانصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم ، والانفاق من الاقتار .

وثبت عنه أنه مرَّ بصبيان فسلم عليهم ؛ ذكره مسلم . وذكر الترمذى فى جامعه أنه مرَّ يوماً بجماعة نسوة فأومى بيده للتسلم ، وفى صحيح البخارى وغيره : يسلم الصغير على الكبير ؛ والمار على القاعد ؛ والراكب على الماشى ؛ والقليل على الكثير .

وكان من هديه السلام على القوم عند المجيء إليهم والانصراف عنهم وقال : « اذا قعد أحدكم فليسلم ؛ وإذا قام فليسلم ؛ وليست الأولى أحق من الآخرة » . وقال : « من بدأكم بالسؤال قبل السلام فلا تجيبوه » .

وكان هديه (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ولم يرد السلام بيده ولا رأسه ولا أصبعه إلا فى الصلاة — كما رواه أنس وجابر وغيرهما .

وكان يقول فى الرد : وعليك السلام — بالواو ؛ وبتقديم عليك على السلام — وهو الصواب .

وثبت عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه مر على مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين فسلم عليهم .

وكان من هديه إذا بلغه أحد السلام عن غيره أن يرد عليه وعلى المبلغ ؛ ذكره أصحاب السنن .

وكان يترك السلام ابتداء ورداً على من أحدث حدثاً حتى يتوب منه ، كما هجر كعب بن مالك وصاحبيه ؛ وهجر زينب شهرين وبعض الثالث لما قال لها : تعطى صفية ظهراً لما اعتل بعيرها فقالت : أنا أعطى تلك اليهودية — ذكرها أبو داود .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى العطاس ﴾

ذكر أبو داود عن أبى هريرة كان رسول (صلى الله عليه وسلم) إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه وخفض ، أو غض به ، صوته . قال الترمذى حديث صحيح ، ويذكر عنه « أن التثاؤب الرفيع والعطاس الشديد من الشيطان وأن الله يكرههما » .

وصح عنه أنه عطس عنده رجل فقال له : يرحمك الله ، ثم عطس أخرى فقال : الرجل مزكوم — هذا لفظ مسلم .

وثبت عنه (صلى الله عليه وسلم) « إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب فاذا عطس أحدكم وحمد الله كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول : يرحمك الله » . وأما التثاؤب فانما هو من الشيطان ، فاذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع فان أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان : ذكره البخارى : وذكر إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله وليقل له أخوه : يرحمك الله ، وليقل له : هو يهديكم الله ويصلح بالكم .

وفى صحيح مسلم : « حق المسلم على المسلم ست — إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس وحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه » .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى الاستئذان ﴾

كان اذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول : السلام عليكم السلام عليكم . وصح عنه : «الاستئذان ثلاث ، فان أذن لك وإلا فارجع» . وصح عنه انه أراد أن يفقأ عين الذى نظر اليه من جحر فى حجرته ، وقال : « إنما جعل الاستئذان من أجل البصر » .

وصح عنه : « لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح » . وقال : « من اطلع على قوم فى بيتهم بغير إذنهم ففقأوا عينه فلا دية له ولا قصاص » .

واستأذن عليه رجل فقال له : قل السلام عليكم ؛ أأدخل ؟[1]

ومن هديه أن المستأذن إذا قيل له من أنت ؟ يقول فلان ابن فلان فيذكر كنيته أو لقبه .

---

(١) قال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم . ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ؛ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) .

وبعض الجاهلين يظنون أن الاستئذان من مبتكرات الافرنج مع أنه كغيره من الآداب القومية من آدابنا ، وما دام أبناؤنا يتربون على آداب الافرنج ويجهلون آداب أمتهم ودينهم فانهم يرون أن الافرنج هم أصل الآداب فيحترمونهم ويحتقرون أمتهم ، وفى ذلك ما فيه من تقوية الأجانب وإضعاف الأمة بحكم الاعتقاد المؤثر فى العمل ، ولهذا يجب أن يتربى أبناء الأمة فى مدارس الأمة وبين يدى مربين منها على آدابها وأخلاقها

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى اذكار النكاح ﴾

ثبت عنه أنه علمهم خطبة : « الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ؛ من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلاهادى له. وأشهد أن لا إله الا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ». ثم قرأ الآيات الثلاث (يا أيُّها الذينَ آمَنُوا اتقُوا اللهَ حقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتم مُسلمُون). (يا أيُّها النَّاسُ اتقُوا ربَّكم الذى خلقكم من نَفْسٍ واحدةٍ وخَلَقَ منها زَوْجَها وبثَّ منهما رِجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحامَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيكُم رَقِيبا) (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصلِحْ لكُمْ أَعْمَالَكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكم وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيما) .

قال شعبة : قلت لأبى إسحق هذه فى خطبة النكاح أو فى غيرها ؟ قال : فى كل حاجة .

وقال : إذا أفاد أحدكم امرأة أو خادماً أو دابة فليأخذ بناصيتها وليدع الله بالبركة ويسمى الله عز وجل وليقل : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير ماجبلت عليه وأعوذ بك من شرها وشر ماجبلت عليه » .

ولا بد أن يكون كل علم يتعلمونه بلغتها ومصبوغا بصبغتها لينشأ الناشىء من الأمة ويكبر على دين أمته ، ومطبوعا بطابعها فيكون صورة طبق الأصل منها : يسعى لخيرها ويدافع عن كيانها . آه لو كان التعليم والتربية عندنا على هذا النظام الذى أمرنا به ديننا لما كان هذا حالنا من التأخر ولما أصبحنا فاقدين أعز شىء علينا وهو استقلالنا وحريتنا (ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار)

وكان يقول للمتزوج : « بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما فى خير » .

وقال : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فانه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره شيطان أبداً » .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فيما يعجبه أو يكرهه ﴾

عن أنس : « ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل ولا مال أو ولد فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت » . وقد قال تعالى : (وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إلا بالله) .

وصح عنه : « الرؤيا الصالحة من الله ؛ والرؤيا السوء من الشيطان ؛ فمن رأى ما يكره فلينفث عن يساره وليتعوذ من الشيطان ولا يخبر به أحداً ، ومن رأى حسنة فليستبشر وليخبر من يحب » .

قسم الجهاد والحرب

الجهاد أربع مراتب : جهادالنفس ، وجهادالشيطان ،وجهادالكفار، وجهاد المنافقين .

فجهاد النفس أربع : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذى لا سعادة لها فى معاشها ومعادها إلا به ، وأن يجاهدها على العمل به بعد علمه ، وأن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله ، وأن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة الى الله وأذى الخلق . فمن يستكمل هذه المراتب (الأربع) يكن من الربانيين .

وأما جهاد الشيطان فمرتبتان : جهاده على دفع ما يلقى من الشبهات والشكوك الفادحة فى الايمان ، وجهاده على ما يلقى من الارادات والشهوات . فالجهاد الأول يكون بعده اليقين ؛ والثانى بعد الصبر ؛ قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ). فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين . فالصبر يدفع الشهوات والارادات ، واليقين يدفع الشكوك والشبهات .

وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب : بالقلب ، واللسان ، والمال ، والنفس ، ومن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق ، ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة ولا الهجرة والجهاد إلا بالايمان .

والراجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة قال تعالى : (إنَّ

الذين آمنوا وَالذينَ هاجَرُوا وَجَاهَدوا فى سبيل اللهِ أولئك يَرْجُونَ رحمةَ اللهِ واللهُ غفورٌ رَحيم).

ففرض على كل أحد هجرتان فى كل وقت : هجرة الى الله عز وجل بالتوحيد ، والاخلاص ، والانابة ، والتوكل ، والخوف ، والرجاء ، والمحبة ، والتوبة ؛ وهجرة إلى رسوله بالمتابعة والانقياد لأمره وتقديم خبره على خبر غيره ؛ فمن كان هجرته الى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

وفرض عليه جهاد نفسه فى ذات الله ، وجهاد شيطانه . وكل هذا فرض عين ولا ينوب فيه أحد عن أحد .

وأما جهاد الكفار والمنافقين فقد يكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود ؛ وأكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد كلها ؛ والخلق متفاوتون فى منازلهم عند ربهم تفاوتهم فى مراتب الجهاد .

ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله (صلى الله عليه وسلم) فانه كمل مراتب الجهاد وجاهد فى الله حق جهاده من حين بعث الى أن توفاه الله عز وجل ؛ فانه لما نزل عليه (يا أيُّها المدَّثرُ قُمْ فأنْذِر) قام فى ذات الله أتم قيام ودعا إلى الله ليلا ونهاراً وسراً وجهاراً . فلما نزل (فَاصْدَعْ بما تُؤْمَر) صدع لا تأخذه فى الله لومة لائم . ولما صرح لقومه بالدعوة وناداهم بسب آلهتهم وعيب دينهم اشتد أذاهم عليه ومن استجاب له ، وهذه سنة الله فى خلقه كما قال تعالى : (ما يُقَالُ لكَ إلاَّ ما قد قِيلَ للرُّسُلِ من قَبْلك) (كذلك ما أتَى الذين مِنْ قَبْلِهِم مِن رَّسولٍ إلاَّ قالوا ساحِرٌ

أو مَجْنُونٌ أتَوَاصَوْا بِهِ! بل هم قومٌ طاغون) فعزى سبحانه نبيه بذلك وعزى أتباعه بقوله : (أمْ حَسِبْتُمْ أن تَدْخلوا الجنَّةَ وَلَمَّا يأتِكم مَثَلُ الذينَ خَلَوْا من قبلِكم مَسَّتْهم البَأْساءُ والضَّرَّاءُ وزُلزلوا حتى يقولَ الرسول والذين آمنوا معَهُ متى نَصْرُ الله ؟ ألا إنَّ نصرَ اللهِ قريب) وقوله : (الم أحَسِبَ النَّاسُ أن يُتْرَكوا أن يقُولوا آمَنَّا وهم لا يُفْتَنُونَ — الى قوله : وليَعْلَمَنَّ الله الذين آمنُوا وَليَعْلَمَنَّ المنافقين) .

وكان مما صنع الله أن الأوس والخزرج يسمعون من يهود المدينة أن نبياً من الأنبياء مبعوث فى هذا الزمان فنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم . وكانَ الأنصار يحجون البيت كالعرب دون اليهود، فلما رأوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدعو الناس الى الله عز وجل وتأملوا أحواله، قال بعضهم لبعض : تعلمون والله يا قوم أن هذا الذى توعدكم به يهود المدينة فلا يسبقنكم إليه فحالفوه جميعاً على أن ينصروه ؛ وهاجر إليهم بعد أن أقام بمكة ثلاث عشرة سنة يجاهد القوم بالقرآن كما قال تعالى: (وجاهِدْهمْ بهِ جِهاداً كبيراً)[1] .

---

(١) كان الجهاد بالقرآن لأن الغرض من الدين جذب الناس إلى الأعمال النافعة بالاختيار، ولا يكون ذلك إلا بالبراهين والمواعظ التى تقبلها عقولهم وتطمئن بها نفوسهم، ولم يكن الغرض من الدين جبر الناس وإكراههم على العقيدة ، لأن الاكراه على العقيدة لا يوجد الاقناع بها ولا ينتج العمل المطلوب منها ، ولذا يقول الله : (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) . ويقول : (إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) . ويقول : (وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) . ويقول : (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) . وأما الجهاد بالسيف والقوة الحربية فقد شرع فى الدين لحماية الدعوة والدفاع عن الامة والبلاد لا للاكراه على الاعتقاد لما

آخى (صلى الله عليه وسلم) بين المهاجرين والأنصار ووادع من في المدينة من اليهود، وكانوا ثلاث قبائل — بنو قينقاع، وبنو النضير وبنو قريظة — وكتب بينه وبينهم كتاباً فخانوه وحاربوه وظاهروا مشركي العرب عليه، فمنّ على بني قينقاع وأجلى بني النضير فنزلت فيهم سورة الحشر، وقتل بني قريظة وفيهم نزلت سورة الأحزاب.

علمت، ولا للاعتداء على غير المعتدين. قال تعالى: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله؛ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز). وقال: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين). وقال: (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين). والفتنة هي مايعمله الكفار لتنفير الناس من الدين وصدهم عنه. وقال: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين، وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين). وذكر الانفاق هنا بمناسبة القتال والحرب لأن الجيش المحارب يحتاج إلى إنفاق المال عليه بسعة وسخاء ليكون على الدوام قوياً، فالأمة من غير جيش قوي تكون عرضة للتهلكة والضياع يطمع فيها الطامعون من الأجانب ويبتلعها المبتلعون من الأعداء. قال تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لاتظلمون).

غزواته صلى الله عليه وسلم [1]

غزوة بدر

بلغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خبر العير المقبلة من الشام لقريش صحبة أبي سفيان. وهى العير التى خرجوا فى طلبها لما خرجت من مكة، وكانوا نحو أربعين رجلا وفيها أموال عظيمة لقريش، فندب رسول الله الناس للخروج إليها، وخرج فى ثلاث مئة وبضعة عشر رجلا لم يكن معهم من الخيل إلا فرسان.

---

(١) كانت غزواته نحو سبع وعشرين كلها بعد الهجرة — ولم يقاتل مشركى العرب إلا لأنهم أخرجوه من وطنه، ولا يزال فى حرب معهم حتى يتركوه حراً فى بلاده ولا يصادروه فى نشر دعوته، ولم يأذن الله له بالقتال إلا بعد أن أخرج هو وأصحابه من ديارهم وأموالهم. قال تعالى: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله).

فالرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يحارب الأعداء ولم يغزهم انتقاماً لشخصه ولا طمعاً فى أموالهم ولكن دفاعاً عن الدين والحرية — وإذا لم يكن الانسان حرا فى إظهار دينه وإصلاح أمته وبلاده فخير له أن يموت عزيزاً ولا يعيش ذليلا.

هذا وإن الحرب يتغير نظامها وآلاتها بتغير الأيام والعصور ويتجدد بتجدد الاكتشافات والفنون، وهى من القسم الذى جاء الدين فيه بالأصول والقواعد العامة كقوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة). وقوله: (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم). وقوله: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها). وقوله: (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء). وقوله: (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص). وقوله: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعلمون).

وغير ذلك مما تراه ممثلا فى غزوات الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أصول الأخلاق والسياسة.

وكان معهم سبعون بعيراً يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد .
فلما قرب من الصفراء بعث بسيس بن عمرو الجهني وعدى بن الرعباء يتجسسان أخبار العير .

وأما أبو سفيان فانه بلغه خروج رسول الله وقصده إياه ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى إلى مكة مستصرخاً لقريش بالنفير الى عيرهم ليمنعوها من محمد وأصحابه . وبلغ الصريخ أهل مكة فنهضوا مسرعين وأوعبوا فى الخروج فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبى لهب فانه عوض عنه رجلا كان له عليه دين وحشدوا من حولهم من قبائل العرب ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بنى عدى ، وخرجوا من ديارهم كما قال الله : (بَطَراً ورِئاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عن سبيلِ الله) .

ولما بلغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خروج قريش استشار أصحابه[1] . فتكلم المهاجرون فأحسنوا ، ثم استشارهم ثانياً فتكلموا أيضاً فأحسنوا ، ثم استشارهم ثالثاً ففهمت الأنصار أنه يعنيهم ، فبادر سعد بن معاذ فقال : يا رسول الله كأنك تعرض بنا .

وكان إنما يعنيهم لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود فى ديارهم ؛ فلما عزم على الخروج استشارهم ليعلم ما عندهم فقال له سعد : لعلك تخشى أن تكون الانصار ترى حقاً عليها ألا تنصرك إلا فى ديارهم ؛ وإنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ،

---

(١) وكان يستشيرهم فى كل الأمور العامة عملا بقوله تعالى : (وشاورهم فى الأمر) . وقوله : (وأمرهم شورى بينهم) .

وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك .

وقال له المقداد : لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى (إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون [1]) . ولكنا نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ، ومن بين يديك ، ومن خلفك ، فأشرق وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

---

(١) قال ذلك قوم موسى لأنهم جبناء تربوا تحت فراعنة مصر فى ذل واستعباد فماتت فيهم العواطف الوطنية وفقدوا الارادة والشجاعة وروح الدفاع . ولما أنقذهم موسى من مصر وسار بهم إلى وطنهم فى الشام قال لهم : (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون) . فكان فهمهم أن الجبارين الذين احتلوا أرضهم يخرجون منها من أنفسهم من غير أن تخرجهم قوة . . . وما علموا أن (الاحتلال) كداء السرطان إذا تمكن من الجسم لايخرج إلا بعمليات جراحية تقطع فيها أجزاء من الجسم ، وهيهات إن تغلغل فيه أن يخرج منه إلا بموته .

(قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : أدخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون * قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين * قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) .

أى جعلهم الله فى التيه فى البادية حتى ينقرض هذا الجيل الجبان ويأتى نسله فينشأ فى حرية البادية بعيداً عن الظلم المميت للارادة . ويتربى فى وسط النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس فيحيا بالروح الوطنية وينشأ على العزة والشجاعة والاقدام .

وسر بما سمع من أصحابه وقال: « سيروا وأبشروا فان الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، وإنى قد رأيت مصارع القوم »[١].

وخفض أبو سفيان ولحق بساحل البحر . ولما رأى أنه قد نجى وأخذ السير كتب إلى قريش أن ارجعوا فانكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم فأتاهم الخبر بالجحفة فهموا بالرجوع ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نقدم بدراً فنقيم بها ونطعم من حضرنا من العرب وتخافنا العرب بعد ذلك .

وأشار الأخنس بن شريق عليهم بالرجوع فعصوه فرجع هو وبنو زهرة فلم يشهد بدراً زهرى فاغتبطت بنو زهرة بعد برأى الأخنس فلم يزل فيهم مطاعاً معظما . وأراد بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل وقال : لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع ؛ فساروا .

وسار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى نزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر فقال: « أشيروا علىّ فى المنزل » . فقال الخباب بن المنذر يارسول الله أنا عالم بها وبقلبها إن أردت أن نسير إلى قلب قد عرفناها فهى كثيرة الماء عذبة فننزل عليها ونسبق القوم إليها ونغور ماسواها من المياه .

وسار المشركون سراعاً يريدون الماء .

---

(١) قال تعالى : (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) . والطائفتان — هما الطائفة التى كانت معها العير بالتجارة وليس معها قوة للحرب وهى غير ذات الشوكة — والطائفة التى جاءت من مكة بطلب أبى سفيان وكانت مستعدة بالرجال وأدوات الحرب وهى ذات الشوكة . وكان المسلمون يقصدون إلى الطائفة الأولى ولم يعلموا أن الطائفة الأخرى ستجىء فأراد الله أن يهلك ذات الشوكة ليحق الحق ويقطع دابر الكافرين كما قال عزوجل .

وبعث علياً وسعداً والزبير إلى بدر يلتمسون الخبر فقدموا بعبدين لقريش سألهما الرسول أين قريش؟ قالا: وراء هذا الكثيب، فقال: كم القوم؟ فقالا لا علم لنا، فقال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً عشراً ويوما تسعا. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) «القوم ما بين تسع مئة إلى الألف[1]».

وأنزل الله عز وجل فى تلك الليلة مطراً واحداً فكان على المشركين وابلاً شديداً منعهم من التقدم. وكان على المسلمين طلاً طهرهم به وأذهب عنهم رجس الشيطان ووطأ به الأرض وصاب به الرمل وثبت الأقدام ومهد به المنزل وربط به على قلوبهم[2]. فسبق رسول الله وأصحابه إلى الماء فنزلوا عليه شطر الليل وصنعوا الحياض. ثم غوروا ماعداها من المياه[3] ونزلوا على الحياض وبنى لرسول الله عريش يكون على تل مشرف على المعركة، ومشى فى موضع المعركة، وجعل يشير بيده ويقول: هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان إن شاء الله، فما تعدى أحد منهم موضع إشارته.

فلما طلع المشركون وتراءى الجمعان قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «اللهم هذه قريش جاءت بخيلها وفخرها، جاءت تحاربك وتكذب

---

(١) أنظر بحث الرسول «صلى الله عليه وسلم» وسياسته وفراسته.

(٢) قال تعالى: (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام).

(٣) عمل (صلى الله عليه وسلم) برأى ابن المنذر الذى أشار به سبق.

ولقد كان (صلى الله عليه وسلم) يرى غير مايرى أصحابه فيرجع عن رأيه لرأيهم لأن الأمر مادام ليس من الوحى فقد يكون بعض الصحابة أدرى به.

وفى هذا عبرة للرؤساء الذين يستبدون بالرأى ويحتقرون آراء ذوى الرأى فمن استبد ندم، ولا يندم من استشار.

رسولك . فقام ورفع يديه واستنصر ربه وقال : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى اللهم انى أنشدك عهدك ووعدك » . فالتزمه الصديق من ورائه وقال له يا رسول الله ابشر ، فو الذى نفسى بيده لينجزن الله لك ما وعدك ؛ واستنصر المسلمون الله واستغاثوه وأخلصوا له وتضرعوا فأوحى الله الى ملائكته (إِنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ) وأوحى الى رسوله (إِنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ) قرىء بكسر الدال وفتحها ، فقيل المعنى أنهم ردف لكم ؛ وقيل يردف بعضهم بعضاً ارسالا لم يأتوا دفعة واحدة .

بات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصلى إلى جذع شجرة هنالك وكان ليلة الجمعة السابع عشر من شهر رمضان فى السنة الثانية ، فلما أصبحوا أقبلت قريش فى كتائبها واصطف الفريقان فنشبت الحرب وعدل رسول الله الصفوف [٢] ثم رجع الى العريش هو وأبو بكر ؛ وقام سعد بن معاذ فى

(١) بعد ذلك قال الله تعالى : (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) .

(٢) قال الله تعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) — وقد علم الله المسلمين كيف يضربون الأعداء المحاربين فقال : (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) .

والبنان طرف الأصبع وهذا غاية ما فى الأمر بابادتهم حتى لا يتركوا منهم طرف أصبع يبقى ، وفيه الأمر بالدقة فى الحرب وتعليم الرامى والضارب أن يكون على علم بالرمى والضرب حتى يصيب المرمى ولا يفر أحد من يده .

فانظر بلاغة القرآن وأمر الله للمؤمنين أن يكونوا بارعين فى علوم الحرب التى يحفظ بها كيان الأمة وقال تعالى : (فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون) . أى اضربهم الضربة التى تجعل من خلفهم إذا رأوها يفرون ولا يقدمون وقال : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم

قوم من الأنصار على باب العريش يحمونه ؛ ثم استدارت رحى الحرب واشتد القتال وأخذ رسول الله فى الدعاء والابتهال ومناشدة ربه عز وجل حتى سقط رداؤه عن منكبيه فرده عليه الصديق وقال خفض

الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) . وهذا أمر يبعث فى المسلمين روح السجاعة ويحضهم على مواجهة العدو فى الحرب ولا يبيح لأحد منهم أن يعطى ظهره للأعداء إلا إذا كان يريد أن يتحرف أى يعدل نفسه للقتال أو يتحيز ينضم إلى فرقة من إخوانه ولا ينبغى له أن يعطى ظهره ليفر أو يهرب وينهزم وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين * ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط * وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب)

وقال تعالى : (يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين : وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون * الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فان يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين)

وفى هذه الآية يبين الله تعالى أن من شأن المؤمن الكامل الايمان أن يغلب عشرة من الكفار فى الحرب وسيكون ذلك بعد أن يقوى المؤمنون فى الايمان بالأعمال التى تربى فيهم الصبر والارادة . أما الآن فى أول الايمان وابتداء الحرب فإن الواحد يغلب اثنين — والآية تخبر عن حالة المؤمن فى الضعف وفى القوة . وقد فهم بعض الناس أن الأمر تكليف من الله للمؤمن فى أول الحرب أن يغلب عشرة ثم نسخ ذلك بان كلفه أن يغلب اثنين، وليس لهذا الفهم معنى فى الآية ولم يكن الله يكلف المؤمنين شيئاً ليس فى وسعهم وهو يقول: (وعلم أن فيكم ضعفا) ويقول: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) وهو العليم الحكيم فكيف يكلف وينسخ فى الحال . . هذا لا يكون .

مناشدتك ربك فانه منجز لك ماوعدك؛ فأغفى رسول الله إغفاءة واحدة وأخذ القوم النعاس فى حال الحرب (١) ثم رفع رسول الله رأسه فقال : أبشر ياأبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع! وجاء النصر وأنزل الله جنده وأيد رسوله والمؤمنين ومنحهم أكتاف المشركين أسراً وقتلا ، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين .

ولما بردت الحرب وولى المشركون منهزمين قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : من ينظر لنا ماصنع أبو جهل ؟ فانطلق عبد الله بن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد وأخذ بلحيته فقال : أنت أبو جهل ! فقال: لمن الدائرة اليوم؟ فقال: لله ولرسوله ، وهل أخزاك الله ياعدو الله ؟! فقال : وهل فوق رجل قتله قومه ؛ فقتله عبدالله ثم أتى به الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال: قتلته فقال : الله الذى لا إله إلا هو فردده اثلاثا. قال : الله أكبر الحمد لله الذى صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، انطلق أرنيه فلما رآه قال : هذا فرعون هذه الأمة.

ولما انقضت الحرب ارتحل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قرير العين بنصر الله له ومعه الأسارى والمغانم ، فلما كان بالصفراء قسم المغانم (٢) ودخل المدينة مؤيداً منصوراً قد خافه كل عدو له . فأسلم كثير من أهل المدينة وحينئذ دخل عبدالله بن أُبيّ المنافق فى الاسلام ظاهراً .

---

(١) قال الله تعالى : (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) .

(٢) قال الله تعالى : (فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم). وقال تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير) .

وجملة من حضر بدراً من المسلمين ثلاث مئة وبضعة عشر رجلا جاءهم النفير بغتة ولم يكن عزمهم على اللقاء ولا أعدوا له عدة؛ ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد (١) . واستشهد منهم يومئذ أربعة عشر وفرغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من شأن بدر والأسارى في شوال والقصة في سورة الأنفال (٢) .

﴿ غزوة أحُد ﴾

لما قتل الله أشراف قريش ببدر ، وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلها ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم أخذ يؤلب على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعلى المسلمين فجمع قريباً من ثلاثة آلاف من

---

(١) قال الله تعالى : (ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور. وإذا يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور) .

(٢) العبرة من هذه القصة أن فئة قليلة غلبت فئة كثيرة قال تعالى : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) .

وذلك نتيجة الاخلاص لله تعالى والاتكال عليه والاستعانة به مع الأخذ بالأسباب التي أمر بها ولا تنس شجاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحسن سياسته وتأمل كيف أجابه أصحابه لما عرض الأمر عليهم — أجابوه بقلوب ملؤها الايمان ونفوس اطمأنت للدفاع عن عزتها وشرفها ، فما وجدت هذه النفوس في أمة إلا عزت . ولن يستطيع كافر أن يتسلط عليها أو يهين كرامتها مهما كانت قوته قال الله تعالى : (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) . وقال : (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) وقال : (ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين) .

قريش والحلفاء [١] والأحابيش،وجاءوا بنسائهم لئلايفروا ليحاموا عنهن. ثم أقبل بهم نحو المدينة فنزل قريباً من جبل أُحُد بمكان يقال له عينين وذلك فى شوال من السنة الثالثة .

واستشار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أصحابه : أيخرج اليهم أم يمكث فى المدينة ؟ وكان رأيه ألاّ يخرج من المدينة وأن يتحصنوا بها ، فان دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت ووافقه على هذا الرأى عبد الله بن أبى فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاتهم الخروج يوم بدر ، وأشاروا عليه بالخروج فنهض ودخل بيته ولبس لامته [٢] وخرج فى ألف من الصحابة واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقى فى المدينة فخرج يوم الجمعة .

فلما صار بالشوط بين المدينة وأحُد انعزل عبد الله بن أبى بنحو ثلث العسكر ، وقال: تخالفنى وتسمع من غيرى فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حزام يوبخهم ويحضهم على الرجوع ويقول: تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم انكم تقاتلون لم نرجع [٣] فرجع وسبهم . وسأله قوم من الانصار أن يستعينوا بحلفائهم من اليهود فأبى .

---

(١) ذكرتنى هذه الكلمة كلمة (الحلفاء) بالحلفاء فى أوربة هذه الأيام وما يفعلونه من الكيد لنا والقضاء على استقلالنا ، فقلت: ياسبحان الله تكون هذه الكلمة مصيبة علينا فى كل زمان . وماهؤلاء إلا حلف لأولئك « أتواصوا به ؟ ! بل هم قوم طاغون».

(٢) لباسه الحربى .

(٣) قال الله تعالى : (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون) .

ونفذ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادى وجعل ظهره الى أحد ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم؛ فلما أصبح يوم السبت تعبى للقتال وهو فى سبع مئة فيهم خمسون فرسا واستعمل على الرماة — وكانوا خمسين — عبد الله بن جبير وأمره وأصحابه أن يلزموا مركزهم وأن لا يفارقوه، ولو رأى الطير تتخطف العسكر وكانوا خلف الجيش [1]، وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم.

فظاهر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بين درعين يومئذ [2]

---

(١) ليحفظوا خط الرجعة على الجيش كما يقول علماء الفن فى الحرب.
فتأمل هذا النظام فى الحرب والعلم به والمنظم هو الرسول (صلى الله عليه وسلم) الرئيس الدينى. فلعل رؤساءنا يتذكرون وقد وقفوا علمهم وحياتهم على ما يعلمون ...

(٢) الدرع: لبوس من الحديد يتقى به المحارب بأس الحرب، قال الله تعالى فى قصة داود عليه السلام: (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) وقال: « وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد » ومعنى سابغات سبغ من يلبسها أى تعمه وتحيط به حتى تحصنه تمام التحصين من الضربات التى تقع به أو المقذوفات التى تنزل عليه — ومعنى قدر فى السرد نظم فى النسيج وأحكم فى الصنعة.

وهذا يبين أن أنبياء الله لم يأتوا للناس بالصوم والصلاة فقط وإنما جاءوهم بكل ما يحتاجون إليه فى أمورهم الدنيوية ونظامهم الحيوى وبعض الناس فهم من قوله: (وألنا له الحديد) ان الله ألان الحديد لداود معجزة — أى من غير سبب كون على فهمهم — وهذا لا حاجة إليه إذ المعجزة التى يقولون عنها يأتى بها النبى للقوم عند ما يكذبونه فى الدعوة وهنا يبين الله لنا أنه علم داود الصناعة « لا المعجزة ».

ولم لا يكون إلهام داود بالتجربة بان يلين الحديد بالنار هو المعجزة كالمعجزات الصناعية التى تعجزنا بها الآن أوربة وأمريكة!! ولكن ماذا نصنع في القوم الذين

وأعطى اللواء مصعب بن عمير ؛ واستعرض الشبان يومئذ فرد من استصغره عن القتال — وكان منهم عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت وأسيد بن ظهير والبراء بن عازب وزيد بن أرقم وعرابة بن أوس وعمرو ابن حزام [١] — وأجاز من رآه مطيقاً وكان منهم سمرة بن جندب ورافع ابن خديج ولهما خمس عشرة سنة .

وتعبت قريش للقتال — وهم فى ثلاثة آلاف وفيهم مئتا فارس — فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل. ودفع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سيفه الى أبى دجانة سماك بن خرشة ـ وكان شجاعاً بطلا يختال عند الحرب ـ ثم قاتل المسلمون قتالا شديداً .

وكان شعار المسلمين يومئذ: (أمت أمت !). وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار فانهزم عدو الله وولوا مدبرين حتى انتهوا الى نسائهم ؛ فلما رأى الرماة هزيمتهم تركوا مركزهم الذى أمرهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بحفظه وقالوا ياقوم : الغنيمة ! الغنيمة ! فذكرهم أميرهم عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلم يسمعوا وظنوا أن ليس

يجعلون كل ما يأتى به الأنبياء من الأعمال معجزات خصهم الله بها ولا سبب لها ولا حاجة لنا اليها — فلاهم فهمنا أسرار ذلك حتى نبحث فى سنن الكون ونتعلم الصناعات المفيدة لأمتنا والفنون المقدمة لبلادنا — وقال تعالى : (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) .

(١) تأمل كيف كان الصغار عن القتال يهرعون إليه ويجودون بأرواحهم حباً فى الله ورسوله ودفاعا عن دينهم وشرفهم فهم صغار الأجسام لكنهم كبار النفوس !

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

ونحن إذا أخذوا منا رجلا (للجندية) يتبعه أهله يصيحون من حوله ؛ وبعضهم يعتذر عن ذلك بأنه لا يؤخذ للدفاع عن الوطن ولكن ليسخره (المحتلون) فيما يريدون . .

للمشركين رجعة فذهبوا فى طلب الغنيمة وأخلوا الثغر.

وكر فرسان المشركين فوجدوا الثغر خالياً قد خلا من الرماة فجازوا منه وتمكنوا حتى أقبل آخرهم فأحاطوا بالمسلمين فأكرم الله من أكرمهم منهم بالشهادة وهم سبعون ، وولى الصحابة.

وخاص المشركون إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فجرحوا وجهه وكسروا رباعيته[1] اليمنى ، وكانت السفلى ، وهشموا البيضة على رأسه ورموه بالحجارة حتى وقع لشقه وسقط فى حفرة من الحفر التى كان أبو عامر الفاسق يكيد بها المسلمين ، فأخذ علىّ بيده واحتضنه طلحة بن عبيد الله ؛ وقتل مصعب بن عمير بين يديه فدفع اللواء إلى علىّ بن أبى طالب ؛ ونشبت حلقتان من حلق المغفر فى وجهه فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح وعض عليهما فسقطت ثنيتاه من شدة غوصهما فى وجهه ؛ وامتص مالك بن سنان — والد أبى سعيد الخدرى — الدم من وجنته ، وأدركه المشركون يريدون ما الله حائل بينهم وبينه فحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة حتى قتلوا! ثم جالدهم طلحة حتى أجهضهم عنه ، وترس أبو دجانة بظهره عليه والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك !! وصرخ الشيطان بأعلى صوته: إن محمداً قد قتل ، ووقع ذلك فى قلوب كثير من المسلمين وفر أكثرهم (وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً).

ومر أنس بن النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم فقال: ما تنتظرون؟ فقالوا: قتل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: ما تصنعون بالحياة بعده! قوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم استقبل الناس ولقى سعد ابن معاذ فقال: ياسعد إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد ؛ فقاتل حتى قتل ووجد به سبعون.

---

(١) إحدى أسنانه التى بعد الثنيتين — الاماميتين

ضربة، وجرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف نحواً من عشرين جراحة [١].

وأقبل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نحو المسلمين – وكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك فصاح بأعلى صوته: يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأشار بيده أن اسكت. واجتمع إليه المسلمون ونهضوا معه إلى الشعب الذى نزل فيه؛ وفيهم أبو بكر وعمر وعلىّ الحرث بن الصمة الأنصارى وغيرهم؛ فلما امتدوا إلى الجبل أدرك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أبى بن خلف على جواد له يقال له (العود) كان يعلفه بمكة ويقول: أقتل عليه محمداً؛ فلما اقترب منه تناول (صلى الله عليه وسلم) الحربة من الحرث بن الصمة فطعنه بها فجاءت فى

(١) الناظر إلى الحادثة بغير اعتبار يقول: كيف ينهزم جيش فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويصاب بما أصيب؟! ولو علم هذا الناظر أن الله تعالى يريد أن يعلم المسلمين أن الجيش متضامن وأن تفريط بعض الجيش فى الخطط المرسومة يهزم الجيش فينشأ المسلمون من ذلك على النظام والأخذ بأسباب النصر العملية.

ومما يناسب المقام، لتطبيق العبرة، أن تركية لما كانت تحارب بعض الأعداء طلبت من العالم الاسلامى أن يمدوها بالمال لتنفق على الجيش وتأتى بالذخيرة والأسلحة المقابلة لأسلحة الأعداء؛ وكان مما أمدها به بعض علمائنا أنهم جلسوا فى الازهر يقرءون (البخارى) فكان مثلهم كمن خرجوا لمقابلة نابليون يوم دخوله مصر فاتحا يدفعونه «بالبخارى فى أيديهم» فلما بلغ نابليون أن معهم البخارى قال: البخارى هذا قوة كم؟.. فقيل له ذا كتاب.. فقال: كتاب! وضحك...

فكأن أولئك الذين كانوا يقرءون البخارى يفهمون أنه يغنى عن المدفع فى يد المسلمين ويمد جيشهم بالغذاء والمؤونة — وقد نشأ من هذا عند بعض الناس عقيدة أن البخارى يمنع الحريق من البيت الذى يوضع فيه وغير هذا مما ترك الناس به الأسباب الصحيحة. وما كتاب البخارى إلا مجموعة أحاديث مما قاله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وها هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بنفسه — وهو أكرم الخلق على الله — قد أصيب بما أصيب وانهزم جيشه! فلو كانت القراءة أو الألفاظ تقوم مقام السلاح والنظام فى الحرب لكان رسول الله أولى بأن يفعل ذلك؛ فليعتبر المعتبرون.

ترقوته فكرّ منهزماً فأيقن بأنه مقتول من ذلك الجرح فمات منه فى طريقة بسرف مرجعه إلى مكة.

أراد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يعلو صخرة هنالك فلم يستطع اا به ؛ فجلس طلحة تحته حتى صعدها وحانت الصلاة فصلى بهم جالساً ؛ وصار ذلك اليوم تحت لواء الأنصار

وقتل المسلمون حامل لواء المشركين فرفعته لهم عمرة بنت علقمة الحارثية حتى اجتمعوا إليه ، وقاتلت أم عمارة — وهى نسيبة بنت كعب المازنية — قتالاً شديداً ، وضربت عمرو بن قمأة بالسيف ضربات فوقته درعان كانتا عليه ، وضربها عمرو بالسيف فجرحها جرحاً شديداً على عاتقها.

ولما انقضت الحرب أشرف أبو سفيان على الجبل فنادى: أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه ؛ فقال : أفيكم ابن أبى قحافة؟ فلم يجيبوه ؛ فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيبوه ؛ ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الاسلام بهم ؛ فقال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم ؛ فلم يملك عمر نفسه أن قال : ياعدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء وقد أبقى الله لك ما يسوؤك!!...

فقال: اعل هُبل[1] فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): ألا تجيبونه ! فقالوا: مانقول ؟ قال : قولوا له: الله أعلى وأجل ؛ ثم قال : لنا العُزّى[1] ولا عزّى لكم! قال: ألا تجيبونه! قالوا: فما نقول؟ قال: قولوا : ألله مولانا ولا مولى لكم.

ثم قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ؛ والحرب سجال ؛ فأجابه عمر فقال : لاسواء ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار .

وقال ابن عباس : مانصر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى موطن

---

(١) من معبوداتهم

نصره يوم أحد ! فأنكر ذلك عليه ؛ فقال : بيني وبين من أنكر كتاب الله ؛ إن كتاب الله يقول : (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ) والحس القتل ؛ ولقد كان لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة — وذكر الحديث — وأنزل الله عليهم النعاس أمنة منه في غزاة بدر وأحد — والنعاس في الحرب وعند الخوف دليل على الأمن وهو من الله — وفي الصلاة ومجالس الذكر والعلم من الشيطان.

وفي الصحيحين عن أبي حازم أنه سئل عن جرح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: والله إني لأعرف من كان يغسل الجرح ومن كان يسكب الماء وبما دُووِيَ — كانت فاطمة ابنته تغسله ؛ وعليّ بن أبي طالب يسكب الماء ؛ فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها فألصقتها فاستمسك الدم.

وفي الصحيح أنه كسرت رباعيته وشج في رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول: « كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم! » ؛ فأنزل الله عز وجل (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ).

ولما انهزم الناس لم ينهزم أنس بن النضر ، وقال : « اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء — يعني المسلمين — وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء — يعني المشركين » . ونظر حذيفة إلى أبيه والمسلمون يريدون قتله ، وهم يظنونه من المشركين ، فقال : أي عباد الله ؛ أبي ! فلم يفهموا قوله حتى قتلوه . فقال: يغفر الله لكم ، فأراد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يديه ؛ فقال :

قد تصدقت بديته على المسلمين؛ فزاد ذلك حذيفة خيراً عند النبي (صلى الله عليه وسلم).

وقال زيد بن ثابت: بعثني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم أحد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي إن رأيته فاقرئه مني السلام وقل له يقول لك رسول الله (صلى الله عليه وسلم): كيف تجدك؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بآخر رمق وفيه سبعون ضربة؛ مابين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم؛ فقلت: ياسعد إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقرأ عليك السلام ويقول: أخبرني كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) السلام؛ قل له: يارسول الله أجد ريح الجنة؛ وقل لقومي الأنصار: لاعذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفيكم عين تطرف [1] وفاضت نفسه من وقته [1].

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار ـ وهو يتشحط في دمه فقال: يافلان أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بلّغ فقاتلوا عن دينكم؛ فنزل (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ! وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ).

قال الزهري وغيره: كان يوم أُحُد يوم بلاء وتمحيص اختبر الله عز وجل به المؤمنين وأظهر به المنافقين ممن كان يظهر الاسلام بلسانه وهو مستخف بالكفر؛ فأكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل

---

(١) أي لاينبغي أن تتركوا أحداً يصل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليؤذيه حتى تموتوا دونه؛ فاذا متم وتمكن الأعداء منه بعد موتكم يكون لكم عذر!! فلله هذه النفس، فيا أيتها النفس الأبية: «إرجعي إلى ربك راضية مرضية».

ولايته . وكان مما نزل من القرآن فى يوم أُحُدٍ ستون آية من آل عمران — أولها (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) . إلى آخر القصة .

﴿ بعض الحكم المقصودة من القصة ﴾

منها تقريعهم بسوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع ؛ وأن الذى أصابهم إنما هو بشؤم ذلك كما قال تعالى: (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ * مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ). فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول وتنازعهم وفشلهم كانوا بعد ذلك أكثر حذراً ويقظة وتحرزاً من أسباب الخذلان .

ومنها أن سنة الله فى رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم أخرى ؛ لكن يكون لهم العاقبة؛ فانهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المسلمون وغيرهم ولم يتميز الصادق من غيره ؛ ولو انتصر عليهم دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة ، فاقتضت حكمة الله أن يجمع بين الأمرين : ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاءوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة .

ومنها أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب : فان المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر وطار بهم الصيت دخل معهم فى الاسلام ظاهراً من ليس معهم فيه باطنا ، فاقتضت حكمة الله أن سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق ؛ فأطلع المنافقون رؤوسهم فى هذه

الغزوة وتكلموا بما كانوا يكتمونه وظهرت مخبآتهم وعاد تلويحهم صريحاً وعرف المؤمنون أن لهم عدواً فى نفس دورهم فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم قال تعالى : (ما كَانَ اللهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ) . ومنها أنه سبحانه لو نصرهم دائماً وأظفرهم بعدوهم فى كل موطن لطغت نفوسهم وشمخت ؛ ولو بسط لهم النصر لكانوا فى الحال التى يكونون فيها لو بسط لهم الرزق(1) فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء، والشدة والرخاء، والقبض والبسط ، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته .

ومنها أنه سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء ، ويجعل أسباباً لاهلاك الأعداء . وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك فى قوله : (ولاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ) .

وقد أنكر اللهُ على المؤمنين حسبانهم وظنهم أنهم يدخلون الجنة بدون الجهاد والصبر على أذى أعدائه فقال: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِين) . أى ولما يقع ذلك منكم فيعلمه، فانه لو وقع لعلمه فجازاكم عليه بالجنة فيكون الجزاء على الواقع المعلوم لا على مجرد العلم فان الله لا يجزى العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه

(1) قال الله تعالى : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير » .

ثم وبخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودون لقاءه فقال: (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ).

ومنها أن غزوة أحد كانت مقدمة بين يدي موت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنبأهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم - إن مات رسول الله أو قتل - بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه أو يقتلوا؛ فانهم إنما يعبدون رب محمد وهو حي لا يموت — وما بعث محمد (صلى الله عليه وسلم) إليهم ليخلد لا هو ولا هم؛ بل ليموتوا على الاسلام والتوحيد؛ فان الموت لا بد منه (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ).

والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا، فظهر أثر هذا العتاب وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وارتد من ارتد على عقبيه وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله وأعزهم وظفرهم بأعدائهم وجعل العاقبة لهم.

ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلاً لا بد أن تستوفيه ثم تلحق به، فيرد الناس كلهم حوض المنايا مورداً واحداً وإن تنوعت أسبابه ويصدرون عن موقف القيامة مصادر شتى: فريق في الجنة وفريق في السعير[1].

ثم أخبر سبحانه أن جماعة كثيرة من أنبيائه قتلوا وقتل معهم كثيرون فما وهن من بقي منهم لما أصابهم في سبيله وما ضعفوا وما استكانوا وما

---

(١) فقال: (وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتابا مؤجلا، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين).

وهنوا عنـد القتل ولا ضعفوا ولا استكانوا ؛ بل تلقوا الشهادة بالقوة والعزيمة والاقدام فلم يستشهدوا مدبرين مستيكنين أذلة؛ بل استشهدوا أعزة كراماً مقبلين غير مدبرين [١] .

ثم عزى الله نبيه وأولياءه عمن قتل منهم في سبيله أحسن تعزية وألطفها وأدعاها إلى الرضا بما قضاه لهم فقال: (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) .

* غزوة المُريسيع *

كانت في شعبان سنة خمس، وسببها أن الحرث بن أبي ضرار ـ سيد بني المصطلق ـ سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريد حرب الرسول (صلى الله عليه وسلم) فلما بلغه ذلك خرج له وخرج معهم جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قبلها . واستعمل على المدينة زيد بن حارثة.

ولما انتهى (صلى الله عليه وسلم) الى المريسيع، وهو مكان الماء، تفرق جيش الحرث فأغار عليهم وسبي منهم ـ كما ذكر في الصحيح .

وكان من جملة السبي جويرة بنت الحرث سيد القوم وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها فأدى عنها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتزوجها فاعتق المسلمون ؛ بسبب هذا التزويج، مئة أهل بيت من بني المصطلق قد

---

(١) فقال: (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) .

أسلموا وقلوا أصهار رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وفى هذه الغزوة كانت قصة الافك: وذلك أن عائشة رضى الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى هذه الغزوة بقرعة أصابتها ـ وكانت تلك عادته مع نسائه ـ فلما رجعوا من الغزوة نزلوا فى بعض المنازل فخرجت عائشة لحاجتها ففقدت عقداً لأختها كانت أعارتها إياه فرجعت تلتمسه فى الموضع الذى فقدته فيه فى وقتها، فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هودجها فظنوها فيه فحملوه وساروا ولم ينكروا خفته لأنها كانت فتية السن لم يغشها اللحم الذى يثقلها — ولكثرة النفر.

وكان صفوان بن المعطل فى أخريات الجيش فلما رآها عرفها ـ وكان يراها قبل نزول الحجاب ـ فقال: إنا لله وإنا اليه راجعون، وأناخ راحلته وقربها فركبتها، وما كلمها كلمة، ثم سار بها يقودها حتى قدم بها. فلما رأى ذلك الناس تكلم كل بشاكلته وما يليق به، ووجد الخبيث ابن أُبَيّ متنفساً من كرب النفاق فجعل يشيع الافك.

فلما قدموا المدينة أفاض أهل الافك فى الحديث ورسول الله ساكت، فاستشار الصحابة فأشار علىّ بفراقها تلويحاً، وأشار أسامة وغيره بامساكها — فعلىٌّ لما رأى أن ما قيل مشكوك فيه أشار بترك الريبة الى اليقين ليتخلص الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الغم الذى لحقه من كلام الناس، وأسامة لما علم حب الرسول لها ولأبيها وعلم عفتها وأنها فوق ذلك وأن الرسول أكرم على الله أن يجعل تحته بغياً قال كما قال سادات الصحابة لما سمعوا ذلك: « سبحانك هذا بهتان عظيم !! ».

وقد حبس الوحى عن الرسول شهراً ثم ابتدأه ببراءتها [١] .

ولما برأها الوحى قالا لها أبوها: قومى إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذى أنزل براءتى ؛ فأظهرت توليتها النعمة لربها وإفراده بالحمد فى ذلك المقام وإدلالها ببراءة ساحتها وأنها لم تفعل ما يوجب قيامها فى مقام الراغب فى الصلح ؛ وهذا غاية الثبات .

ولما ثبتت براءتها بالوحى أمر رسول رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، بجلد الذين ثبت عليهم أنهم رموها فجلدوا ثمانين جلدة [٢] .

﴿ غزوة الخندق ﴾

كانت فى شوال سنة خمس ؛ وسببها أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المؤمنين يوم أحد وعلموا بميعاد أبى سفيان ورجوعه للعام المقبل خرج أشرافهم إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويوالونهم عليه ؛ فأجابتهم قريش . ثم خرجوا إلى غطفان وطافوا فى قبائل العرب يدعونهم الى ذلك فاستجاب لهم من استجاب : فخرجت قريش فى أربعة آلاف يقودهم أبو سفيان ؛ ووافاهم بنو سليم ؛ وأسد ؛ وفزارة ؛

(١) فى القصة ست عشرة آية فى سورة النور قال تعالى: (إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم . والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم — إلى أن قال: أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) .

(٢) قال الله تعالى : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم) .

وأشجع . وجاءت غطفان بقيادة عيينة بن حصن ؛ ووافى الخندق من الكفار عشرة آلاف .

فلما سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمسيرهم إليه استشار أصحابه فأشار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة؛ فأمر به وبادر إليه المسلمون وعمل فيه الرسول بنفسه ، ثم خرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين ، وعندئذ بلغه خبر بنى قريظة ونقضهم للعهد فبعث إليهم السعدين وخوات بن جبير وعبد الله بن رواحة ليعرفوه : هل هم على عهدهم أو قد نقضوه ؟ فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون وجاهروهم بالسب والعداوة ونالوا من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فانصرفوا عنهم ولحنوا الى الرسول لحناً [1] يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد وغدروا فعظم ذلك على المسلمين واشتد البلاء وتجهر النفاق واستأذن بعض بنى حارثة الرسول فى الذهاب إلى المدينة بدعوى (أن بيوتهم عورة [2] وماهى بعورة إن يريدون إلا فراراً)وأقام المشركون محاصرين المسلمين شهراً .

ولما طالت هذه الحال على المسلمين أراد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يصالح عيينة بن حصن والحرث بن عوف رئيسى غطفان على ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما؛ وجرت المفاوضة على ذلك . ثم استشار السعدين [3] فقالا : يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة؛ وإن كان شىء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه؛ لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة الا قِرًى أو بيعاً فحين

---

(١) قولا لا يفهمه غيره (٢) ناقصة التحصين (٣) سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة رئيسى الأنصار أنظر — جوابهما يمثل لك الشجاعة والايمان .

أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف، فصوب رأيهما وقال: « إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة » .

ثم إن الله عز وجل صنع ما خذل به العدو وهزم جموعهم وفل حدهم؛ فكان مما هيأ من ذلك أن رجلا من غطفان يقال له (نعيم) بن مسعود ابن عامر جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وقال: إني أسلمت فمرني بما شئت ؛ فقال : « إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فان الحرب خدعة » فذهب من فوره إلى بني قريظة ؛ وكان عشيراً لهم في الجاهلية ؛ فدخل عليهم وهم لا يعلمون باسلامه ؛ فقال : إنكم قد حاربتم محمداً وإن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا استمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمداً فانتقم منكم ؛ قالوا : فما العمل يا نعيم ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن ؛ قالوا : لقد أشرت بالرأي ؛ ثم مضى على وجهه إلى قريش ؛ قال: تعلمون ودي ونصحي لكم ؟ قالوا نعم ، قال : إن اليهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه ، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم ، فان سألوكم رهائن فلا تعطوهم ، ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك .

فلما كانت ليلة السبت من شوال بعثوا إلى اليهود : إنا لسنا بأرض مقام ، وقد هلك الكراع والخف ، فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً ، فأرسل إليهم اليهود : إن اليوم يوم سبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ؛ ومع هذا فانا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن .

فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش : صدقكم والله نعيم ! فبعثوا إلى

اليهود : إنا والله لانرسل إليكم أحداً فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً ؛ فقالت قريظة : صدقكم والله نعيم ! فتخاذل الفريقان .

وأرسل الله على المشركين جنداً من الريح والملائكة وكفى نبيه القتال ؛ وهزم الأحزاب وحده .

فدخل المدينة ووضع السلاح فجاءه جبريل عليه السلام : إن الملائكة لم تضع بعد أسلحتها ، إنهض إلى غزوة بنى قريظة ، فنادى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة ! فخرج المسلمون سراعاً فقتلوا منهم من قتلوا وأسروا منهم من أسروا وأورثهم الله أرضهم وأموالهم . وهاتان الغزوتان فى سورة الأحزاب [١] .

﴿ غزوة الحديبية ﴾

كانت فى ذى القعدة سنة ست ، وذلك أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) خرج معتمراً فى أربعمائة وألف نفر ، فلما كانوا بذى الحليفة قلد الهدى وأشعره وأحرم بالعمرة وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن

---

(١) فى قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ☆ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ☆ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً — إلى قوله : ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ☆ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من « صياصيهم » وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شىء قديرا) .

والصياصى : هى الحصون الحربية التى بها عزة القوم ورفعتهم .

قريش،حتى إذا كان قريباً من عسفان أتاه عينه فقال :إنى تركت كعب ابن لؤى قد جمعوا لك جموعاً وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فاستشار النبي أصحابه وقال : «أترون أن نميل إلى ذرارى الذين أعانوهم فنصيبهم،فان قعدوا قعدوا موتورين محزونين،وإن نجوا يكن عنق قطعها الله ؟ أم ترون أن نؤم هذا البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ فقال أبو بكر: إنما جئنا معتمرين ولم نجىء لقتال أحد ! ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): فروحوا إذاً : فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي (صلى الله عليه وسلم): إن خالد بن الوليد فى خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين، فانطلق يركض نذيراً لقريش ففزعت لنزوله عليهم فأرسل إليهم وهو بأقصى الحديبية عثمان بن عفان: «إنا لم نأت لقتال وإنما جئنا عماراً وادعهم إلى الاسلام» فقالوا : قد سمعنا ما تقول فانفذ لحاجتك ؛ وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به! فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم): ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون.

واختلط المسلمون بالمشركين فى أمر الصلح فرمى رجل من أحد الفريقين رجلا من الفريق الآخر،وكانت معركة وتراموا بالنبل والحجارة وارتهن كل واحد بمن فيهم. وبلغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن عثمان قد قتل فدعا إلى البيعة فثار المسلمون إليه وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألاّ يفروا .

رجع عثمان وقال: لقد دعتنى قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت .

جرى الصلح بين النبي (صلى الله عليه وسلم) وأهل مكة فطلبوا منه كتاباً فدعا الكاتب فقال: «أكتب : بسم الله الرحيم ، فقال سهيل

ابن عمرو : أما الرحمن فوالله لا ندرى ما هو! ولكن اكتب باسمك اللهم؛ فقال المسلمون: والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم؛ فقال النبي: اكتب باسمك اللهم؛ ثم قال اكتب «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: فوالله لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت ولا قاتلناك! ولكن اكتب محمد بن عبد الله؛ فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): إنى رسول الله وإن كذبتمونى! اكتب محمد بن عبدالله ـ على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به ـ فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب: أنا أخذنا ضغطة! ولكن ذلك من العام المقبل؛ فكتب. فقال سهيل. على ألا يأتيك رجل منا وإن كان على دينك إلا رددته الينا؛ فقال المسلمون : سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما؟!!

وقد تم الصلح على وضع الحرب عشر سنين؛ وأن يأمن الناس بعضهم من بعض؛ وأن يرجع عنهم عامه ذلك حتى إذا كان العام المقبل قدموا أخلوا بينه وبين مكة فأقام بها ثلاثا؛ وألا يدخلها بسلاح الراكب والسيوف فى القرب؛ وأن من أتاهم من أصحابه لا يردونه عليه؛ ومن أتاه من أصحابهم يرده عليهم. قال الصحابة: يارسول الله نعطيهم هذا؟ قال من أتاهم منا فأبعده الله، ومن أتانا منهم فرددناه إليهم جعل الله له فرجا ومخرجا (١)

---

(١) قبل (صلى الله عليه وسلم) هذه الشروط لأن له أغراضا يرى الوصول اليها بالصلح أقرب من الحرب، ومن أغراضه أن تكون له حرية فى اجتماعه بأبناء وطنه ليبث فيهم ما يريد من مبادئه.

هذا ، وللاعداء فى كل زمان ـــ إذا تحكموا ـــ شروط فى الصلح لا يراعون فيها إلا مصلحتهم؛ وهم ـ مادامت لهم قوة ـ لا يتركون حقا لضعيف إلا سلبوه واعتدوا عليه. ومن لم يعد مااستطاع من قوة يقاوم بها قوتهم فلا يستطيع أن يحفظ حقه منهم؛ فضلا

ولما فرغوا من الكتاب قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : قوموا فانحروا ثم احلقوا؛ فلم يقم أحد! حتى قال ثلاث مرات ولم يقم أحد دخل على أم سلمة فذكرلها ... فقالت : أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك ؛ فقام ففعل ... فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا [١]

ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا إذا جاءكم المؤمِناتُ مُهَاجِراتٍ) [٢] وفي هذه القصة دخلت خزاعة في عقد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعهده ؛ ودخلت بنو بكر في عهد قريش وفيها نزلت سورة الفتح وفي خيبر.

﴿ غزوة خيبر ﴾

لما قدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المدينة من الحديبية مكث

عن أن يرده إذا اغتصبوه . . . ومن يحسن الظن بهم ويفهم أنه يسترد حقه منهم بالاستعطاف والاسترحام فهو مغرور مخدوع — أنظر « تركية » لما كانت ضعيفة طردها الانجليز وحلفاؤهم من المؤتمرات ثم أمدوا اليونان لامتلاك بلادها وانتهاك حرمتها ؛ فلما قويت وضربتهم بضرتها وأرهبتهم بقوتها خطبوا ودها وسعوا لارضائها وأصبحوا في « مؤتمر الصلح في لوران » يتحملون منها كل شدة ويسمعون لها في كل اقتراح — وهكذا القوة يصعر أمامها كل كبير وتخضع لها كل سياسة — فاللهم اجعلنا من الأقوياء الأعزاء ولا تجعلنا من الضعفاء الأذلاء .

(١) من هذا نعلم أن القول وحده لا يحمل الناس على العمل فمن يرد أن يحمل الناس على عمل فليعمله أمامهم ليعملوه كما يعمله .

(٢) (فامتحنوهن ، الله أعلم بايمانهن ، فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن) — أنظر سورة الممتحنة

بها نحو عشرين ليلة ثم خرج غازياً إلى خيبر ، وكان الله وعده إياها فى الحديبية بقوله : (وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ)

عن ابن عمر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم؛ فغلب على الزرع والنخل والأرض ؛فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم إلا السلاح. ولما أراد أن يجليهم قالوا : يا محمد دعنا فى هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها فنحن أعلم بها منكم — ولم يكن لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ؛ وكانوا لا يفرغون يقومون عليها ؛ فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع وكل ثمر ما بدا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يقرهم وكان عبد الله بن رواحة يخرصه عليهم .

وقد قسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) نصف خيبر على أهل الخمس والغانمين وأبقى النصف لما ينزل به من أمور المسلمين

والامام مخير فى الأرض المفتوحة عنوة[1] بين قسمها ووقفها ؛ وقسم بعضها ووقف البعض . وقد فعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأنواع الثلاثة : فقسم قريظة والنضير، ولم يقسم مكة[2] ؛ وقسم شطر خيبر وترك شطرها . وفى الصحيحين وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم) أسهم للفارس ثلاثة أسهم : سهم له ؛ وسهمان لفرسه ؛ وللراجل سهما

وفى هذه الغزوة سبيت صفية بنت حيي بن أخطب فأسلمت

---

(١) بالحرب والقهر

(٢) لم يقسم مكة لأنها دار نسك لا تملك ، فهى حرم الرب الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والباد .

واصطفاها النبي (صلى الله عليه وسلم) لنفسه وأعتقها وجعل عتقها صداقها.

وفيها أهدت له زينب بنت الحرث اليهودية امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية قد سمتها، وسألت أي اللحم أحب اليه؟ فقالوا: الذراع؛ فأكثرت من السم فيها فأكل وأصحابه. وعن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قتل المرأة لما مات بشر بن البراء؛ وذلك عقب أكله اللحم. وأما الرسول فقد بقي بعد ذلك ثلاث سنين حتى قال في وجعه الذي مات فيه: مازلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر؛ فهذا أوان انقطاع الأبهر مني!! [1]

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر إلى وادي القرى؛ وكان بها جماعة من اليهود؛ ففتحها عنوة وعاملهم على الأرض والنخيل؛ وكذلك فدك [2]

ولما بلغ يهود تيماء ما والى عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أهل فدك ووادي القرى؛ صالحوه وأقاموا بأموالهم. فلما كان زمن عمر ابن الخطاب أخرج يهود خيبر وفدك، ولم يخرج أهل تيماء ووادي القرى.

---

(١) يظن بعض الجاهلين أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعلم الغيب — فلو كان يعلم الغيب لكان أولى أن يعلم هذا العمل الذي أرادت اليهودية قتله به؛ ولكنه أكل من اللحم المسموم ولم يعلم به حتى ظهرت أعراضه ومات بعض أصحابه الذين أكلوا معه — والله تعالى يقول: (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء؛ إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون)

والأبهر: هو العرق العظيم الذي ينقل الدم من القلب لتوزيعه على الجسم

(٢) أرض بخيبر — فوق يثرب (المدينة)

لأنهما داخلتان فى أرض الشام، والغرض إخراج من فى الحجاز .

﴿ غزوة الفتح ﴾

كانت سنة ثمان لعشر مضين من رمضان ؛ وسببها أن بنى بكر عدت على خزاعة ، وهم على ماء يقال له الوتير ، فبيتوهم وقتلوا منهم .

وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل ـ مستخفياً ليلا ـ حتى حازوا خزاعة الى الحرم، ولجأت الى دار بديل بن ورقاء الخزاعى فخرج بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة فأخبروه بما أصيب فيهم وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ؛ فأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالجد والتحهيز للسير إلى مكة وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها »[1] .

فتجهز الناس فكتب حاطب بن أبى بلتعة الى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إليهم ؛ ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً ؛ فأدركها من عيون الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أخرجه من شعرها ؛ ودعى بحاطب فقال: لا تعجل علىّ يارسول الله ؛ والله إنى لمؤمن بالله ورسوله وما ارتددت ولا بدلت ولكنى كنت امرأ ملصقاً فى قريش لست من أنفسهم ولى فيهم أهل وعشيرة وولد وليس لى فيهم قرابة

---

(١) كانت خزاعة متعاهدة مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومقتضى المعاهدة أن يدفع الظلم عنها ؛ فلذا يتأهب للقتال معها وفاء بالعهد ؛ وقد جارت عليه قريش إذ عاونت من اعتدى على معاهديه ولم يراعوا عهده . ومثل قريش (انكلترة) تعاون اليونان على الترك فى الخفاء وتنكر ذلك فى الظاهر !! حتى أظهر الله ما أظهر من أمرها ورد كيدها فى نحرها .

يحمونهم ؛ وكان من معك لهم قرابات يحمونهم؛ فأحببت - إذ فاتنى ذلك - أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى .

ثم خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى عشرة آلاف قد أفطروا من صومهم فقابله العباس مهاجراً بأهله مسلماً، فلما نزل مرّ الظهران [1] عشاء أمر الجيش فأوقد النيران فأوقدت عشرة آلاف نار ؛ وجعل عمر على الحرس وركب العباس بغلة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخرج يلتمس أحداً يخبر قريشاً ليستأمنوا الرسول قبل أن يدخل عنوة قال العباس : والله إنى لأسير إذ سمعت كلام أبى سفيان ، كان يتجسس لقريش ؛ وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكراً! ويقول بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب! فيقول أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها !! قال فعرفت صوته فقلت: أبا حنظلة؟ فعرف صوتى فقال: أبا الفضل؟ قلت: نعم؛ قال: مالك فداك أبى وأمى؟ قلت: هذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى الناس واصباح قريش والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ! قال: فما الحيلة؟ قلت: اركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاستأمنه لك ؛ فلما جاءه أسلم وشهد الحق؛ فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، قال: نعم! « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن؛ ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن»؛ فمضى أبو سفيان حتى إذا جاء قريشاً صرخ بأعلى صوته : هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به! من دخل دار أبى سفيان فهو آمن؛ ومن دخل المسجد فهو آمن؛ قالوا: قاتلك

---

(١) واد قرب مكة

الله ! وما تغنى عنا دارك ؟ فتفرق الناس إلى دورهم .

وسار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى دخل مكة من أعلاها وضربت له قبة هنالك ؛ وأمر خالد بن الوليد[1] وقد أسلم في هذه المدة ؛ أن يدخلها من أسفلها ؛ وقال له : إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً حتى توافونى على الصفا .

وكان حماس بن قيس ـ أخو بنى بكر ـ يعد سلاحاً قبل دخول الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقالت له امرأته: لماذا تعد ما أرى ؟ قال لمحمد وأصحابه ؛ قالت : والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شىء !! قال : إنى والله لأرجو أنى أخدمك بعضهم ؛ ثم قال : ـ

إن يقبلوا اليوم فمالى علة هذا سلاح كامل وآلة

حصلت مناوشة قتل فيها اثنان من المسلمين كانا فى خيل خالد ؛ وأصيب من المشركين نحو اثنى عشر ؛ ثم انهزموا وانهزم حماس صاحب

---

(١) هو البطل العظيم الذى كان أكبر عون للمشركين فى الحرب ، أسلم قبل الفتح وصار بطل الاسلام سماه رسول الله : سيف الله ! فلم يكن فى جيش إلا انتصر ، وكان اليد اليمنى لأبى بكر فى إخضاع جيوش الردة ، وهو الذى وحد القيادة العامة فى حرب الروم وكسر شوكة الفرس فى العراق والروم فى السام ، وهو الذى لما مرض بكى وقال: أنا لا أبكى خوفا من الموت ولكن أبكى لأنى أموت على فراشى كالعنزة وجسمى مملوء بطعنات الحرب ، وكنت أود أن أموت فى ميدان القتال . .

فبمثل هذا تعلو الأمم وتسود، ولنا أمل أن تحيا ذكرى ذلك البطل (خالد) ببطل الشرق فى هذا الزمان (مصطفى كمال) فقد ضرب اليونان ضربة مثل فيها ضربة (خالد) لآبائهم الأولين . . وسيبقى ـ بمعونة الله له والتفاف المسلمين حوله ـ (سيفاً) يرهب الأعداء ويرغمهم على رد ما اغتصبوه من الضعفاء .

السلاح حتى دخل بيته وقال لامرأته : أغلقى علىّ بابى ! ... فقالت له : وأين ما كنت تقول ؟

نهض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله حتى دخل المسجد فأقبل الى الحجر الأسود فاستلمه ثم طاف بالبيت وفى يده قوس وحول البيت وعليه ستون وثلاث مئة صنم فجعل يطعنها بالقوس ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ». « جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » والاصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته ـ ولم يكن محرما يومئذ ـ ثم دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة فمحا ما فيها من الصور وصورة ابراهيم واسماعيل يستقسمان بالأزلام ؛ ثم صلى ودار فى البيت يكبر ؛ ثم وقف على الباب وقريش قد اصطفت تنظر ماذا يصنع ؛ فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ؛ ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ؛ يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ؛ الناس من آدم وآدم من تراب » ثم تلا هذه الآية (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [1] .

---

(١) تأمل أصول المساواة التى تجعل الناس لا يفضل بعضهم بعضاً إلا بالعمل الذى يزكى نفوسهم ويعلى شأن أمتهم وبلادهم ؛ فهذه الأصول فى الدين تقطع أمل الذين يعتمدون على أنسابهم والذين يفخرون ويتكبرون بأموالهم وأولادهم

يامعشر قريش ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : « فانى أقول كما قال يوسف لاخوته (لاتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ) إذهبوا فأنتم الطلقاء » ، ثم جلس فى المسجد فقام إليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده فقال : يارسول الله إجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، فقال : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له ؛ فقال : ياابن طلحة هاك مفتاحك اليوم يوم بر ووفاء . ثم دخل دار أم هانىء بنت أبى طالب فاغتسل وصلى ثمان ركعات فى بيتها ، وكان ضحى ؛ فظنها مَن ظنها صلاة الضحى ؛ وإنما هى صلاة الفتح ، شكراً لله تعالى ، بدليل قول أم هانىء مارأيته صلاها قبلها ولا بعدها .

وكان أمراء الاسلام إذا فتحوا حصناً أو بلداً صلوا مثلها اقتداء برسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ فصل ﴾

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدى هذا الفتح العظيم ، أمِنَ الناس به وكلم بعضهم بعضهم وناظره فى الاسلام ، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه ، ودخل بسببه بشر كثير فى

قال الله تعالى : (فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ✡ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ✡ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ✡ تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون) وقال تعالى : (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون)

الاسلام ، ولهذا سماه الله فتحاً فى قوله : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً) نزلت فى شأن الحديبية ؛ فقال عمر : يارسول الله أو فتح هو ؟ قال : نعم ؛ وأعاد سبحانه كونه فتحاً فقال : (لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّؤْيَا – إلى قوله – فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً) . وهذا شأنه سبحانه يقدم بين يدى الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها المنبئة عليها ؛ كما قدم بين يدى قصة المسيح، وخلقه من غير أب ؛ قصة زكريا وخلق الولد له مع كونه كبيراً لايولد لمثله ، وكما قدم بين يدى نسخ القبلة قصة البيت وبنائه وتعظيمه ، والتنويه به وذكر بانيه ومدحه ؛ ووطأ قبل ذلك كله بذكر النسخ وحكمته المقتضية له .

وهكذا ماقدم الله بين يدى مبعث رسوله من قصة الفيل وبشارات الكهان به وغير ذلك ، وكذلك الرؤيا الصالحة كانت مقدمة بين يدى الوحي فى اليقظة ، وكذلك الهجرة بين يدى الأمر بالجهاد .

ومن تأمل أسرار الشرع والقدر رأى من ذلك ماتبهر حكمته الألباب .

﴿ فصل ﴾

وفى هذه الغزوة دليل على أن أهل العهد إذا حاربوا من فى ذمة الامام وجواره وعهده صاروا حرباً له بذلك .

وفيها انتقاض عهد جميعهم بذلك ردئهم ومباشرهم إذا رضوا به وأقروا عليه ولم ينكروه ، فان الذين أعانوا بنى بكر من قريش بعضهم لم يقاتلوا كلهم معهم ؛ ومع هذا غزاهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كلهم ؛ كما أنهم دخلوا فى عهد الصلح تبعاً ، ولم ينفرد كل واحد منهم بصلح إذ قد رضوا به وأقروا عليه ؛ فكذلك حكم نقضهم للعهد . هذا

هدى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وطرد هذا جريان الحكم على ناقضى العهد من أهل الذمة، إذا رضى جماعتهم به ؛ وإن لم يباشر كل واحد منهم ما ينقض عهده . كما أجلى عمر يهود خيبر لما عدا بعضهم على ابنه ورموه من ظهر دار ففدعوا يده بل قد قتل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جميع مقاتلة بنى قريظة ؛ ولم يسأل عن كل رجل منهم هل نقض العهد أم لا ؛ وكذلك أجلى بنى النضير كلهم وإنما كان الذى هم بالقتل رجلان ، وكذلك فعل ببنى قينقاع حتى استوهبهم منه عبدالله بن أبىّ ؛ فهذه سيرته وهديه الذى لا شك فيه .

وقد أجمع المسلمون على أن حكم الردء حكم المباشر فى الجهاد ، ولا يشترط فى قسمة الغنيمة ولا فى الثواب مباشرة كل واحد فى القتال .

وهذا حكم قطاع الطريق حكم ردئهم حكم مباشرهم ؛ لأن المباشر إنما باشر الافساد بقوة الباقين ولولاهم ما وصل إلى ما وصل إليه ؛ وهذا الصواب .

وفيها أن رسول العدو لا يقتل ؛ فان أبا سفيان كان ممن جرى عليه حكم انتقاض العهد ولم يقتله الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ كان رسول قومه إليه .

وفيها إباحة متعة النساء ثم تحريمها قبل خروجه من مكة .

فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : كنا نغزو مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وليس لنا نساء فقلنا : ألا نختصى ؟ فنهانا ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل — ثم قرأ عبد الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ).

وقراءة عبدالله هذه الآية عقب هذا الحديث تحتمل أمرين: أحدهما

الرد على من يحرمها ، وأنها لو لم تكن من الطيبات لما أباحها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . والثانى أن يكون أراد آخر هذه الآية وهو الرد على من أباحها مطلقاً وانه معتد ؛ فان رسول الله إنما رخص فيها للضرورة ؛ وعند الحاجة فى الغزو ، وعند عدم النساء وشدة الحاجة إلى المرأة — فمن رخص فيها فى الحضر مع كثرة النساء وإمكان النكاح المعتاد فقد اعتدى ، والله لا يحب المعتدين .

﴿ غزوة حنين ﴾

وتسمى غزوة أوطاس وهما موضعان بين مكة والطائف .

لما سمعت هوازن برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وما فتح الله عليه من مكة جمعت له جموعاً ؛ فلما سمع بهم بعث إليهم عبدالله الأسلمى وأمره أن يدخل فى الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم فانطلق ثم أقبل بالخبر .

فلما أجمع رسول الله السير إلى هوازن ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدرعاً وسلاحاً ، فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك ، فقال : ياأبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غداً ؛ فقال صفوان : أغصباً يا محمد ؟ قال : بل عارية ، وهى مضمونة حتى نؤديها ؛ فقال : ليس بهذا بأس ؛ فأعطاه مئة درع بما يكفيها من السلاح .

خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومعه ألفان من أهل مكة ، وعشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ؛ ففتح الله بهم مكة ، (وكانوا اثنى عشر ألفاً) واستعمل عتاب بن أسيد على مكة أميراً ، ثم مضى يريد لقاء هوازن .

عن جابر بن عبدالله ؛ قال : لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى واد من أودية تهامة أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحداراً — قال — وفى عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى ، فكمنوا لنا فى شعابه وأجنابه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا فوالله ماراعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين لايلوى أحد منهم على أحد ؛ وانحاز رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذات اليمين ، ثم قال : إلى أين أيها الناس ؟ هلم إلىّ أنا رسول الله ؛ أنا محمد ابن عبد الله ! وبقى معه نفر من المهاجرين وأهل بيته .

ولما انهزم المسلمون ورأى من كان مع رسول الله من حفاة أهل مكة الهزيمة ، تكلم رجال منهم بما فى أنفسهم من الطعن فقال أبو سفيان : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ؛ وقال كلدة : ألا بطل السحر اليوم .

عن العباس بن عبدالمطلب ، قال : إنى لمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) آخذ بحكمة [1] بغلته وكنت امرأ جسيما شديد الصوت فسمعته يقول حين رأى مارأى من الناس : إلى أين أيها الناس ؟ فلم أر الناس يلوون على شىء ، فقال : ياعباس ! اصرخ : يامعشر الأنصار ؛ فأجابوا : لبيك لبيك — حتى إذا اجتمعوا إليه استقبلوا الناس فاقتتلوا ؛ فأشرف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى ركائبه فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلون فقال : الآن حمى الوطيس — حتى هزم الله المشركين ، وأمر رسول الله بالسبى والغنائم أن تجمع فجمعت ووجهوها إلى الجعرانة .

وكان السبى ستة آلاف رأس ، والابل أربعة وعشرين ألفاً ، والغنم

---

(١) حديدة اللجام التى توضع فى فم الدابة فتحكمها

أكثر من ألف شاة ؛ وأربعة آلاف أوقية فضة فاستأنى بهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة [1] ثم بدأ بالأموال فقسمها وأعطي المؤلفة قلوبهم أول الناس : فأعطى أبا سفيان أربعين أوقية ومئة من الابل؛ فقال : ابنى يزيد ؟ فقال أعطوه أربعين أوقية ومئة من الابل؛فقال ابنى معاوية؟ فقال أعطوه أربعين أوقية ومئة من الابل.

وأعطي حكيم بن حزام مئة من الابل؛ ثم سأله مئة أخرى فأعطاه؛ وأعطى النضر بن الحرث بن كلدة مئة من الابل ؛ وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين ؛ وذكر أصحاب المئة وأصحاب الخمسين؛ وأعطي العباس بن مرداس أربعين فقال فى ذلك شعراً فكمل له المئة ؛ ثم أمر يزيد بن ثابت باحضار الغنائم والناس ثم فرضها على الناس فكانت سهامهم لكل رجل أربعاً من الابل وأربعين شاة ؛ فان كان فارساً أخذ اثنى عشر بعيراً وعشرين ومئة شاة [2]

عن أبي سعيد الخدرى قال : لما أعطي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما أعطى من تلك العطايا الكبار فى قريش وفى قبائل العرب ؛ ولم يكن فى الانصار منها شىء ؛ وجد هذا الحى من الانصار فى أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة حتى قال قائلهم : لقى والله رسول الله قومه !! فدخل عليه سعد ابن عبادة فقال : يارسول الله إن هذا الحى من الانصار قد وجدوا عليك

---

(١) لتعلم أيها القارىء أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لايهمه الغنائم وإنما يهمه أن يكون الناس مسلمين ، ولذا كان من وده أن يأتى أصحاب هذه الأموال مسلمين ويأخذوا أموالهم فانتظرهم ليالى ولما يئس منهم قسمها

(٢) لأن الفرس تأخذ براجلين — فانظر قيمة الخيل

فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى قسمت فى قومك ؟ ! قال فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ قال يارسول الله ما أنا إلا من قومى، قال فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة فأتاهم رسول الله فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال يا معشر الانصار: ماقالة بلغتنى عنكم، وجدة وجدتموها فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بى؟ وعالة فأغناكم الله بى، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟! قالوا: الله ورسوله أمنّ وأفضل، ثم قال ألا تجيبونى يامعشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يارسول الله ولرسوله المنّ والفضل! قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتكم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريداً فآويناك وعائلا فواسيناك — أوجدتم علىّ يا معشر الانصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ألا ترضون يا معشر الانصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً وواديا وسلكت الانصار شِعباً وواديا لسلكت شِعب الأنصار وواديها، الأنصار شعار والناس دثار! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الانصار» ، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظاً (١)

﴿ غزوة تبوك ﴾

كانت فى رجب سنة تسع، وسببها أن النبي (صلى الله عليه وسلم) بلغه

(١) قال تعالى : (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ؛ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) .

أن الروم جمعت له جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه لخم، وجذم، وعاملة، وغسان، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء. وكان الزمن زمن عسرة من الناس وجدب من البلاد، فحض رسول الله أهل الغنى على النفقة والحملان فى سبيل الله، فاحتسبوا وأنفق عثمان بن عفان فى ذلك نفقة عظيمة.

وكان رسول الله قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها وورى بغيرها إلا تبوك لبعد الشقة وشدة الزمان وقال للجد بن قيس إحدى بنى سلمة: هل لك يا جد العام فى جلاد بنى الأصفر؟ فقال: يا رسول الله أوتأذن لى ولا تفتنى؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء منى! وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر! فأعرض عنه، وقال: أذنت لك! ففيه نزل قوله تعالى: (وَمِنْهُم مَن يَقُولُ ائذَنْ لى لا تَفْتِنِّى)

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا فى الحر فأنزل الله فيهم: (وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِى الحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ).

وجاء إلى رسول الله البكاءون، وهم سبعة يستحملونه، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه (تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ [1]) وأرسل أبو موسى أصحابه إلى النبى ليحملهم فوافاه غضبان فقال: والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه، ثم أتاه إبل فأرسل إليهم ثم قال: ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم! وإنى والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يمينى وأتيت الذى هو خير.

وقام علبة بن يزيد فصلى من الليل وبكى وقال: اللهم إنك قد أمرت

---

(١) آيات القصة كلها فى سورة براءة

بالجهاد ورغبت فيه ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به مع رسولك ؛ ولم تجعل فى يد رسولك مايحمانى عليه. وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها من مال أو جسد أو عرض! فقال الرسول: لقد كتبت فى الزكاة المتقبلة.

وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم فلم يعذرهم؛ قال ابن سعد: وهم اثنان وثمانون رجلا. وكان عبد الله بن أبىّ بن سلول قد عسكر على ثنية الوداع فى حلفائه من اليهود والمنافقين.

ولما انتهى الى تبوك أتاه صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية ؛ وكذلك أهل جرباوأذرح وكتب لهم كتاباً. وهذا ما كتب لأهل أيلة وصاحبها:—

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن روية وأهل أيلة: سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر؛ لهم ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحرين، فمن أحدث منهم حدثاً فانه لا يحول ماله دون نفسه وإنه لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً من بر أو بحر.

خطبته (صلى الله عليه وسلم) فى تبوك: —

أما بعد فان أصدق الحديث كتاب الله ؛ وأوثق العُرى كلمة التقوى ؛ وخير الملل ملة ابراهيم ؛ وخير السنن سنة محمد ؛ وأشرف الحديث ذكر الله ؛ وأحسن القصص هذا القرآن ؛ وخير الأمور عوازمها ؛ وشر الأمور محدثاتها ؛ وأحسن الهدى هدى الأنبياء ؛ وأشرف الموت قتل الشهداء ؛ وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ؛ وخير الأعمال ما نفع ؛ وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ؛ وشر الندامة

يوم القيامة . ومن الناس من لا يأتي الجمعة الا دبرا ؛ ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا .

ومن أعظم الخطايا اللسان الكذاب ؛ وخير الغنى غنى النفس ؛ وخير الزاد التقوى ؛ ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل ؛ وخير ما وقر فى القلوب اليقين .

والارتياب من الكفر ؛ والنياحة من عمل الجاهلية ؛ والغلول من حر جهنم ؛ والخمر جماع الاثم ؛ وشر المأكل مال اليتيم .

والسعيد من وعظ بغيره ؛ وملاك العمل خواتمه ؛ وشر الرؤيا رؤيا الكذب ؛ وسباب المؤمن فسوق ؛ وقتاله كفر ؛ وأكل لحمه من معصية الله ؛ وحرمة ماله كحرمة دمه ؛ ومن يعف يعف الله عنه ؛ ومن يكظم الغيظ يأجره الله ؛ ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ؛ ومن يعص الله يعذبه . ثم استغفر ثلاثاً (١) .

ولما رجع من تبوك مكر به ناس من المنافقين وتآمروا على أن يطرحوه من عقبة فى الطريق فأعلمه الله بهم وعصمه من خداعهم : إذ نزل وسار من بطن الوادى فأمن من مكرهم ؛ وذلك قول الله : (وهمّوا بما لم ينالوا) . وكان أبو عامر رأسهم وله بنوا مسجد الضرار — وهو الذى كان يقال له الراهب — وقال ابن عباس : والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً هم أناس من الانصار قال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدكم واستمدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح فانى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من

(١) قل لى بربك أيها القارىء : لو كانت المحفوظات فى المدارس تكون من أمثال هذه الخطبة فكم يكون سعد الأمة من تعليم أبنائها وبناتها .

الروم فأخرج محمداً وأصحابه . فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالوا : إنا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة ؛ فأنزل الله عز وجل: (لاَ تَقُمْ فيه أبداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ — يعني مسجد قباء — أَحَقُّ أن تَقُومَ فِيهِ) .

وكان أصحاب مسجد الضرار أتوه ؛ وهو يتجهز الى تبوك ؛ فقالوا : يارسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة ؛ وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ؛ فقال: « إني على جناح سفر وحال شغل؛ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه».فلما نزل بذى أوان جاء خبر المسجد من السماء ! فدعا مالك بن الدخشم أخا بنى سلمة ومعن بن عدى العجلانى وقال: « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فهدماه وحرقاه » ففعلا فتفرقوا عنه فأنزل الله فيه: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وإِرصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ ورَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) .

فلما دنا رسول الله « صلى الله عليه وسلم » من المدينة خرج الناس لتلقيه وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن : —

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   مادعا لله داع

بعض الرواة يهم فى هذا ويقول : إنما كان عند مقدمه المدينة من مكة وهو وهم ظاهر؛ لأن ثنيات الوداع إنما هى من ناحيه الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة ولا يمر بها الا إذا توجه إلى الشام .

وقدم المدينة فى رمضان ولما دخلها بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس

للناس فجاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ؛ فقبل علانيتهم ووكل سرائرهم إلى ربهم ؛ وكانوا بضعة وثمانين .

وقد صرفت إليه وفود العرب من كل وجه فدخلوا فى دين الله أفواجاً . قال ابن إسحاق . لما قدم وفد بنى تميم دخلوا المسجد ونادوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن أخرج الينا يامحمد !! فآذى الرسول صياحهم فنزل فيهم: (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) وهم الذين قال شاعرهم الزِّبْرِقان مفاخراً حين قدومهم : —

نحن الملوك فلا حىّ يعادلنا   منا الملوك وفينا تنصب البيع

وأجابه شاعر الاسلام حسان بقوله: —

إن الذوائب من فهرٍ وإخوتهم   قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بهم كل من كانت سريرته   تقوى الاله وكل الخير يصطنع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهمو   أوحاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غير محدثة   إن الخلائق ـ فاعلم ـ شرها البدع

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس : إن هذا الرجل — يعنى رسول الله — لمواتى له! لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، فأسلموا وأحسن الرسول جوائزهم ورد عليهم أسراهم وسبيهم الذين جاءوا فى سرية عيينة الفزارى .

﴿ وفد عبد القيس ﴾ فى الصحيحين أنهم قالوا : يارسول الله إن بيننا وبينك هذا الحىّ من كفار مضر ولا نصل إليك إلا فى شهر حرام فمرنا بأمر فصل نأخذ به ونأمر به من وراءنا وندخل به الجنة ، فقال: « آمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع : آمركم بالايمان بالله وحده . أتدرون ما الايمان بالله؟

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وأن تعطوا الخمس من المغنم» ـ « الحديث » وفيه أن الايمان بالله هو مجموع هذه الخصال من القول والعمل ـ كما على ذلك أصحاب رسول الله « صلى الله عليه وسلم » والتابعون وتابعوهم كلهم ـ ذكره الشافعى فى المبسوط. وعلى ذلك ما يقارب مئة دليل من الكتاب والسنة [1] وفيه أن الحج لم يفرض إذ أن قدومهم سنة تسع وفرضه سنة عشر، ولو كان مفروضاً لعده من الايمان .

﴿ وفد نجران ﴾ قال ابن إسحاق: لما قدم وفد نجران على رسول الله « صلى الله عليه وسلم » دخلوا عليه مسجده بعد العصر فحانت صلاتهم

---

(١) يستفاد من مجموع الكتاب والسنة أن الايمان أو الاسلام عهد بين الله وبين عباده المسلمين قد اشتمل هذا العهد على كثير من المواد العملية. فاذا أخلوا بمادة من تلك المواد نقضوا العهد . ومثلهم مثل الدولة التى تعقد ميثاقا أو تكتب معاهدة بينها وبين دولة أخرى فانها تعد مسالمة لها مادامت قائمة بحق الميثاق والمعاهدة ، فاذا أخلت بجزئية أو قصرت وأهملت فى تنفيذ أمر فانها تعد محاربة وناقضة الميثاق كله ، فالذى يحترم الميثاق ويعرف قيمة صاحبه لا يقدم على الاخلال بشىء منه. والذين يظهرون أنهم يؤمنون بالله ثم يعصون أوامره تنطق أعمالهم بأنهم كاذبون فى إيمانهم، والذى يصلى لله (وحبا فيه) لا يهمل ذلك (الحب) فى باقى الفرائض المطلوبة لله!! فليتفق الله المؤمنون وليعلموا أنهم ان تركوا شيئاً من أوامر الله بالقصد والتعمد يكونون محاربين له ناقضين للعهد الذى بينهم وبينه، ومن يعمل بعض العهد ويترك بعضه فانه يعمل ما يوافق شهوته وهواه ولا يعمل حبا فى الله ولاخضوعا لأمر الله هذا هو الحق الذى يقره علم النفس والواقع : فالذى يعمل لله إيمانا به وتسليما له يعمل كل شىء يأمره الله به قال تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين).

فقاموا يصلون فى مسجده فأراد الناس منعهم ؛ فقال : دعوهم ! فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم .

وفى القصة هذه جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين وتمكينهم من صلاتهم فيها بحضرتهم ؛ وفيها أن إقرار الكاهن الكتابى لرسول الله «صلى الله عليه وسلم» بأنه نبي لايدخله فى الاسلام مالم يلتزم طاعته ومتابعته. ونظير هذا شهادة عمه أبي طالب له بأنه صادق وأن دينه خير الأديان ولم تدخله هذه الشهادة فى الاسلام . ومن تأمل ما فى السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له «صلى الله عليه وسلم» بالرسالة وأنه صادق فلم تدخلهم هذه الشهادة فى الاسلام — علم ان الاسلام ليس هو المعرفة فقط ؛ ولا المعرفة والاقرار فقط ؛ بل المعرفة والاقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً [1]

﴿ الصلاة فى الحرب والخوف ﴾

أباح الله سبحانه قصر أركان الصلاة وعددها إذا اجتمع الخوف

---

(١) فليتأمل ذلك المعلمون الذين يقولون للعوام : «من قال لا اله الا الله دخل الجنة وان سرق وقتل وترك جميع أوامر الدين حتى أصبحت المسألة فوضى وليس للناس زاجر من أنفسهم ، فكأن الله لا يهمه من الناس إلا أن يقولوا : لا اله الا الله باللسان (وهل هذا من العقل) بل إن الله يريد أن الناس يعملون ما أمر به لتتزكى نفوسهم بالتربية العملية . يعملون ما أمر به ليصلحوا شؤونهم الاجتماعية . وأما إذا تركوا العمل وقالوا ليلا ونهاراً : لاإله إلا الله فماذا يغنى هذا القول إلا أنه يكون منهم نفاقا واستهزاء بالله «يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم!» والأعمال تصدق الأقوال أو تكذبها فهم يوحدون الله بالقول ويشركون به بالعمل ! ومن يعلم حقيقة الدين يلتزم تعاليمه ، قال تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) وقال : (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وقال : (سلام عليكم «طبتم» فادخلوها خالدين) وقال : (فنعم أجر العاملين) وقال : (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) وقال : (إنما تجزون ما كنتم تعملون) فتنبهوا أيها المعلمون الغافلون

والسفر . وقصر العدد وحده إذا كان سفر لاخوف معه ؛ وقصر الأركان وحدها إذا كان خوف لاسفر معه .

وهذا كان هديه (صلى الله عليه وسلم) وبه يعلم الحكمة فى تقييد القصر فى الآية بالضرب فى الأرض والخوف [١] .

وكان من هديه (صلى الله عليه وسلم) فى صلاة الخوف إذا كان العدو بينه وبين القبلة أن يصف المسلمين كلهم خلفه ويكبر ويكبرون جميعاً، ثم يركع فيركعون جميعاً، ثم يرفع ويرفعون جميعاً معه، ثم ينحدر بالسجود والصف الذى يليه خاصة، ويقوم الصف المؤخر يواجه العدو. فاذا فرغ من الركعة الأولى ونهض إلى الثانية سجد الصف المؤخر بعد قيامه سجدتين، ثم قاموا فتقدموا إلى مكان الصف الأول، ويؤخر الصف الأول مكانهم لتحصل فضيلة الصف الأول للطائفتين، وليدرك الصف الثانى مع النبى (صلى الله عليه وسلم) السجدتين فى الركعة الثانية كما أدرك الأول معه السجدتين فى الأولى، فيستوى الطائفتان فيما أدركوا معه وفيما قضوا

(١) قال الله تعالى: (وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبينا وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم، فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم. ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم. ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة. ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى ان تضعوا أسلحتكم . وخذوا حذركم . إن الله أعد للكافرين عذاباً مهينا. فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعوداً وعلى جنوبكم، فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا * ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما)

لأنفسهم وذلك غاية العدل . فاذا ركع صنع الطائفتان كما صنعوا أول مرة ؛ فاذا جلس للتشهد سجد الصف المؤخر سجدتين ولحقوه فى التشهد فيسلم بهم جميعاً .

وإن كان العدو فى غير جهة القبلة فانه كان تارة يجعلهم فرقتين: فرقة بازاء العدو ؛ وفرقة تصلى معه فتصلى معه إحدى الفرقتين ركعة ثم تنصرف فى صلاتها إلى مكان الفرقة الأخرى وتجيء الأخرى إلى مكان هذه فتصلى معه الركعة الثانية ثم تسلم ، وتقضى كل طائفة ركعة ركعة بعد سلام الامام . وتارة كان يصلى باحدى الطائفتين ركعة ثم يقوم إلى الثانية وتقضى هى ركعة وهو واقف وتسلم قبل ركوعه ، وتأتى الطائفة الأخرى فتصلى معه الركعة الثانية ، فاذا جلس فى التشهد قامت فقضت ركعة وهو ينتظرها فى التشهد ، فاذا تشهدت يسلم بهم ، وتارة كان يصلى باحدى الطائفتين ركعتين فتسلم قبله وتأتى الطائفة الأخرى فتصلى معه الركعتين الأخيرتين ويسلم بهم ؛ وتارة كان يصلى باحدى الطائفتين ركعتين ويسلم بهم وتأتى الأخرى فيصلى بهم ركعتين ويسلم ؛ وتارة كان يصلى باحدى الطائفين ركعة فتذهب ولا تقضى شيئاً وتجيء الأخرى فيصلى بهم ركعة ولا تقضي شيئاً ـ وهذه الأوجه كلها تجوز الصلاة بها . قال الامام احمد : كل حديث يروى فى أبواب صلاة الخوف فالعمل به جائز [1] .

---

(١) لأن الصلاة هناك تكون على حسب الاستطاعة بأى كيفية ممكنه قال تعالى : (فان خفتم فرجالا أو ركبانا) أى فصلوا وأنتم ماشون أو راكبون ، والغرض أن الانسان يجتهد ليجمع بين ذكر الله الذى يقويه فى الحرب وبين الحذر من الأعداء الذى هو من أسباب النصرة عليهم ، فما أحكم هذا الدين الجامع بين المصالح الروحية والمادية .

﴿ مدة الاقامة فى السفر ﴾

وقد أقام « صلى الله عليه وسلم » بتبوك عشرين يوماً يقصر الصلاة، ولم يقل للأمة لا يقصر الرجل الصلاة اذا أقام أكثر من ذلك، ولكن اتفق إقامته هذه المدة ؛ وهذه الاقامة فى حال السفر لا تخرج عن حكم السفر سواء طالت أو قصرت إذا كان غير مستوطن ولا عازم على الاقامة بذلك الموضع .

وقال نافع : أقام ابن عمر بأذربيجان ستة أشهر يصلى ركعتين وقد حال الثلج بينه وبين الدخول ؛ وقال حفص بن عبيد الله : أقام أنس بن مالك بالشام سنتين يصلى صلاة المسافر ؛ وقال أنس: أقام أصحاب رسول الله « صلى الله عليه وسلم » برامهرمز سبعة أشهر يقصرون الصلاة . وقال الحسن: أقمت مع عبد الرحمن بن سمرة بكابل سنتين يقصر الصلاة ولا يجمع ، وقال ابراهيم : كانوا يقيمون بالرى السنة وأكثر من ذلك وسجستان السنتين .

فهذا هدى رسول الله « صلى الله عليه وعليه وسلم » وأصحابه كما ترى وهو الصواب .

والأئمة الأربعة متفقون على أنه إذا أقام لحاجة ينتظر قضاءها يقول: اليوم أخرج، غداً أخرج، فانه يقصر أبدا .

قسم الاقضية والاحكام [1]

ثبت عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه حبس بعض الناس فى تهمة.

وعن على أنه كان يحبس الممسك فى السجن حتى يموت.

« القصاص [2] »

فى الصحيحين أن يهوديا رض رأس جارية بين حجرين فاعترف فأمر رسول الله أن يرض رأسه كذلك — وفيه دليل عن أن الرجل يقتل فى المرأة.

روى الامام أحمد والنسائى وغيرهما عن البراء قال: لقيت خالى أبا بردة ومعه الراية فقال: أرسلنى رسول الله « صلى الله عليه وسلم » إلى رجل تزوج امرأة أبيه ان أقتله وآخذ ماله.

وفى سنن ابن ماجة أنه قال: « من وقع على ذات محرم فاقتلوه ».

وفى الصحيحين أن ابنة النضر أخت الربيع لطمت جارية فكسرت

---

(١) قال عمر بن عبد العزيز: تحدث للناس أقضية بقدر ما يحدثون من الفجور، ولذا قضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى الحوادث التى كانت فى زمنه وجاء بقواعد عامة لما يتجدد من الحوادث، وأمر من يقضى فى حادثة أن ينظر فى كتاب الله، فان لم يجد ففى سنة رسول الله، فان لم يجد فليجتهد فى تطبيقها على قواعدها العامة وأصولها الكلية، وما عليه إلا أن يتحرى الصواب والحق ما استطاع. وقد أخبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بان الحاكم إذا اجتهد فأصاب له أجران، وإذا اجتهد فأخطأ له أجر.

(٢) قال تعالى: (النفس بالنفس، والعين بالعين، والانف بالانف، والاذن بالاذن، والسن بالسن، والجروح قصاص، فمن تصدق به فهو كفارة له، ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون). وقال: (ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون)

سنها فاختصموا إلى النبي « صلى الله عليه وسلم » فأمر بالقصاص فقالت أم الربيع : يارسول الله أتقتص من فلانة ؟ لا والله ! فقال: « سبحان الله يا أم الربيع كتاب الله القصاص » فقالت: لا والله لا تقتص منها أبداً ! فعفا القوم عنها وقبلوا الدية . فقال النبي « صلى الله عليه وسلم »: « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه » .

وفيهما أن رجلا عض يد رجل فنزع يده من فيه فسقطت ثناياه فقال الرسول: (صلى الله عليه وسلم) « يعض أحدكم أخاه كما يعض الفحل لا دية لك ». وقد تضمنت هذه الحكومة أن من خاص نفسه من يد ظالم فكل ما تلف من الظالم فهو غير مضمون

وفيهما من حديث أبي هريرة: « لو أن امرأ أطلع عليك بغير إذن نخذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح ». وفي لفظ « من أطلع في بيت قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فلا دية له ولا قصاص »

وفيهما أن رجلا أطلع في حجرة من حجر النبي «صلى الله عليه وسلم » فقام إليه بمشقص [1] وجعل يختله ليطعنه

قضى أن الحامل إذا قتلت عمداً لا تقتل حتى تضع ما في بطنها وحتي يكفل ولدها — ذكره ابن ماجة في سننه

وقضى أن لا يقتل الوالد بالولد — ذكره أحمد والنسائي

وقضى أن الرجل يقتل بالمرأة

---

(١) نصل سكين

﴿ الزنا [1] ﴾

فى السنن من حديث سهل بن سعد أن رجلا أتى النبى « صلى الله عليه وسلم » فأقر أنه زنى بامرأة سماها فبعث إلى المرأة فأنكرت فجلده الحد وتركها . فظهر من هذا أمران : الأول وجوب الحد على الرجل وإن كذبته المرأة ؛ الثانى أنه لا يجب عليه حد القذف للمرأة . وأما ما رواه أبو داود فى ذلك فمنكر — كما قال النسائى

حكم فى الأمة إذا زنت ولم تحصن بالجلد . روى مسلم : « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها » . وفيه لعلى : « أيها الناس أقيموا على أرقائكم الحد : من أحصن منهن ومن لم يحصن ؛ فان أمة رسول الله « صلى الله عليه وسلم » زنت فأمرنى أن أجلدها » (الحديث) وفى قوله تعالى فى الاماء (فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ) قد يقال إن تنصيصه على التنصيف بعد الاحصان لئلا يتوهم متوهم أن بالاحصان يزول التنصيف ويصير حدها حد الحرة . وأما أن يقال جلدها قبل الاحصان تعزير وبعده حد ، وهذا قوى ، وإما أن يقال الافتراق بين الحالين فى إقامة الحد لا فى قدره ، وأنه فى إحداهما للسيد وفى الأخرى للامام .

﴿ شارب الخمر ﴾

حكم بضربه بالجريد والنعال ، وضربه أربعين . وتبعه أبو بكر على الأربعين . وفى مصنف عبد الرزاق أنه « صلى الله عليه وسلم » جلد فى

---

(١) قال تعالى : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين)

الخمر ثمانين . وقال ابن عباس: لم يوقت فيها رسول الله شيئاً .

وقد صح عنه الأمر بالقتل فى الرابعة أو الخامسة، وقال ابن عمر أحد رواة القتل : إئتونى به فى الرابعة وعلى أن أقتله لكم.[١]

﴿ الأسرى ﴾

قتل بعضهم ؛ ومن على بعضهم؛ وفادى بعضهم بمال،وبعضهم بأسرى من المسلمين ؛ واسترق بعضهم ولكن لم يسترق بالغاً [٢]

---

(١) يدخل هذا فى قوله تعالى: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض . ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) هذا وألما عظيم إذ لم يكن عندنا حكومة تقيم الحدود الشرعية . فكثيراً تكلمنا وكثيراً نصحنا والحكومة لم تجب مع أنها تسعى فى تثبيت الأمن،ولا يمكن أن يتثبت الامن إلا بالقضاء على منابع الفساد كابطال الترخيص بالزنا والخمر وعقاب الزناة وشاربى الخمر والمخدرات ،ولعل حكومتنا الحاضرة تعتبر فتبطل المنكرات فى داخل البلاد وتمنع من يأتى بها من الخارج فبذلك تسلم من الرذائل وتحفظ للامة عقلها ومالها . ولا يخفى مافى مصر من المنكرات التى فاقت بها بلاد الشرق . فعسى أن يتنبه العلماء وقضاة الشرع ولا يرضوا بأن يفشو هذا الفساد فى بلاد هم ساكنوها وتحت قانون هم خاضعون له، وعسى أن تتنبه شعوب المسلمين جميعاً فيعرفوا أن هذه المنكرات جيوش للأعداء ترسلها دول الاستعمار تنهك بها قواهم وتفسد بها عقولهم وتأخذ بها أموالهم،وهى أعظم سلاح يقطع فى الشعوب فتمحو أخلاقهم وتقطع رابطتهم وتجعلهم أسرى للأعداء مقضياً عليهم بالفناء والاستعباد.

(٢) قال تعالى: (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) وقال: (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق . فأما منا بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها) وقال:(ياأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم . والله غفور رحيم)

﴿ الغنـــائم ﴾

كانت الأموال ثلاثة ـ زكاة وغنائم وفىء [١]: فأما الزكاة فقد بين الله مصرفها فى: « إنما الصدقات » ويضاف إليها خمس الغنائم: (واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَإِنَّ للهِ خُمُسَهُ) والأربعة الأخماس الباقية للغانمين: للفارس ثلاثة أسهم؛ وللراجل سهم؛ والسلب للقاتل [٢].

﴿ الوفاء للعدو ﴾

لما جاءه رسولا مسيلمه الكذاب وقالا: تقول إنه رسول الله، قال: «لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما» . وثبت أنه رد إلى قريش أبا جندل للعهد الذى كان بينه وبينهم « أن يرد اليهم من جاء منهم مسلما » ولم يرد النساء فقد جاءت إليه سبيعة الأسلمية مسلمة فخرج زوجها فى طلبها فأنزل الله (إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات) فاستحلفها « صلى الله عليه وسلم » أنها لم يخرجها إلا الرغبة فى الاسلام وأنها لم تخرج لحدث أحدثته فى قومها ولا بغضاً لزوجها؛ فحلفت فأعطى زوجها مهرها ولم يردها عليه — وهذا الحكم يوافق القرآن ويبين أن الرد المشروط فى العهد خاص بالرجال.

﴿ الأمان ﴾

ثبت عنه أنه قال: « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم » [٣].

---

(١) الغنائم هى المكتسبة من الأعداء بالحرب؛ والفىء ما يكتسب منهم بغير ذلك قال تعالى: (وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) وحكم الفىء كما قال الله: (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) (٢) ما يوجد مع المقتول من المال والسلاح وغيره.

(٣) يعنى من يتعهد منهم بعهد يسرى عليهم جميعاً، وذلك لما بينهم من التضامن والتكافل

وثبت أنه أجار رجلين أجارتهما أم هانىء ابنة عمه ؛ وأجار أبا العاص ابن الربيع لما أجارته ابنته زينب ؛ وقال : «يجير على المسلمين أدناهم ويريد عليهم أقصاهم» .

﴿ الجزية [1] ﴾

أخذها من أهل نجران وأيلة وهم نصارى من العرب، ومن أهل دومة الجندل وأكثرهم عرب؛ وأخذها من المجوس، ومن أهل الكتاب باليمن ـ وكانوا يهوداً .

---

(١) جزء من المال تأخذه الحكومة الاسلامية من الأجانب التابعين لحكومتها لتصرفه فيما لهم من المصالح المشتركة بينهم وبين المسلمين

إن الحرية فى الاسلام تقضى بأن يكون كل إنسان حراً فى دينه ؛ وعلى الحكومة الاسلامية أن تعامل من تحتها ممن يتدينون بغير دينها بما تعامل به أهل دينها ماداموا مسالمين لها، وغاية الأمر أنها تلزمهم بدفع نصيب من المال نظير ما تقوم به من الخدمة والدفاع والتحصين وغير ذلك من المصالح التى يتمتعون بها ولم يقوموا بشىء منها ؛ ونظير هذا تأخذ من المسلمين الزكاة ــ وقد كان بعض الأفرنج يفهم أن الغرض من أخذ الجزية جبر أهلها على الاسلام! وهذا من الجهل بحرية الاسلام وعدله. وإذا كانت الحكومة الاسلامية تقاتل من لم يدفع الجزية من أهل الكتاب فأنها تقاتل من لم يدفع الزكاة من المسلمين ؛ وقد سوت فى قتال الاثنين وقاتلت كلا منهما من حيث إنه نقض عهدها وعطل المصالح التى تقوم بها وليعلم الناس أنها لم تقاتل الأجانب من حيث التعصب للدين أو الجنس ؛ هذا وقد انعكس حالنا وأصبحنا ندفع الجزية لغيرنا ولكنها جزية يأخذون فيها الأموال والرجال وكل ما يمكنهم أن يسخروه لمصلحتهم منا!! وقد أصبح المسلمون (وهم أربعمئة مليون) كلهم (جزية) للمستعمرين إلا الترك والافغانيين عرفوا أن عزتهم بدينهم فأقاموا من شعائره وأوامره ما أعزهم وأزاح كابوس الاستعمار وسلطته من فوقهم وصاروا أحراراً مستقلين؛ وهكذا يكون كل من تمسك بأصول الدين من المسلمين.

الأربعة: « لا نكاح إلاّ بولىّ » ؛ وفيها: « لا تزوج المرأة المرأة، ولا تزوج المرأة نفسها، فان الزانية هى التى تزوج نفسها »[1].

وحكم أن المرأة إذا زوجها الوليان فهي للأول منهما.

﴿ التفويض ﴾ قضى فى رجل تزوج امرأة ولم يفرض لها صداقاً ولم يدخل بها حتى مات، أن لها مهر مثلها لا وكس ولا شطط ؛ لها الميراث وعليها العدة: أربعة أشهر وعشراً. وفى الترمذى أنه قال لرجل: « أترضى أن أزوجك فلانة ؟ قال نعم ؛ وقال للمرأة: أترضين أن أزوجك فلاناً ؟ قالت نعم ؛ فزوجها فدخل بها الرجل ولم يفرض لها صداقاً ولم يعطها شيئاً ؛ فلما كان عند موته عوضها من صداقها سهما له بخيبر ».

﴿ المرأة فى الحبل ﴾ فى السنن والمصنف عن بصرة بن أكثم قال: تزوجت امرأة بكراً فى كسرها فدخلت عليها فاذا هى حبلى ؛ فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): « لها الصداق بما استحللت من فرجها »، وحكم بالتفريق وجلدها بعد ولادتها.

﴿ الشرط فى النكاح ﴾ فى الصحيحين « إن أحق الشروط أن توفوا

لها رغبة فى رجل يحكمان على بنتهما بأن تتزوجه ولو كانت تكرهه ؛ كذلك أم الرجل وأبوه إذا كانا يرغبان امرأة يلزمان ابنهما بأخذها ولو كان لا يميل إليها ؛ ولهذا لم تنتظم عشرة الزوجين فى كثير من البيوت. فليعتبر الآباء وأولياء الزواج وليقتدوا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وليعلموا أن المقصود من الحياة الزوجية لا يكون إلا بالحب المتبادل بين الزوجين. قال تعالى: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون).

(١) يقيد المرأة بوليها حفظا لكرامته وكرامتها ؛ ويأمر الولى بألا يعطلها عن الزواج ولا يزوجها بمن تكره ؛ فهذا توفيق بين المصالح.

ما استحللتم به الفروج » . وفيهما: «لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ ما فى صحفتها لها ما قدر لها » . وفيهما أنه نهى أن تشترط المرأة طلاق أختها. وفى مسند أحمد : « لا يحل أن تنكح امرأة بطلاق أخرى ».

﴿نكاح الشغار﴾ فى صحيح مسلم: « لا شغار فى الاسلام». والشغار أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته وليس بينهما صداق. وفى حديث أبى هريرة: « والشغار أن يقول الرجل للرجل زوجنى ابنتك وأزوجك ابنتى زوجنى أختك وأزوجك أختى» .

﴿نكاح المحلل﴾ فى الترمذى والمسند من حديث ابن مسعود: « لعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المحلل والمحلل له » . قال الترمذى حسن صحيح . وفى المسند من حديث أبى هريرة مرفوعا : « لعن الله المحلل والمحلل له » واسناده حسن ـ وفيه عن على مثله ـ وفى سنن ابن ماجة : «ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال: هو المحلل لعن الله المحلل والمحلل له[1] ».

﴿ نكاح المحرم ﴾ فى صحيح مسلم : «لاينكح المحرم ولا ينكح». (من أسلم على أكثر من أربع نسوة أو على أختين) فى الترمذى أن

(١) يزعم أهل التحليل أنهم بهذه الفعلة الشنعاء يفسرون قول الله: (حتى تنكح زوجاً غيره) ولو عقلوا أن الزوج هو الراغب والمرغوب فى العشرة المبتغى والمبتغى للحياة الزوجية . فنكاح المحلل تنكره الفطرة وتستحى منه العفيفة وهو زنا يتوصل الناس اليه بهذه الحيلة كما توصلوا إلى اسقاط الصلاة والزكاة ،ولا يزال الناس يحتالون لاسقاط الواجبات وفعل المنكرات حتى يهدموا كل الدين باسم الدين!! وسبب ذلك غفلتهم عن حكمة التشريع وجهلهم بهدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فليعتبر قضاة الشرع والمأذونون بعقد الزواج ، وليتقوا الله فى فروج النساء التى يستحلونها بغير حق.

غيلان أسلم وتحته عشر نسوة ، فقال له : « خذ منهن أربعاً وفارق سائرهن » .

وأسلم فيروز الديلمي وتحته أختان ، فقال له : « خذ أيتهما شئت » .

وقضى بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها أو بنتها ، وهو مأخوذ من تحريم الأختين .

﴿ في الزوجين يسلم أحدهما قبل الآخر ﴾ لم يعرف أنه جدد نكاح زوجين سبق أحدهما الآخر بإسلامه قط . ولم يعرف عن الصحابة كذلك ، وقد رد ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع وهو إنما أسلم زمن الحديبية ، وهي أسلمت من أول البعثة ، فبين إسلامها وإسلامه أكثر من ثماني عشرة سنة . وأما قوله في الحديث كان بين إسلامها وإسلامه ست سنين فوهم ؛ إنما أراد بين هجرتها وإسلامه .

﴿ القسم بين الزوجات ﴾ في الصحيحين عن أنس قال : من السنة إذا تزوج الرجل البكر على الثيب أقام عندها سبعاً وقسم ، وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثاً ثم قسم [١] .

﴿ الكفاءة في النكاح ﴾ في الترمذي : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير [٢] » .

---

(١) في هذا الزمان يتزوج الرجل على امرأته لمضارتها فلا يطلقها ولا يبيت عندها والله يقول : (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) أي لم تعرف متزوجة هي أم مطلقة ! ويقول : (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) ولكن الناس مع خوفهم - بل مع تحققهم - من عدم العدل أقدموا على التعدد في الزوجات ورضوا بأن يرضوا شهواتهم ويغضبوا الله ورسوله ويوجدوا النزاع والشقاق بين أزواجهم وأولادهم ويجنوا من وراء ذلك خراب البيوت وفساد الأخلاق !! فاللهم وفق الناس لاتباع دينك حتى ينتظموا في بيوتهم وجميع شؤونهم .

(٢) كانت الفتنة وظهر الفساد بالزنا والسفاح لأن أكثر الناس ينتظر في الزواج صاحب المال أو الجاه . ومنهم من يرى نفسه (شريفاً) لأن عليه عمامة خضراء أو

وقال لبني بياضة: «أنكحوا أباهند وانكحوا إليه» وكان حجاما؛ وزوج زينب بنت جحش القرشية من زيد بن حارثه مولاه؛ وزوج فاطمة بنت قيس الفهرية من أسامة ابنه؛ وتزوج بلال بن رباح بأخت عبدالرحمن بن عوف.

﴿الصداق﴾ فى مسلم عن عائشة: كان صداق النبي (صلى الله عليه وسلم) فى أزواجه ثنتى عشرة أوقية. وقال عمر: ماعلمت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نكح شيئاً من نسائه ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من ثنتى عشرة أوقية. قال الترمذى حديث حسن صحيح. والأوقية أربعون درهماً.

وفى الصحيحين قال لرجل يريد الزواج: «التمس ولو خاتماً من حديد فلم يجد، فقال له: هل معك شيء من القرآن؟ قال نعم، سورة كذا وكذا فزوجه بما معه من القرآن». وفى مسند الامام أحمد: «إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة»[1].

ينتسب إلى جد تحت (قبة علياه) وغير ذلك مما يفتتن به أهل الانساب و يمتنعون من من أجله من تزويج من ليس (شريفاً مثلهم) فالشريف عندهم هو هذا، وإن كانوا يخالفون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والله يقول: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ويقول: (فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فاولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون) ويقول: (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) ويقول: (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور).

(١) أصبح الصداق فى هذا الزمان منفراً ومانعاً من الزواج لتغالى الناس فيه! نعم لم يكن حراما على الانسان أن يدفع لامرأته ما يشاء من كثرة الصداق؛ ولكن بشرط ألا يلتزم الناس ما يرهقهم ويعطل الحكمة المقصودة من الزواج وقد صارت

﴿ فى الزوج المعاب ﴾ فى مسند أحمد أن النبى (صلى الله عليه وسلم) تزوج امرأة من غفار، فلما دخل عليها وضع ثوبه وقعد على الفراش أبصر بكشحها بياضاً فانحاز عن الفراش ثم قال : «خذى عليك ثيابك» ؛ ولم يأخذ مما آتاها شيئاً .

وفى الموطأ عن عمر : «أيما امرأة غُرَّ بِها رجل بها جنون أو جذام أو برص فلها المهر بما أصاب منها ، وصداق الرجل على من غرَّه» .

النساء الآن سلعا تباع وتشترى بالصداق ويتساوم أهلهن مع الراغبين فيهن: فأى الراغبين أكثر صداقا يكون أولى بهن، وهذه عادة سيئة صرفت الناس عن البحث فى المطلوب من حسن العشرة وطيب الأخلاق ومنعت كثيراً من الزواج حيث لم يوجد المال الذى يرضى الطامعين والمتغالين من أهل النساء . ويكون لهؤلاء الأهل عذر إذا كان الشرع كلفهم أن يرهقوا أنفسهم بالجهاز الذى يحتجون به ، وهو الجهاز الذى رأيناهم يتغالون فيه ويبيعون أملاكهم من أجله!! والله لم يجعل الزواج لخراب البيوت وضياع الأموال. فالواجب على الناس بدل تسابقهم فى الجهاز الذى ينفعون بثمنه الافرنج أن يتسابقوا فى تسهيل الزواج حتى يقل الزنا وأن يتسابقوا فى تجهيز الزوجين بالفضيلة بدل أن يجهزوهما بكثرة الأقمشه والمثقلات من الأمتعة التى تكثر من ترفهما وكسلهما. ولقد رأينا من سوء العادة أن الفلاحين يناظرون أهل المدن فى جهاز العروسة فيأتون بالأسرة والأبسطة وأمثال هذا من المنعمات!! فقل لى بربك إذا رقد الفلاح على السرير وتعود على ذلك هل يمكنه أن يرقد على الأرض؟ وماذا يكون حاله إذا مشى على الحرث إذا كان قد تعود المشى على البساط ومنعمات الجهاز فى البيت؟! إن ذلك أمر قد وقع ، ونشاهد الآن كثيراً من الفلاحين أزال التنعم خشونتهم فأصبحوا لا يستطيعون العمل فى المزارع وكانت عاقبتهم أنهم خسروا باحتياجهم إلى من يزرع لهم، وكل من يزرع سيصير غير قادر ولا يعلم إلا الله ماذا يكون بعد ذلك. فيا أيها الفلاحون لا تسيروا فى هذا التيار المهلك وحافظوا على خشونتكم التى هى رأس مالكم وبها حياة أمتكم وبلادكم.

وفى سنن أبى داود « طلق عبد يزيد أبو ركانة زوجته أم ركانة ونكح امرأة من مزينة فجاءت إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالت: مايغنى عنى إلا كما تغنى هذه الشعرة — لشعرة أخذتها من رأسها — ففرق بينى وبينه. فقال له: طلقها ففعل ».

وذكر سعيد بن منصور عن ابن سيرين أن عمر بعث رجلا على بعض السعاية فتزوج امرأة وكان عقيما ؛ فقال له عمر: أعلمتها أنك عقيم؟ قال لا ؛ قال: فانطلق فأعلمها ثم خيرها.

﴿ خدمة المرأة لزوجها ﴾ قال ابن حبيب: حكم النبي (صلى الله عليه وسلم) بين على وفاطمة حين اشتكيا إليه الخدمة ؛ فحكم على فاطمة بالخدمة الباطنة خدمة البيت ؛ وحكم على على بالخدمة الظاهرة. وصح عن أسماء: كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله، وكان له فرس وكنت أسوسه وأحش له وأقوم عليه. وصح عنها أنها كانت تخرز الدلو، وتسقى الماء، وتنقل النوى على رأسها من أرض له على ثلثى فرسخ [١].

﴿ الطلاق ﴾ فى السنن عنه (صلى الله عليه وسلم): « لا طلاق فى إغلاق » — أى فى غضب لأن الغضبان قد أغلق عليه باب القصد بشدة غضبه.

وفى الصحيح: « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها مالم تكلم أو تعمل به ». وقال: « إنما الأعمال بالنيات ». وقال: « إن الله وضع عن أمتى الخطأ

---

(١) من يوم أن تركت نساؤنا العمل فى البيت واعتمدن على الخادمات فسد نظام البيت وصارت المرأة لا شغل لها إلا تزيين نفسها وتنقلها من بيت إلى بيت ومن فسحة إلى فسحة وتسابقن مع قريناتها فى الملابس الجديدة (المودة) !! ولا تنس ماوراء ذلك.

والنسيان وما استكرهوا عليه» ؛ ذكر فى السنن [١] .

فى الصحيحين أن ابن عمر طلق امرأته وهى حائض ؛ فسأل عمر النبى (صلى الله عليه وسلم) عن ذلك فقال : « مره فليراجعها ، ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ؛ ثم إن شاء أمسكها بعد ذلك وإن شاء طلقها قبل أن يمس فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء» . وفى مسلم: « مره فليراجعها ، ثم ليطلقها إذا طهرت وهى حامل» ، وفى لفظ: « إن شاء طلقها طاهراً قبل أن يمس فذلك الطلاق للعدة كما أمر الله تعالى» .

وعند أحمد وأبى داود والنسائى : طلق عبدالله بن عمر امرأته وهى حائض ، فردها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولم يرها شيئاً وقال: «إذا طهرت فليطلق أو ليمسك» . وقال ابن عمر : قرأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ) فى قبل عدتهن . فتضمن هذا الحكم أن الطلاق على أربعة أوجه : وجهان حلالان ، ووجهان حرامان . فالحلال أن يطلق امرأته طاهراً من غير جماع ، أو يطلقها حاملا متبيناً حملها . والحرام أن يطلقها وهى حائض ، أو يطلقها فى طهر جامعها فيه.

---

(١) الخلاصة من هذا أن الانسان إذا حدثته نفسه بطلاق أو غيره من غير أن ينطق به أو يعمل عليه يكون عفواً لا يلزمه، كذلك إذا نطق أو عمل من غير أن يقصد وينوى يكون لغواً لا يؤاخذ عليه. قال جل شأنه: (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) وقال (خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين) أى تحمل ما يكون من الناس (عفواً) لا تلزمهم به ولا تؤاخذهم عليه، وقال: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) واذا كان المكره على الكفر لا يكفر فكيف المكره على الطلاق يقع طلاقه ؟! فعقدة الزواج عقدت بقصد واختيار ورغبة فلا تحل الا بقصد واختيار ورغبة . فاللهم وفق الناس لمعرفة حكمتك حتى لا يعدلوا عن دينك .

هذا فى طلاق المدخول بها ؛ وأما من لم يدخل بها فيجوز طلاقها حائضاً أوطاهراً كما قال تعالى: (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً). وقال تعالى :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا) . وقد دل على هذا قوله تعالى : (فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ) وهذه لاعدة لها، ونبه عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله : « فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق النساء لها » .

﴿ الطلاق الثلاث فى لفظ واحد ﴾ أخبر أن رجلا طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً، فقام مغضبا ثم قال : « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم » ! اسناده على شرط مسلم .

وروى مسلم : كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر واحدة . فقال عمر : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناءة فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه عليهم . وفى رواية له أن عمر لما رأى الناس قد تسابقوا فيها قال : أجيزوهن عليهم .

وفى مسند الامام أحمد : طلق ركانة بن عبد يزيد امرأته ثلاثاً فى مجلس واحد فحزن عليها حزناً شديداً ، فسأله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كيف طلقتها؟ قال: طلقتها ثلاثاً، قال: فى مجلس واحد؟ قال نعم ؛ قال: «فانما تلك واحدة فأرجعها إن شئت». قال فراجعها ــ وقد صحح الامام هذا وحسنه [1] .

فانظر قوله: «فانما تلك واحدة»، وذلك أن ما كان مرة بعد مرة لم يملك

---

(١) الآن تحكم المحاكم الشرعية بوقوع الطلاق الثلاث فى لفظ واحد ثلاثا !! ولذا كثر التجاء الناس الى المحلل الملعون !! فالاولى أن تحكم كما حكم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا تتمسك برأى عمر الذى خالفه فيه كثير من أصحابه

المكلف إيقاع امرأته جملة واحدة كاللعان فانه لو قال: أشهد بالله أربع شهادات إني لمن الصادقين كان مرة واحدة؛ وكقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): «من سبح الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين» (الحديث) فمن لم يقل مرة بعد مرة لم يك عاملا به؛ ومثله كثير. وهذا الموافق للغة والعرف المنطبق على العقل، وقوله تعالى: (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ) من هذا الباب وقد بينت السنة المراد منه بهذه النصوص.

ذكر ابن وضاح عن عمرو بن شعيب أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «إذا ادعت المرأة طلاق زوجها فجاءت على ذلك بشاهد واحد عدل استحلف زوجها، فان حلف بطلت عنه شهادة الشاهد؛ وإن نكل فنكوله بمنزلة شاهد آخر وجاز طلاقه»

﴿الظهار [1]﴾ ثبت في السنن والمسانيد أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت مالك وهي التي جادلت فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واشتكت إلى الله فقالت: يارسول الله ان أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة مرغوب فيّ فلما خلا سني ونثرت بطني جعلني كأمه عنده، فقال لها (صلى الله عليه وسلم): «ماعندي في أمرك شيء». فقالت اللهم إني أشكو اليك. وروى أنها قالت: إن لي صبية صغارا إن ضمهم اليه ضاعوا وإن ضممتهم إلي جاعوا؛ فنزل القرآن. وقالت عائشة: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت خولة بنت ثعلبة تشكو إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم وأنا

(١) كان الرجل في الجاهلية يظاهر امرأته: أي يعطيها ظهره ويجعلها أمه، ويقول لها: أنت أمي! فلا يمسها ولايتقرب منها، فأنكر الله عليهم ذلك القول وأمرهم بألا يعودوا اليه وجعل على من يعود كفارة: اقرأ سورة (قد سمع الله

فى كسر البيت يخفى على بعض كلامها ؛ فأنزل الله عز وجل (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ) فقال النبى (صلى الله عليه وسلم) : « ليعتق رقبة ! » قالت لا يجد ؛ قال : « يصوم شهرين متتابعين » قالت : إنه شيخ كبير ، قال : « فليطعم ستين مسكيناً » قالت : ما عنده من شىء يتصدق به ، قال : « سأعينه بعرق من تمر » قالت : وأنا أعينه بعرق آخر ، قال: أحسنت فأطعمى عنه ستين مسكيناً وارجعى إلى ابن عمك » .

﴿ الايلاء (١) ﴾ ثبت فى البخارى عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) آلى من نسائه ، وكانت انفكت رجله فأقام فى مشربة له تسعاً وعشرين ليلة ثم نزل ، فقالوا : يارسول الله آليت شهراً ؟ فقال: « الشهر قد يكون تسعاً وعشرين » . وقد قال سبحانه (لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) ﴿ لحوق النسب ﴾ فى الصحيحين أن رجلا قال للنبى

---

(١) هو أن يأخذ الرجل على نفسه أن يمتنع من امرأته . وهذا جائز إذا كان الغرض منه تربيتها وتعديلها ، قال تعالى : (واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع) ولكن لا يجوز أن يزيد الايلاء على أربعة أشهر كما ترى ، ولذا لم يحرم الله الظهار السابق من حيث إن الرجل يمتنع من امرأته فذاك ليس بحرام ، وإنما حرمه من حيث يقول الرجل لامرأته : أنت كأمى ويمتنع منها اعتقاداً منه بأنها كأمه لا يجوز أن يقربها ، كالتبنى الذى كانوا يجعلون به الادعياء أبناء ويحرمون عن أنفسهم الزواج بزوجات هؤلاء الادعياء كأنهم أبناؤهم من صلبهم ، فأبطل لهم هذا الاعتقاد وأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأن يتزوج زينب بعد أن طلقها زيد المتبنى له . قال تعالى : (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وماجعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل)

(صلى الله عليه وسلم) ان امرأتى ولدت غلاماً أسود — كأنه يعرض بنفيه — فقال: هل لك من إبل؟ قال نعم: قال ما لونها؟ قال: حمر؟ قال: فهل من أورق قال: نعم، قال: فأني أتاها ذلك، قال. لعله يارسول الله نزعها عرق، فقال: وهذا «لعله أن يكون نزعه عرق»

وفيه أن الحد لا يجب بالتعريض إذا كان على وجه السؤال وأن مجرد الريبة لا يسوغ اللعان ونفى الولد، وفيه ضرب الأمثال والنظائر فى الاحكام.

﴿ الحضانة ﴾ روى أبو داود أن امرأة قالت: يارسول الله ان ابنى هذا كان بطنى له وعاء وثديى له سقاء وحجرى له حواء، وان أباه طلقنى فأراد أن ينزعه منى؟ فقال لها: «أنت أحق به مالم تنكحى». وروى أهل السنن أنه (صلى الله عليه وسلم) خير غلاماً بين أبيه وأمه.

﴿ نفقة الزوجات ﴾ لم يرد عنه ما يدل على تقديرها، وإنما وكل الأمر فيها إلى العرف. ففى صحيح مسلم أنه قال فى خطبة حجة الوداع بحضر الجمع العظيم قبل وفاته ببضعة وثمانين يوما: «واتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف». وفى الصحيحين أن هنداً امرأة أبى سفيان قالت له: ان أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى من النفقة ما يكفينى وولدى إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم؟ فقال «خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف [1]».

---

(١) قال تعالى: (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا) الا أن المحاكم الشرعية قد غصت بالنساء اللاتى تركهن أزواجهن من غير نفقة، فالرجل أصبح لاتهمه امرأته يتزوج عليها ويتركها بأولادها وقد يتزوج عدة نساء، ويحظى بغيرهن سفاحا ! وتجمد عواطفه أمام زوجاته وأولاده، ومن أكبر البلاء على هؤلاء النساء أن تؤجل المحكمة

روى الدارقطنى عن أبى هريرة ـ فى الرجل لا يجد ما ينفق على امرأته ـ قال صلى الله عليه وسلم) : « يفرق بينهما » . وقال سعيد بن منصور فى سننه عن أبى الزناد قال : سألت سعيد بن المسيب عن الرجل لا يجد ما ينفق على امرأته أيفرق بينهما ؟ قال نعم ؛ قلت سنة ؟ قال سنة .

روى مسلم وغيره أن فاطمة بنت قيس لما طلقها زوجها ألبتة وخاصمته عند الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى السكنى والنفقة قالت : فلم يجعل لى سكنى ولا نفقة ، وأمرني أن أعتد عند ابن أم مكتوم ـ فانه رجل أعمى ـ تضع ثيابها عنده ولا يراها . ورواها النسائى فى سننه وفيها يقول النبى (صلى الله عليه وسلم) : « إنما النفقة والسكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها الرجعة » . وفى لفظ له والدارقطنى : « وإنما السكنى والنفقة لمن يملك الرجعة » . والحكمة فى ذلك بينها الله تعالى بقوله: (لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا) إقرأ أول سورة الطلاق ففيها أمر الله سبحانه الأزواج الذين لهم عند بلوغ الأجل الامساك والتسريح بألا يخرجوا أزواجهم من بيوتهم ، وأمر

قضاياهن عدة أسابيع أو أشهر وهن لا يجدن ما يسد جوعهن ، وقد يكون القاضى له عذر لاحتياجه إلى معرفة الحقيقة من حالة المرأة والرجل ، ولكن المحامى حبا فى كسب القضية من المرأة يضلل القاضى ويأتى بالشهود الذين يعرقلون الحكم فى صالح المرأة إذا لم يكونوا سببا فى خسارتها للقضية !! وكثيراً ما عرقل المحامون قضايا النفقة للزوجة بطلب حكم الطاعة ، ولم تكن المرأة عاصية ولكن الزمان رماها بزوجها القاسى ومحاميه الذى لا يخاف من الله ، ولا أنكر أن المرأة قد تسىء فى معاملتها وتدعى ماليس من حقها ، ولكن ذلك يكون فى الغالب من سوء زوجها . فيا أيها القضاة أعرفوا الحق ولا توسعوا الوقت لجدل المحامين وزور الشهود ، وبقدر ما تستطيعون قربوا الفصل فى القضايا وأنتم أعلم بأن المرأة اذا لم تجد نفقة ماذا تصنع !! فحافظوا على عفتها واتقوا الله فيها .

وأزواجهم أن لا يخرجن . فدل على جواز إخراج من ليس لزوجها امساكها بعد الطلاق ؛ أو يرجى فيها أحداث أمر — أى مراجعة — كما قاله السلف ومن بعدهم.

﴿ نفقة الأقارب ﴾ روى أبو داود: أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) رجل فقال من أبَرُّ ؟ قال « أمك وأباك وأختك وأخاك ومولاك الذى يلى ذاك حق واجب ورحم موصولة» . وروى النسائى « يد المعطى العليا ، وابدأ بمن تعول « أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك» . وفى سنن أبى داود « أن أطيب ما أكلتم من كسبكم وان أولادكم من كسبكم فكلوه هنيئاً مريئاً».

﴿ الرضاعة وما يحرم بها ﴾ ثبت فى الصحيحين من حديث عائشة أن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة . وفيهما من حديث ابن عباس أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أريد على ابنة حمزة فقال « انها لا تحل لى ابنة أخى من الرضاعة» ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب ، وفى سنن أبى داود «لا يحرم من الرضاع الا ما أنبت اللحم وأنشز العظم [1]».

﴿ العِدد ﴾ بين الله هذا فى كتابه أتم بيان فذكر أربعة أنواع من العدد — (النوع الأول) عدة الحامل بوضع الحمل مطلقاً بائنة كانت أو رجعية مفارقه فى الحياة أو متوفى عنها ، فقال (وَأُولاَتُ الأَحْمَالِ

---

(١) يجب أن ينتبه الناس الى مايقع فى هذا الزمان من الرضاعة ، فكثيراً ما ترى النساء يرضع بعضهن أولاد بعض على التناوب فى الصغر ، وخصوصاً إذا كن فى منزل واحد وكان واحدة لبنها قليلا فانها تعطى ابنها لجارتها ترضعه على بنتها فيرضع الاثنان من ثدى واحد زمنا ، وبعد أن يكبرا يتزوج كل منهما بالآخر!! وقد أوقع الجهل بهذا أناسا كثيرين.

أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) وبهذا احتج جمهور الصحابة ، ولو وضعته والزوج على المغتسل كما أفتى به النبي (صلى الله عليه وسلم) لسبيعة الأسلمية .

(النوع الثانى) عدة المطلقة التى تحيض (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ) .

(النوع الثالث) عدة المطلقة التى لا تحيض وهى إما صغيرة لا حيض لها ، أو كبيرة يئست منه فقال : فى الاثنتين (وَاللاَّئِى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِى لَمْ يَحِضْنَ)

(النوع الرابع) المتوفى عنها زوجها (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً) وهذا يتناول غير الحامل لأنها خرجت بالنص ولأنها لو تمادى حملها فوق ذلك تربصته ضرورة .

﴿ البيوع ﴾ فى الصحيحين أن الله ورسوله حرما بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام ، فهذه كلمات جوامع اشتملت على تحريم ثلاثة أجناس : مشارب تفسد العقول ، ومطاعم تفسد الطباع ، وأعيان تفسد الأديان [1] .

---

(١) إن طرق البيع والشراء متروكة للعرف ، والمقصود من الدين أن الناس يأكلون حلالا طيباً ، ولا يأكل بعضهم مال بعض بغير حق . قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) وقال : (وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد) .

قسم الطب والتداوى

المرض نوعان : مرض القلوب ومرض الابدان ، وهما مذكوران فى القرآن . ومرض القلوب نوعان : مرض شبهة وشك ، ومرض شهوة وغى . وكلاهما فى القرآن قال تعالى فى مرض الشبهة : (فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) . وقال تعالى فى مرض الشهوات : (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ)

وأما مرض الأبدان فقال تعالى : (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) . وذكر مرض البدن فى الحج والصوم والوضوء لسر بديع يبين لك عظمة القرآن والاستغناء به — لمن فهمه وعقله — عن سواه ، وذلك أن قواعد طب الأبدان ثلاثة : حفظ الصحة ، والحمية عن المؤذى ، واستفراغ المواد الفاسدة . فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة فى آية الصوم فقال : (فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) فأباح الفطر للمريض لعذر المرض ، وللمسافر طلباً لحفظ صحته وقوته لئلا يذهبها الصوم فى السفر لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه من التحليل وعدم الغذاء الذى يخلف ما تحلل فتخور القوة وتضعف . وقال فى آية الحج : (فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ) من قمل أو حكة أو غيرهما أن يحلق رأسه فى الاحرام استفراغا لمادة الأبخرة الرديئة التى أوجبت له الأذى فى رأسه باحتقانها تحت الشعر ، فاذا حلق رأسه ففتحت المسام فخرجت تلك الأبخرة منها ، فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذى انحباسه . والأشياء التى يؤذى انحباسها ومدافعتها

عشرة : الدم والمنى والبول والغائط والريح والقيء والعطاس والنوم والجوع والعطش ـ وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواء ؛ وقد نبه سبحانه باستفراغ أدناها وهو البخار المحتقن فى الرأس على استفراغ ماهو أصعب منه كما هى طريقة القرآن التنبيه بالأدنى على الأعلى.

وأما الحمية فقالى تعالى فى آية الوضوء : (وَإِنْ كُنْتُم مَرْضَى أَوْ عَلَي سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَ مَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّبًا) فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه ؛ وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذ له من داخل أو خارج ؛ فقد أرشد عباده إلى أصول الطب الثلاثة ومجامع قواعده. ونحن نذكر هدى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى ذلك مبينين له :ـ

فأما طب القلوب فمسلم إلى الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم وعلى أيديهم . وأما طب الأبدان فانه نوعان : نوع قد فطر الله عليه الحيوان ناطقه وبهيمه. فهذا لا يحتاج فيه إلى معالجة طبيب كطب الجوع والعطش والبرد والتعب بأضدادها ومايزيلها، والثانى ما يحتاج إلى فكر وتأمل كدفع الأمراض المتشابهة التى يخرج بها الجسم عن حد الاعتدال ؛ وهو ما نحن بصدد بيانه .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى تداويه لنفسه والأمر به لغيره ﴾

روى مسلم: «لكل داء دواء ؛ فاذا أصاب دواء الداء برئ باذن الله عز وجل» . وفى الصحيحين : « ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء » . وفى مسند الامام أحمد عن أسامة بن شريك قال : « كنت عند النبي صلى الله

عليه وسلم) وجاءت الأعراب فقالوا: يارسول الله أنتداوى؟ فقال نعم! يا عباد الله تداووا فان الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء؛ غير داء واحد. قالوا ما هو؟ قال: الهرم». وفى لفظ: «إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء؛ علمه من علمه وجهله من جهله[1]. وفى المسند والسنن عن أبى خزامة قال قلت يارسول الله: أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: هى من قدر الله. وقد روى أنه دخل على مريض يعوده فقال: ارسلوا إلى طبيب؛ فقال قائل: وأنت تقول ذلك يارسول الله؟! قال نعم إن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له دواء.

فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات وإبطال قول من أنكرها والرد على من أنكر التداوى.

﴿ إرشاده إلى أحذق الطبيبين ﴾ فى موطأ مالك عن فريد بن أسلم أن رجلا جرح فاحتقن الدم فدعا رجلين من بنى انمار فنظرا إليه فزعم أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال لهما: أيكما أطب؟ فقال: أو فى الطب خير يارسول الله؟ فقال: «أنزل الدواء الذى أنزل الداء».

ففى هذا الحديث أنه ينبغى الاستعانة فى كل علم وصناعة بأحذق من فيها فالأحذق؛ لأنه إلى الاصابة أقرب.

﴿ اتقاؤه الأمراض المعدية وإرشاده الأصحاء إلى مجانبة أهلها ﴾

فى صحيح مسلم أنه كان فى وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبى (صلى الله عليه وسلم) إرجع فقد بايعناك. وروى البخارى: «فِرّ من المجذوم

(١) تحريض على تعلم الطب ومعرفة منافع الأشياء.

فرارك من الأسد». وفى سنن ابن ماجة: «لاتديموا النظر إلى المجذومين». وفى الصحيحين: «لا يوردن ممرض على مصح». ويذكر عنه: «كلم المجذوم وبينك وبينه قدر رمح أو رمحين[1]».

﴿ تضمين من طب الناس وهو جاهل بالطب ﴾

روى أبو داود والنسائى وابن ماجه أنه (صلى الله عليه وسلم) قال: «من تطبب ولم يُعلم منه الطب قبل ذلك فهو ضامن» والطب معناه الاصلاح يقال: طببته إذا أصلحته. وقال من تطبَّب ولم يقل من طب لأن لفظ تفعَّل يدل على تكلف الشىء والدخول فيه بعسر وكلفة وأنه ليس من أهله كتحلَّم وتشجَّع. ففى الحديث إيجاب الضمان على الطبيب الجاهل؛ فاذا تعاطى علم الطب وعمله ولم يتقدم له به معرفة فقد هجم بجهله على إتلاف الأنفس وأقدم بالتهور على مالم يعلمه فيكون قد غرر بالعليل فيلزمه الضمان لذلك.

﴿ الاحتماء من التخم ﴾ فى المسند وغيره أنه قال: «ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن!! بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه؛ فان كان لابد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه». والأمراض نوعان: أمراض مادية تكون عند زيادة مادة أفرطت فى البدن حتى أضرت بأفعاله الطبيعية وهي الأمراض الأكثرية وسببها؛ إدخال الطعام على البدن قبل هضم الأول، والزيادة فى القدر الذى يحتاج إليه البدن؛ وتناول الأغذية القليلة النفع البطيئة الهضم؛ والاكثار من الاغذية المختلفة التراكيب المتنوعة

(١) هذا يوافق مايقوله الاطباء فى جراثيم السل من أنها تنتقل فى البصاق على هذا البعد.

فاذا ملأ الآدمى بطنه من هذه الأغذية واعتاد ذلك أورثته أمراضاً متنوعة: منها بطيء الزوال وسريعه ؛ فاذا توسط فى الغِذاء وتناول منه قدر الحاجة ـ وكان معتدلا فى كميته وكيفيته ـ كان انتفاع البدن به أكثر من انتفاعه بالغِذاء الكثير. ومراتب الغذاء ثلاث: أحدها مرتبة الحاجة، والثانية مرتبة الكفاية ، والثالثة مرتبة الفضلة. فأخبر النبى (صلى الله عليه وسلم) أنه يكفيه لقيمات يقمن صلبه؛ فلا تسقط قوته ولا تضعف معها. فان تجاوزها فليأكل فى ثلث بطنه ويدع الثلث الآخر للماء والثالث النفس ؛ وهذا من أنفع ما يكون للبدن والقلب ؛ وإنما يقوى البدن بحسب ما يقبل من الغذاء لا بحسب كثرته .

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى علاج الأمراض ﴾

﴿ علاج الحُمّى ﴾ ثبت فى الصحيحين أنه قال: «إنما الحمى ـ أو شدة الحمى ـ من فيح[1] جهنم فأبردوها بالماء » . — فهذا الحديث خاص بأهل الحجاز وما والاهم إذ كان أكثر الحميات التى تعرض لهم من نوع الحمى اليومية العرضية الحادثة عن شدة حرارة الشمس ؛ وهذه ينفعها الماء البارد شرباً واغتسالا .

﴿ علاج استطلاق البطن ﴾ فى الصحيحين أن رجلا أتاه فقال : إن أخى استطلق بطنه؟ فقال : أسقه عسلا ؛ فذهب ثم رجع فقال : قد سقيته فلم يزده إلا استطلاقا مرتين أو ثلاثاً !! كل ذلك يقول : اسقه عسلا! فقال له فى الثالثة ـ أو الرابعة ـ: صدق الله وكذب بطن أخيك[2]. وهذا الذى وصف

---

(١) شدة اللهب (٢) يشير الى قوله تعالى فى النحل : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس)

له العسل كان استطلاق بطنه عن تخمة أصابته عن امتلاء فأمره بشرب العسل لدفع الفضول المجتمعة فى نواحى المعدة والامعاء، فان العسل فيه جلاء ودفع للفضول، وكان قد أصاب المعدة أخلاط لزجة تمنع استقرار الغذاء فيها، فان المعدة لها خمل كخمل المنشفة، فاذا علقت بها الأخلاط اللازجة أفسدتها وأفسدت الغذاء. فدواؤها بما يجلوها من تلك الأخلاط ؛ والعسل جلاء لا سيما إن مزج بالماء الحار. وفى تكرار سقية العسل معنى طبي بديع وهو أن الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمية بحسب حال الداء إن قصر عنه لم يزله بالكلية، وإن جاوزه أوهن القوى فأحدث ضرراً آخر، فلما تكررت الشربات بحسب الداء برىء باذن الله. واعتبار مقادير الأدوية وكيفياتها ومقدار قوة المرض والمريض من أكبر قواعد الطب.

﴿ علاج الجرح ﴾ فى الصحيحين أنه لما جرح وجهه يوم أحد كانت فاطمة تغسل الدم، فلما رأت الدم لا يزيد إلا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقتها حتى إذا صارت رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك الدم برماد الحصير المعمول من البردى ؛ وله فعل قوى.

﴿ قطع العروق والكى ﴾ فى الصحيح أنه بعث إلى أُبَيّ بن كعب طبيباً فقطع له عرقا وكواه عليه . ولما رمي سعد بن معاذ فى أكحَلِه [1] حسمه النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم ورمت فحسمه ثانية، والحسم هو الكى

﴿ علاج يبس الطبع ﴾ روى الترمذى وابن ماجة أنه قال لأسماء بنت عميس : « بماذا كنت تستمشين؟ قالت بالشبرم. قال: حارّ حار!! ثم قال استمشى بالسنا [2] ».

---

(١) عرق فى يده (٢) هو المعروف بالسنا المكى.

﴿ علاج عرق النسا ﴾ روى ابن ماجة عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: « دواء عرق النسا ألية شاة أعرابية تذاب ثم تجزأ ثلاثة أجزاء ثم تشرب على الريق فى كل يوم جزء» . عرق النسا وجع يبتدىء من مفصل الورك وينزل من خلف على الفخذ؛ وربما امتد على الكعب . وكلما طالت مدته زاد نزوله ويهزل معه الرجل والفخذ ؛ وهذا الحديث خطاب لأهل الحجاز ومن جاورهم ولا سيما أعراب البداوى فان هذا العلاج من أنفع العلاج لهم؛ فان هذا المرض يحدث من يبس وقد يحدث من مادة غليظة لزجة فعلاجها بالإسهال . والألية فيها الخاصيتان : الانضاج والتليين . وهذا المرض يحتاج علاجه إلى هذين الأمرين ؛ وفى تعيين الشاة الأعرابية قلة فضولها وصغر مقدارها ولطف جوهرها وخاصية مرعاها لأنها ترعى أعشاب البر الحارة كالشيح والقيصوم ونحوهما ؛ وهذه النباتات إذا تغذى بها الحيوان صار فى لحمه من طبعها بعد أن يلطفها تَغَذِّيه بها ويكسبها مزاجاً ألطف منها؛ ولا سيما الألية.

﴿ علاج ذات الجنب ﴾ روى الترمذى : « تداووا من ذات الجنب بالقسط البحرى والزيت»؛ وذات الجنب عند الأطباء نوعان: حقيقى وغير حقيقى ، فالحقيقى ورم حار يعرض فى نواحى الجنب فى الغشاء المستبطن للاضلاع ؛ وغير الحقيقى ألم يشبهه يعرض فى نواحي الجنب عن رياح غليظة موذية تحتقن بين الصفاقات ، إلا أن الوجع فى هذا القسم ممدود وفى الحقيقى ناخس ، والعلاج الموجود فى الحديث للقسم الكائن عن الرياح فان القسط البحرى (وهو العود الهندى) إذا دق ناعماً وخلط به

الزيت المسخن ودُلك به مكان الريح المذكور أو لعق كان دواء موافقاً .

﴿ علاج الصداع ﴾ روى أنه كان إذا صدع غلف رأسه بالحناء ؛ وهذا العلاج بالحناء لنوع من أنواع الصداع ؛ فان الصداع إذا كان من حرارة ملتهبة ولم يكن من مادة يجب استفراغها نفع فيه الحناء ؛ وإذا دق وضمدت به الجبهة مع الخل سكن الصداع . وفى الترمذى عن خادمته سلمى أم رافع : كان لا يصيبه قرحة ولا شوكة إلا وضع عليها الحناء .

﴿ علاج الرمد ﴾ كان يعالجه بالسكون والحمية مما يهيجه وفى حديث ابن ماجة أنه حمى صهيباً من التمر وأنكر عليه أكله وهو أرمد ؛ وحمى علياً من الرطب لما أصابه الرمد . وذكر أنه كان إذا رمدت إحدى عينى امرأة من نسائه لم يأتها حتى تبرأ عينها .

﴿ علاج البثرة ﴾ ذكر عن بعض أزواجه قالت : دخلت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد خرج فى أصبعى بثرة فقال : عندك ذريرة؟ قلت: نعم ؛ قال : ضعيها عليها وقولى : [١] اللهم مصغر الكبير ومكبر الصغير صغر مابى . الذريرة دواء هندى ، والبثرة خراج صغير يكون عن مادة حارة تدفعها الطبيعة فتسترق مكانا من الجسد تخرج منه فهى محتاجة إلى ماينضجها ويخرجها ؛ والذريرة هى إحدى ماينضج ويخرج .

﴿ علاج الخراجات بالبط [٢] ﴾ عن على قال : دخلت مع

---

(١) تأمل كيف كان النبى (صلى الله عليه وسلم) لا ينسى الله مع اتخاذ الاسباب الطبيعية التى فيها خاصية شفاء المرض ، واما لنرى كثيرين ممن يزعمون أنهم مسلمون يتركون الاستشفاء بالله وبالاسباب الطبيعية التى خلقها لأمراضهم ويذهبون الى الاموات يستشفون بهم؛فبذلك يعطلون سنن الله ويشركون بالله!! (٢) الشق؛فقوله بطوا عنه أى شقوا عنه لتخرج المدة والحكيم الذى يبط يعرف الآن بالجراح .

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على رجل يعوده بظهره ورم، فقالوا: يارسول الله بهذه مِدّة قال: بُطّوا عنه، قال عليّ: فما برحت حتى بطت والنبي (صلى الله عليه وسلم) شاهد. وعن أبى هريرة أنه أمر طبيباً أن يبط بطن رجل أجوى البطن؛ فقيل: يارسول الله هل ينفع الطب؟ قال: «الذى أنزل الداء أنزل الشفاء فيما شاء».

﴿علاج المرضى بترك إعطائهم مايكرهون من الطعام والشراب﴾

روى الترمذى وابن ماجة: «لاتكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فان الله عز وجل يطعمهم ويسقيهم»؛ قال بعض الأطباء: ماأغزر فوائد هذه الكلمة النبوية المشتملة على حكم إلهية لاسيما للأطباء ولمن يعالج المرضى؛ وذلك أن المريض إذا عاف الطعام أو الشراب فذلك لاشتغال الطبيعة بمجاهدة المرض أو لسقوط شهوته أو نقصانها لضعف الحرارة الغريزية أو خمودها؛ وكيفما كان فلا يجوز إعطاء الغذاء فى هذه الحالة ولا ينبغى أن يستعمل فى هذا الوقت والحال إلا مايحفظ عليه قوته ويقويها من غير استعمال مزعج للطبيعة كشراب التفاح وأمراق الفراريج المعتدلة الطيبة، وقد يحتاج فى الندرة إلى إجبار المريض على الطعام والشراب: وذلك فى الأمراض التى يكون معها اختلاط العقل. وعلى هذا فالحديث من العام المخصوص؛ أو من المطلق الذى قد دل على تقييده دليل. ومعنى الحديث أن المريض قد يعيش بلاغذاء أياماً لايعيش الصحيح فى مثلها.

﴿ علاج المرضى بتطييب نفوسهم وتقوية قلوبهم ﴾ روى ابن ماجة: «إذا دخلتم على المريض فنفسوا له فى الأجل ، فان ذلك لايرد شيئاً وهو تطييب لنفس المريض» . إن تفريح نفس المريض وإدخال مايسره عليه له تأثير عجيب فى شفاء علته وخفتها ، فان الأرواح والقوى تقوى بذلك فتساعد الطبيعة على دفع المؤذى ، وقد شاهد الناس كثيراً من المرضى تنتعش قواهم بعيادة من يحبونه ويعظمونه ورؤيته لهم ولطفه بهم ومكالمته إياهم . وهذا أحد فوائد عيادة المرضى .

وكان يعالج الأبدان بما اعتادته من الأدوية والأغذية دون مالم تعتده .

﴿ تغذية المريض بألطف مااعتاده من الأغذية ﴾ عن عائشة أنه كان إذا قيل له إن فلاناً وجع لايطعم الطعام ، قال : «عليكم بالتلبينة فحسوه إياها — ويقول — والذى نفسى بيده إنها تغسل بطن أحدكم كما تغسل إحداكن وجهها من الوسخ» . التلبينة: الحساء الرقيق الذى هو فى قوام اللبن يتخذ من دقيق الشعير بنخالته . والفرق بينها وبين ماء الشعير أنه يطبخ صحاحاً والتلبينة تطبخ منه مطحوناً ، وهى أنفع منه لخروج خاصية الشعير بالطحن . وكان من عادة القوم أن يتخذوا ماء الشعير منه مطحونا لاصحاحاً وهو أكثر تغذية وأقوى فعلا . وإنما اتخذ أطباء المدن منه صحاحا ليكون أرق وألطف فلا يثقل على طبيعة المريض . وهذا بحسب طبائع أهل المدن ورخاوتها .

﴿ علاج السم ﴾ احتجم يوم أن أكل من الشاة المسمومة فى خيبر ، وأمر أصحابه أن يحتجموا فمات أحدهم ، وحجمه أبو هند بالقرن

والشفّرة . ومعالجة السم تكون بالاستفراغات وبالأدوية التى تعارض فعل السم وتبطله إما بكيفياتها وإما بخواصها . فمن عدم الدواء فليبادر إلى الاستفراغ الكلى ؛ وأنفعه الحجامة لاسيما إذا كان البلد حاراً والزمان حاراً فان القوة السمية تسرى إلى الدم فتنبعث فى العروق والمجارى حتى تصل إلى القلب فيكون الهلاك . فالدم هو المنفذ الموصل للسم إلى القلب والأعضاء .

ولما احتجم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) احتجم فى الكاهل وهو أقرب المواضع التى يمكن فيها الحجامة إلى القلب فخرجت المادة السمية مع الدم ؛ لاخروجاً كليا بل بقى أثرها مع ضعفه — وظهر سر قوله تعالى لأعدائه من اليهود : (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) . فجاء بلفظ كذبتم بالماضى الذى وقع منهم وتحقق . وجاء بلفظ تقتلون بالمستقبل الذى يتوقعونه وينتظرونه ؛ والله أعلم.

﴿ علاج لدغة العقرب ﴾ فى مسند ابن أبى شيبة : بينما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصلى إذ لدغته عقرب فى أصبعه فانصرف وقال : « لعن الله العقرب ماتدع نبياً ولا غيره » ؛ ثم دعا باناء فيه ماء وملح فجعل يضع موضع اللدغة فى الماء والملح ويقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين. فى الملح نفع لكثير من السموم قال صاحب القانون : يضمد به مع بذر الكتان للسع العقرب ؛ وذكره غيره . وفى الملح من القوة الجاذبة المحللة مايجذب السموم ويحللها .

﴿ النهى عن التداوى بالمحرم ﴾ ورد النهى عنه (صلى الله عليه وسلم) عن

التداوى بالمحرم، وقد سئل عن الخمر فقال: إنها داء وليست بالدواء». أخرجه أصحاب السنن وذكر البخارى: «إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم[1]».

﴿ العلاج بالأدعية الالهية ﴾

﴿ علاج حر المصيبة وحزنها ﴾ قال تعالى: (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مُصِيبةٌ قالوا إنّا لله وإنّا اليه راجعون * أولئك عليهم صَلَواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتَدون) وفى المسند عنه (صلى الله عليه وسلم) قال: « مامن أحد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا اليه راجعون اللهم أُجرنى فى مصيبتى واُخلف لى خيراً منها إلا أجره الله فى مصيبته وأخلف له خيراً منها ».

﴿ فى علاج الكرب والحزن ﴾ فى جامع الترمذى أنه كان إذا أحزنه أمر قال: ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث . وفى سنن أبى داود: «دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت».

﴿ هديه صلى الله عليه وسلم فى حفظ الصحة ﴾

كان إذا عافت نفسه الطعام لم يأكله ولم يحملها إياه على كره . وهذا أصل عظيم فى حفظ الصحة؛ فان أكل الانسان ما تعافه نفسه ولا

---

(١) ربما يعترض الحكماء على هذا بأن الخمر نافعة لأمراض من الحميات وغيرها فنقول لهم: إن تحريمها فى الدواء كان لسد باب استعمالها فى اللذة لئلا يتخذها أرباب الشهوات حيلة لالتذاذهم وإفنائهم الهم فيها يؤثرونها على غيرها وتزيد علاقتهم بها ويفشو استعمالهم إياها. أما إذا كان الحكماء لا يجدون غيرها يقوم مقامها فى تأثيرها فى المرض فلا جناح عليهم إذا نظروا اليها بهذا النظر واستعملوها للضرورة بقدرها (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم).

يشتهيه كان تضرره به أكثر من انتفاعه . ولما قدم إليه الضب المشوى لم يأكل منه ؛ فقيل له : أهو حرام ؟ قال : « لا ! ولكن لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه » .

وكان يحب اللحم ويقول: «هو سيد طعام أهل الدنيا والآخرة». (ذكره ابن ماجة) وأحبه إليه الذراع ومقدم الشاة . عن ضباعة بنت الزبير أنها ذبحت فى بيتها شاة فأرسل إليها : أن أطعمينا من شاتكم ؛ فقالت : ما بقى عندنا إلا الرقبة وإنى لأستحى أن أرسل بها إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فرجع الرسول فأخبره ؛ فقال: ارجع إليها فقل لها: أرسلى بها فانها هادية الشاة وأقرب إلى الخير وأبعدها من الأذى » .

وكان أحب الشراب إليه البارد الحلو ؛ وكان يستعذب له الماء ويختار البائت منه ـ لأن الاجراءت الترابية والأرضية تفارقه إذا بات .

روى مسلم عنه (صلى الله عليه وسلم): «غطوا الأناء وأوكئوا السقاء» . وفى البخارى انه (صلى الله عليه وسلم) نهى عن الشراب من فى السقاء[1] .

وكان فى كل أعماله على أعدل نظام ينفع البدن . أنظر هديه فى طعامه وشرابه ولباسه ونومه ويقظته ومشيه وجلوسه ونظافته ؛ فصلوات الله وسلامه عليه، علم أمته جميع ماتحتاج إليه .

---

(١) إن الطعام والشراب إذا كان مكشوفا تلوث بما يحمله الهواء من الاقذار والجراثيم الضارة وبما يدب حوله من الحيوانات؛ كما أن الشرب من فم السقاء وكل إناء لا يكون فيه المشروب مرئياً للشارب قد يضر بأن يكون فى الماء شيء يندفع الى البطن ــ فتأمل حكمة الشرع .

الخاتمة

من يقرأ هذا الكتاب يجد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان مثالا للحياة الطيبة: قد جاء لنا بكل ما نحتاج اليه من أصول الاصلاح الروحية والجسدية ، وهذه الأصول هي أصول القرآن التي ارتقى بها المسلمون الأولون ، وقد وصلوا الى ما وصلوا اليه من سعة الملك والعمران بفضلها ولما تركوها نقصت أطراف أرضهم ؛ بل سقط كل ملك لهم وصاروا عبيداً لغيرهم .

فالمسلمون الآن في تعاليمهم الدينية متأخرون إذ إنهم يدرسون كتباً أبعدتهم عن القرآن ولا يدرسون القرآن إلا على سبيل (البركة) أي لا للهداية والعمل !!! . ولو كنا نتدارس القرآن كما كان يتدارسه سلفنا لما تأخرنا وتقدم غيرنا من الأجانب الذين بنوا عمرانهم على أصول القرآن — وهم يكفرون بالرحمن . . .

ولو قارنا بيننا وبينهم وأظهرنا ماذا نصنع نحن في معاهدنا الدينية وماذا يصنعون هم في حياتهم الدنيوية لازددنا حسرة على حسرتنا ؛ ولكن رب حسرة أورثت عبرة ! فانظروا أيها المسلمون لعلكم تعتبرون .

نحن نضرب في زيد فنقول : ضربنا زيداً ونضربه ! وهم يضربون في الأرض للتجارات والاكتشافات . .

نحن نحلل رموز جمع الجوامع وتعقيدات ابن الحاجب وهم يحللون الأجسام إلى عناصرها ويعرفون وظيفة كل عضو فيها وما يحتاج إليه كل جسم منها . . .

نحن نؤلف المقدمات المنطقية الصغرى والكبرى وهم يؤلفون الشركات

الاقتصادية والجمعيات الخيرية .

نحن نستخرج النتائج من تلك المقدمات وهم يستخرجون اللؤلؤ والمرجان من البحار ويستخرجون زيت الصخر (البترول) والفحم والحديد والذهب وسائر المعادن والكنوز من الأرض . . .

نحن نركب فى (تأبط) شراً) و (معديكرب) وهم يركبون الأدوية والأطعمة والأشربة ؛ ويركبون الأسلاك البرقية ويركبون المدافع على الحصون ؛ ويركبون السكك الحديدية ؛ ويركبون السماد المنتج للزرع ؛ ويركبون كل آلات الصناعات وعُدد الأعمال ...

نحن نجرى الاستعارات فى (رأيت أسداً فى الحمام) و (أنشبت المنية أظفارها بزيد) وهم يجرون السفن فى البحار ؛ ويجرون المياه فى الأنابيب والمرشحات ؛ ويجرون الكهرباء فى الأسلاك ؛ ويجرون القطارات والترام والسيارات . .

نحن نشرح جلود الحيوانات وشعورها فنتنازع فى طهارتها ونجاستها وهم يشرحونها فى المصانع والمعامل ليتخذوا منها أثاثاً ومتاعاً ...

نحن نستظهر صفات الله بأنها قديمة أزلية قائمة بذاته تعالى (لو كشف عنا الحجاب لرأيناها) وهم يستظهرونها بما يشرحونه من جسم الانسان والحيوان والنبات وبما يعلمونه من نظام الله وسننه فى سائر خلقه ...

نحن فى كل علومنا لانخرج عن مجادلات فى ألفاظ ليس من ورائها عمل تتزكى به النفس أو تستفيد منه الأمة والبلاد ، وهم قد طاروا فى السماء وغاصوا تحت الأرض وسخروا الماء والهواء وانتفعوا بما فى الكون من السنن حتى امتلكوا كل شىء وامتلكونا ضمنا وسخرونا تبعاً فأين نحن منهم ؟!

(قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب)

بعد ذلك يقف خطيبنا على المنبر ويقول « الدنيا جنة الكافر وسجن المؤمن » فيزهد المؤمنين فى شؤون العمران لأنها فى نظره ليست من أعمال الآخرة . . ويرغبهم فى الآخرة بقوله : « من صام ثلاثة أيام من رجب غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وأدخل الجنة بغير حساب وأعطى مالم يحصه الا الله من نعيمها » . ويقول : الانسان ما دام يقر بالشهادتين وإن لم يعمل بهما يصير من أمة محمد (وأمة محمد على خير) ! او يقول : إن النبى (صلى الله عليه وسلم) سيشفع للمجرمين يوم القيامة ! ويقول : إن دخول الجنة ليس بالعمل ويجوز أن المجرم العاصى لله يدخل الجنة والطيب المطيع لله يدخل النار ! ! وأمثال هذه التعاليم التى تميت شعور الناس وتربيتهم على الجبن والكسل والفوضى وتزيل من نفوسهم هيبة الله وتشككهم فى وعده ولا تجعل حكمة للدين ولا قيمة للتدين . . .

وقد أصبح المسلم يكتفى بنسبته إلى الاسلام ، أى لا يهتم بالعمل ، وأكثر المسلمين لا يعملون بالاسلام ولكنهم مسلمون بالاسم والاحصاء الرسمى ! ! وسبب ذلك تلك التعاليم المشوهة التى يتغنى بها خطيبنا .

إن السامع لهذا الخطيب يأخذه العجب ويقول : كيف ان المؤمنين يكونون أذلاء فقراء فى الدنيا ؟ كأن الله جعل هذا الكون وما فيه من المنافع للكافرين يتمتعون به ، وجعل جزاء المؤمنين الذلة والمسكنة والحرمان من تلك المنافع ! ! وكأن المؤمن لم يكن إلا ليعلق سبحة فى رقبته وينزوى فى خلوة أو مسجد لا يعرف من هذا العالم شيئاً ! وكأن الجنة دار للكسالى والعاطلين ! إن كان هذا من أصول الاسلام فتكون أصوله

أصول عجز ، وكسل ، وفقر ، ومذلة — وهذا جهل بالاسلام وأصوله. فأصول الاسلام أصول عمل ، ونشاط ، وغنى ، وعزة ، وملك، وسلطان.

وإن كان قد فهم خطيبنا أن الله يسجن المؤمنين فى الدنيا ويذلهم ليوسع لهم فى الآخرة ويعزهم فعلام يعزهم فى الآخرة ؟ وهل تبنى العزة فى الآخرة إلا على العزة فى الدنيا ؟ هل تظن أن الله تعالى جعل الجنة فى الآخرة للمؤمنين بالاسم ؛ الذين ينتسبون إلى الايمان وليست فيهم صفات المؤمنين وأعمالهم ؟ وهل تظن أنه تعالى يعطى الجنة جزافاً ؟ أم أنه جعلها جزاء ؟ وجعل الجزاء كما قال : (جَزَاءً وِفَاقًا) . وقال: (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً) . فالأعمى هو الضال الذى لايكون بصيراً بأمور دينه ، والذى لايعمل على إعلاء كلمة ربه ، وعزة أمته وبلاده . فالأمة التى ترضى بالذل وتعيش ذليلة فى الدنيا تكون كذلك فى الآخرة ، وتكون من أهل النار وليس لها حظ فى الجنة لأنها ليست من المؤمنين.

فلتتنبه الأمم الاسلامية ولتنظر عمل رسول الله وأصحاب رسول الله ولتسمع قول الله فى صفات المؤمنين بالله : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ). وقال: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . وقال: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ). وقال: (وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا) وقال : (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) وقال (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) وقال : (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

هذه ياقوم صفات المؤمنين فليس من صفاتهم أن يجهلوا شؤون الحياة وعلوم الكون وأن يعيشوا فى الدنيا عالة أذلاء مستعبدين ؛ بل من صفاتهم أن يكونوا أعلم الناس بشؤون الحياة وأكثرهم عملا بسنن الله وأن يعيشوا أعزاء وأحراراً مستقلين . فياقوم لاتمنوا أنفسكم بالجنة بدون عمل ولا تصدقوا أن يجتمع إيمان وكسل ! فاعملوا لتعيشوا أعزاء أو لتموتوا شهداء (اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا . رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ .

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ . ..

﴿ فهرس هدى الرسول صلى الله عليه وسلم ﴾

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة